

السؤال الآخر

د . سيد محمود القمنى

السؤال الآخر

لوحة الغلاف للفنان :

عبد العال حسن

الكتاب الذهبى :

كتاب دورى

يصدر كل شهر

المراسلات :

٨٩ أ شارع قصر العينى

مؤسسة روزاليوسف

الكتاب الذهبى

طبع بمطابع
روز اليوسف

رقم الإيداع :

٩٨/٤٠٢٦

الطبعة الأولى
فبراير ١٩٩٨

الكتاب الذهبى

مؤسسة روزاليوسف

تأسس عام ١٩٥٤

رئيس مجلس الادارة

محمود التهامى

المشرف على التحرير

محمد بغدادى

سكرتارية التحرير

أيمن التهامى

عصام زكريا

السكرتارية الفنية

أنور معروف

* الكتاب الذهبى يصدر شهريا عن مؤسسة روز اليوسف. فبراير ١٩٩٨ *

السؤال الآخر

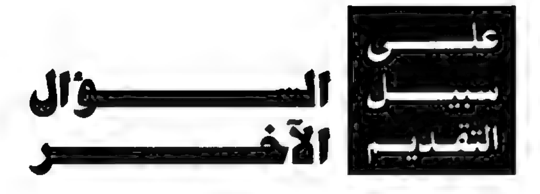
دكتور
سيد محمود القمنى

الطبعة الأولى
١٩٩٨

الإهــــداء

إلى شهداء مجزرة الأقصر :

قـربـان


على
سبيل
التقديم
السؤال
الآخر

الســـؤال الآخــر

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات والـدراسات والحوارات التى سبق نشرها و إذاعتها عبر العـامين المنصرميـن، انشغلت بطرح مجمـوعة مـن الأسئلة والاستفسارات المصحـوبة بمبررات طـرحها العمليـة والعلمية والعقليـة ، والأهم «الـوطنية». وقـد تم وصـف مثل تلـك الطروحات المتسائلة بأنها أسئلة حرجة وصعبة أحيـانا، وبأنها مُقلقة تهز أموراً تصورها الناس من الثوابت أحيـاناً أخرى، وأحياناً ثالثة بـأنها تخوض فى مناطق شديـدة التخصص فى علوم الديـن، ولاتصح مناقشتهـا على المـلأ، لأن إشراك العامـة فيها مفسدة لهـم، بل مثيـر للفتن والبلبلة فـى المجتمع. وهى المعـانى التـى سبق ورددها الأستـاذ فهمى هويـدى فى هجـومه علينا وعلى كتـابنا (الحزب الهاشمى) فـى أهرام ٢٣/ ٣/ ١٩٨٩ . وهو ماسيكـرره هنا الأستاذ الدكتور كمال أبو المجد بداخل هذا الكتاب.

وهنا بالتحديد تكمن أهمية السؤال الآخر المقلق الصعب الحرج، إذ نعتقد بشديد البراءة ـ أن أى أمـر قابل للطـرح وللمناقشة بـالحجج العقلية والأدلـة الاستنباطية والعلميـة، حسبما تحتاج الظروف، وحيثما كانت مصالح العباد والبـلاد فثم وجه الله. ولاشك أن إخفاء جوانب فى مـأثورنا و إبراز أخـرى كان يرتبط طـوال تاريخنا بمصالـح انتهازية، بغرض التعميـة على مناطـق فى تاريخ الإسـلام المقدس أو فى تـاريخ الوطـن، كان يمكنها فضح وتعـرية لاءات الإعلام الموجه ولاءات الإرهاب المسلح معا.

ومن هنـا ستجد داخل هذا الكتـاب كثيراً من التسـاؤلات المزعجة، لأننا الآن وقبـل غد بحاجة إلـى كل إزعاج ممكن، فمن جـانبنا ليس لدينا مـانخشى خسارته سوى ذلـك الوطن الذى يتسرب من بيننا إلى الضياع. وهنا محور التحدى والجرأة الواثقة المطمئنة إزاء جميع النفعيين والانتهـازيين، سـواء كانوا أشخـاصا أم مـؤسسات أم أحزابـا أم أصحاب منـاصب سيادية، والذين هم أشد فتكا بهذا الوطن من الإرهاب المسلح.

وهنا نحن لانفعل أكثر مما كان قاعدة لملايين المصريين الذين ماكان لديهم شيء يخشون عليه الخسارة، فصاغوا إسلاما خاصا مصريا يتضفر مع حاصل تراث وثقافة مصر جميعاً. ولم يرهبهم منطق القداسة المتربع بجوار العرش السلطانى، وتركوا تراثا هائلا لم يزل بعد بحاجة إلى التصنيف والتبويب والاحترام الكامل والعلمى. لنفهم أى عبقرى هذا الشعب؟

ولأن هذا الشعب كان كذلك، وكان كثير الدهشة ولايخشى ملامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها فى صيغة سؤال يقول دهشا مستنكراً: (هوه السؤال حُرُمْ؟!). وهو ذات الشعب الذى كان يرفض الأوضاع الخاطئة فى المجتمع، كما يرفض فى ذات الوقت الرشوة المقدسة بالحور والخمور فى عالم الأبدية، فى مثله البسيط السائر (المحتاج يبيع نصيبه فى الجنة). لكن ماحدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية، التى قامت عن عمد وسبق إصرار بتزييف وعى الجماهير، مما أفرز لدى المواطن المصرى وعيا زائفاً لاعلاقة له بالفرز الطبيعى للوطن، لذلك كان طبيعيا أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح بعد أن غاب مفهوم الوطن وقيمه لصالح ذوى المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدول التى ترعاها.

والسؤال هنا يخوض فى أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعى دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح ربما كان صادما نحو المناطق التى تتعلق بمعاشنا وحياتنا. حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها، لأن استمرار السكوت مع الوعى والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بعدو البلاد عام ١٩٦٧ إلى حدود الدلتا الشرقية، وانتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

وبينما تعلن الدولة تمسكها بكل لاءات الحريات والحقوق الإنسانية، فإنها فى واقع الممارسة تفعل شيئاً آخر تماما. فهى طوال الوقت تكرس لمنهج يكبح السؤال والإبداع الحر، ويدرب العقل على الطاعة الكاملة. وأنه لاخوف علينا فنحن خير أمة أخرجت للناس، تقف من ورائنا منظومة فكرية متكاملة ثم إنها قدسية، لايدخلها الباطل أبداً، أى أننا نملك

الحقيقة المطلقة وكـل علم ممكن، لأن لدينا فـى تلك المنظومة كل الكشـوف العلمية حتى مالم يكتشـف منها (؟!)، ولدينا قـوانين تنظيم المجتمع، ولدينـا قواعد الحريـات السياسية والإنسانية، ولدينا قوانيـن الاقتصاد الكامل، وقوانين علوم التربية النهائيـة، وعلاج كل أمر فى كل شأن.

وهكذا، تم تكريس الواحدية الشمولية الدينية، مع تضخم الذات وتورم الأحلام فحصلنا على أجسام الديناصورات بالتكاثر والتناسل الـذى نجيده حقا وصدقا، لكن مع عقول دمرتها الخرافة والمناهج الواحدية، ونفوس تضج فـى الصدور بألف علة وتشوه نفسى، أليست تلك جريمـة وطنية عظمـى بكل المقاييـس؟ وعشنا خـدر العصور البـدائية وتصورنـا أننا بكثـرتنا العددية (نحن الغـالبون)، رغم أن المصرى الخبير سبق وأكد فى مثلـه السائر: إن (العدد فى الليمون)، فـأدرك حكمة انقـراض دولة الدينـاصور مـن الوجود. ذلـك المصرى الـذى هضم وامتص الأيديولـوجيا الوافدة ليضفرها مـع نظرته الفلسفية للكون، المعتمدة علـى بنية تحتية مخالفة لتلـك الأيديولوجيـا، وقام يحول الإله أوزيـريس رب الزرع إلى (الشيـخ زارع) الولى التقـى صاحـب المـوالد، وآمـون إلـى (الحجاجـى)، وإيـزيس ربـة الخضـرة إلى الشيخـة (خضـرة)، وفى العـاصمة أصبحـت إيزيـس ست الـديوان السيـدة زينب، لكـن هذا الفـرز الطبيعى لم يعد الآن كذلك نتيجة تدخل الآلة الجهنمية للإعلام الموجه داخل كل بيت.

إضافة إلـى أن هناك أسبابا فصيحة واضحة معلـومة لهذا الارتكاس، فإنى أزعـم هنا زعما سيبدو شديـد الغرابة أحتسبه أحد أهم أسبـاب ذلك النكوص، وهو التعليم المجانـى الموجه الذى اعتمدته ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، ليخترق المنظـومة المصرية الأصيلة وخط سيولة الوعـى، بقطع الشـريان الواصـل من القلب إلـى العقل حيـث جهاز الوعـى، ووصل مكـانه بمضخة التعليم الموجه مقابل مجانيته. ودفع الوطن مقابل هذه المجانية عقل أبنائه بل ربما وجوده المستقبلـى على صفحـة التاريخ. وقـام هذا التعليـم يضخ إلى الشـارع بالألـوف من المؤدلجين الجـاهزين دوما لتصفية الآخـر المخالف للرأى الأحادى المطلـق الصدق، وكان إرهاب اليوم هو جنى مازرعت أيدى هؤلاء بالأمس وحتى اليوم.

لقد احتاجت مؤسسة الدولة دوما تبريـرات فقهاء السلطة المحترفين من العاملين بشئون التقديس، لمواقفها السياسية وسياساتها الاقتصادية وفلسفتها الشمولية، فكان ما كان.

لقد كانت مجانية التعليم غير مجانية بالمرة وعلى الإطلاق، فقد اشترت بهذه المجانية الأرواح والعقول وكل الشواهد تؤكد ذلك. ولأن التوجه كان عروبيا وحدويا فى منهج شمولى، كان لابد من تكريس اللغة العربية، والتعليم بحاجة إلى وعاء اللغة، لكنها اللغة التى كان يسخر منها الفلاح المصرى ويتساءل مستنكراً رافضا متوجسا: (إنت هاتكلمنى بالنحوى؟!). لقد كان (النحوى = العربى الفصيح) يعنى له أن هناك مؤامرة تختفى وراء الألاعيب اللفظية، ستمررها عليه الفصحى بأساليب ملتوية غير مباشرة. ولاشك أنها تحمل خدعة مبيتة. هذا رغم علم هذا الفلاح وإيمانه أن اللغة العربية لغة مقدسة، خاطب الله بها نبيه، وبها تحدث آدم فى الجنة مع الملائكة، وأنها ستكون لغة الحساب بعد البعث ثم لغة الأبدية.

المأساة تتضح بعد تحول الكثيرين من الأميين إلى متعلمين بل حاصلين على أعلى الشهادات التى لاتعنى الثقافة بمعناها العلمى الدقيق. وحملت إليهم العربية مع أيديولوجيتها الواحدية كل محيطها الذى ارتبط بها وأفرزها، أى المنظومة البدوية بكاملها. فكان أن اختفت كثير من مفردات اللسان المصرى الباقية فيه من راسبه القديم، وكذلك توارت كثير من النظم والعادات والتقاليد الأصيلة، ثم انقرضت الكرنفالات المصرية التى أصبحت حراما، رغم أنها كانت مساحة الإبداع الفكرى والفنى المصرى بمذاقه الخاص ونكهته المتفردة، وسر سيادته فى المنطقة. أقصد سيادته التى كانت.

وسادت العربية التى أصبحت تكرر على المسمع فى القرى والنجوع، فى الإعلام والتعليم، دون دراسة كافية عاشقة لمصر وعلمية فى الآن نفسه، لسبل التضفير التى صاغها المصرى عبر تاريخه، لتكون النموذج فى المنهج. لكن ماحدث ككل حياتنا كان عشوائيا، وكرس لملكات الحفظ ، والحفظ يعنى التلقين والترديد كما يدرب على الطاعة. ومن هنا انتهى بعض من أفرزهم هذا المنهج إلى أن طاعة الله هى الأبقى، فقام يقتل الجميع حيث ثقفوهم لأن الدين عند الله الإسلام، وقد أمر الإسلام بقتال غير المسلم وأيضا المسلم المرتد، وفى الفجوة مابين التسارع فى إيقاع التكنولوجيا وتطورها ومايصحبها من بنية فكرية ونظم اقتصادية واجتماعية، وبين المنهج الثابت الأوحد الذى كرس له نظام تعليمنا وإعلامنا، وجد هؤلاء المبرر فقاموا يكفرون المجتمع كله ويرونه مرتداً يستحق إعلان الجهاد عليه.

وكلامنا هنا لايعنى بالطبع استبعاد العربية، أو المقدس، أو الثقافة العربية، أو مجانية التعليم، بل إن كل مايعنيه أن الإعلام والتعليم الموجه قد تم بأسلوب غير علمى، وشابته الأغراض طوال الوقت، والمنهج غير العلمى ولا المصرى فى التفكير، لأن المنهج العلمى السليم والمصرى الوطنى هو عدم تغليب الثقافة العربية على المصرية، إنما نسج كليتهما فى مصهر واحد، وأن هذا المصهر يجب دوما وطول الوقت أن يكون مصرياً، وألا يغيب المشترك المصرى عن أى خطة ولا لحظة واحدة.

والواضح لكل ذى عينين أن منهج التعليم المجانى قد عنى بتاريخ العرب وتاريخ الإسلام والمسلمين أكثر مما اهتم بتاريخ مصر المتصل، حتى تم إسقاط حقبة كاملة من حقب التاريخ المصرى المعلن لأنها لم تكن عربية ولا إسلامية، فقط لأنها كانت قبطية.

لقد عنى منهج التعليم المجانى وحتى الآن بتكريس أسلوب الحفظ والطاعة مع نفى الآخر المخالف لمنظومتنا الشمولية، بل إن قتل ذلك المخالف شرعة وفريضة دينية تم مزجها بالوطنية، ومن هنا أسس هذا المنهج لكل القواعد المعادية لمفهوم الحريات الإنسانية، فكان أن خسر شبابنا حريتهم وتحولوا إلى آلات تنفيذ مصمتة، تعتدى على حريات الناس وحرماتهم وأفكارهم وعقائدهم.

ومع الضعف والرخاوة اللذين أصابا الدولة بعد حصدها نتائج منهجها، تحول أخطر أجهزة التثقيف (التليفزيون) إلى معرض للفكر الإرهابى، بل تعظيم الفكر وتضخيمه والتسليم له بالطاعة، وشاهدى هو البرنامج التليفزيونى الذى أذاعه تلفازنا الميمون فى برنامج دينى مسائى ليلة الإسراء والمعراج وذلك بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧.

لم يشغلنى ماقال المنتدون فيه حول عظات وعبر ليلة الإسراء والمعراج، إن ماشغلنى حقا فى البرنامج، حشده لأعاظم الوعاظ، ومع هذا الحشد الرفيع كنت ـ ومثلى كثيرون ـ نتوقع أن نسمع جديدا، وجرأة على الجمود والتقليد والثبات بعد حادث الأقصر الرهيب، وقولا فصيحا يطلب إيقاف تدفق سيل منهج المعجزات، الذى أدى بنا إلى الجلوس ننتظر معجزة الخلاص، نطيل اللحى ونحرص على المواقيت، ويحمل بعضنا الرشاشات لتحقيق فريضة الجهاد، حتى يكتمل أداء الفروض فتتدخل السماء لتدمر لنا الآخر المتفوق، فى أمريكا أو إسرائيل لافرق، بدل أن نبذل نحن جهود تأسيس الحريات، التى تسمح لمناخ



العلم بالفرز، فنصعد نحن إلى مستواهم، لكن ماسمعناه تلك الليلة كان أكثر إملالا من أفلام التليفزيون التى تكرس مفهوم سعادة الفقراء.

ولا أظن عاقلا لم يتملكه الفزع وهو يستمع من أصحاب المعالى على التوالى وبالدور قصائد المديح التى تذوب وجداً فى الشيخ الشعراوى. حتى عندما جاء الدور على رئيس جامعة الأزهر المعروف بصوته الجهورى العالى القوى، جاءت كلماته المادحة خفيضة الصوت هادئة الوقع. أما عبارة (شيخنا، أُستاذنا، معلمنا) فكانت المفتتح عند كل فقرة من خطابات تقديم ختم الدولة ممثلة فى مشايخها الرسميين، للخطاب الشعراوى. ذلك الخطاب الذى استمر مايقرب من ثلاث سنوات أو يزيد ينفخ فى نيران الفتنة الطائفية عبر تلفازنا المبروك، ويكفّر علنا وداخل كل بيت إخواننا المسيحيين ويسفه عقائدهم، ذلك الخطاب الذى وقف بالمرصاد لما ينفع الناس فأفتى بتحريم زراعة الأعضاء حتى أغلق بنك العيون ضلفه أو كاد، ذلك الخطاب الذى شمت فى أوجاع الوطن وكل حى أو ميت على أرض هذا الوطن، فقام يصلى صلوات الشكر لما حاق بنا من هزيمة كبرى. ذلك الخطاب الذى انشغل بالذات وبالنجومية ولم ينشغل بآلام الناس وأمانيهم ولو مرة. لقد حاز صاحب هذا الخطاب نجومية لم يصل إليها أحد قبله فى التاريخ الإسلامى ومع ذلك لم ينشغل بالناس التى صنعت منه هذا الخطاب النجم.

لقد كان بإمكان صاحب الفضيلة ـ مع هذه الشعبية الكاسحة ـ أن يكون قيادة لجماهير الأمة لتحقيق مصالح الناس، كان بإمكانه أن يعلن الصيام ومعه كل المسلمين وكل المسيحيين حتى يتوقف الإرهاب الدموى على كل مستوياته، لكنه لم يفعل. كان بإمكانه أن يطلب من كل مصرى بل من كل مؤمن بقدسية الإنسان وحريته فى العالم، أن يجعل من حدث مجزرة الأقصر يوما للحزن العالمى دعما لدعوة الرئيس مبارك للعالم للوقوف ضد الإرهاب، لكنه لم يفعل .

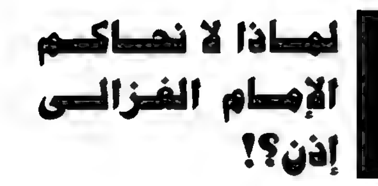
كان بإمكانه رفع مظالم كثيرة لو قرر هو الصيام مفرداً حتى تُرفع. كان بإمكانه التحريض الشعبى فى كل بلاد المسلمين على عدم التعامل مع إسرائيل أو المصالحة ـ بغض النظر عن الحكومات ـ حتى تخضع للمواثيق والعهود، لكنه لم يفعل. وكان بإمكانه أن يكون رمزاً عالمياً لو طلب من كل شرفاء العالم الوقوف مع قضايانا، بنفس أساليبنا فى الاحتجاج، وكان

يمكنه بذلك أن يقدم عن الإسلام وعن مصر صورة أنظف مما تقدمها جماعات الإرهاب اليوم. هناك الكثير كان بإمكان هذا الشيخ أن يفعله فى فرصة تاريخية حازها وشهرة نالها وتقدير وصل به حد التقديس، فرصة لايجود بمثلها الزمان مرتين، لكن الشيخ لم يفعل.

هذا هو المنهج الذى تمارسه مؤسساتنا الإعلامية الكبرى فى دولة تعانى من الإرهاب الدموى المسلح يأكل قلبها ويمتص رحيق الحياة فى كبدها. لذلك لم يكن غريبا أن نسمع من مرشد الإخوان طلبا باستبعاد المسيحيين من الجيش ودفعهم الجزية، أو نحاكم القول ونصادر الرأى، أو يظل تعاملنا مع المرأة باعتبارها مجرد نصف ذكر، ووسط هذا المناخ لم يزل مطلبنا عودة زمن الفتوحات لنستعمر البلاد ونسبى العباد، بينما نحن ملقون إلقاء فى قاع تراتب الإنسانية، فأى مرضى نحن؟!

إن هذا الكتاب الذى بين يديك يضم مجموعة مقالات تطرح تساؤلات آن لها أن تطرح أيا كانت العواقب على شخص الكاتب، تساؤلات تُصر وتكرر مطاليبها بين موضوع وآخر، وهى المطاليب التى لن تتحقق إلا إذا سمحنا للسؤال الآخر بالمرور، واعتدنا سماع الرأى الجديد أو المخالف، وبفتح النوافذ على العقل دون تقييد أو قمع، وأن تناقش الفكرة الأخرى ولا تطالب بمصادرتها أو تكفيرها. أن نحقق العلمنة على مساحة الثقافى على الأقل وهو أدنى المطاليب. ساعتها يمكن القول أن هناك أملا فى أننا سوف نكون.

سيد القمنى



١

لماذا لا نحاكم الإمام الغزالى إذن؟!

لماذا لانحاكم
الإمام الغزالى .. إذن؟!

«من المقـرر لدى فقهاء الشـريعة الإسلاميـة ، إن الردة هى الـرجوع عن الإسـلام، وركنها الصحيح بالكفر،إما بلفظ يقتضيه، أو فعل يتضمنه، ويعتبر كافرا من استخف بالقرآن الكريم أو السنة النبـوية أو استهزأ بهما أو جحـدهما أو كذبهما. أو أثبـت أو نفى خلاف ماجـاء بهما مع علمه بذلك عنادا ومكابرة.. أو تشكك فى شىء من ذلك».

هذا الذى قـرأتم عاليه، ليـس تلاوة لقرار من قـرارات محاكم التفتيش علـى المتهم قبل فصل رأسـه عن جسده بـالمقصلة، إنما هو اقتبـاس بالنص مـن حيثيات الحكم فـى قضية نصر حامد أبوزيد.

هذه المـرة يقف السؤال مـع آخر جملة بتلـك الحيثيات وهـى الجملة التى تصـدر قرارا بتكفير أى مسلم يتشكـك فى أمر من أمـور الدين، وبالتالـى فهى تعتبر الشاك مـرتدا يستحق الإعدام. وبذلـك وضعت فتوى أصبحت ضمن بنـود القانون المصرى، حيـث يتحول حكم محكمة النقـض إلى سابقة قـانونية ومادة يعمـل بها فى الحـالات المشابهة، وهنا لابـد من التساؤل عن حجم أنهار الدم التى ستسيل إذا تضاعف تصاعد ذلك المد السلفى.

فمن منا لم يشك؟.

حجة الإسلام الإمام أبوحـامد الغزالى وضع كتابا أسماه (المنقـذ من الضلال) وضع فيه أصول الشك فى كل أمر من أمور الدين حتى وصل به المدى إلى التشكيك فى وجود الذات الإلهية ذاتهـا. ومن يقرأ هذا الكتـاب سيشك حتما حتـى لو لم يكـن قد شك من قبـل أبدا. والإمام الغزالى رحمه الله يأخذ بيدك فى طـريق الشك يسكبه بداخل عقلك سكبا حتى آخر صفحة من صفحات الكتاب بعد أن تكون أميل إلـى التشتت النفسى وأكثر ماتكون تشككا فى كل الثوابت الإيمانيـة، ليترك يدك ويقول: أما أنا فقد قذف الله بنور مـن لدنه فى صدرى

فآمنـت به. وهكذا كـان حل المشكلة: نـورا يقذفـه الله فى الصـدر، فإذا أنا قـرأت الكتاب وانتظرت هذا القذف النورانى ولم يحدث فماذا يكون موقفى؟

فهلا حـاكمنا الغزالـى لأنه فقط لـم يشك، بـل إنه لم يتـرك قارئا للكتابـة دون شك، إن الرجل بـذلك لايستحق أبدا لقبـه «حجة الإسلام» ولالقب «الإمـام » الذى كرمه بـه أسلافنا زمن العقـل والانفتاح الحر علـى علوم الدنيـا وقبل إغـلاق كافة أبـواب الاجتهاد وكل نـوافذ العقل.

●●●

لكن هناك رواية أشد فصاحة من ضرب المثل بحجـة الإسلام. وهى تروى لنا حدثا هاما قـد حدث مـع عمربـن الخطاب يـوم صلـح الحديبيـة، حيث رأى المسلمـون نبيهم يقـدم للمشركين تنازلات وتراجعـات لها أسبابها الدبلوماسية التى لم يعهـا المسلمون، ولم يدركوا الأهداف البعيدة منهـا، فأصابهم غم شـديد كلما قدم النبـى تنازلا، خاصة أنه كـان قد وعد رجالـه بدخـول مكة عام الحـديبية، فيـروى ابن هشـام أن النبى (ﷺ) قام مـن نومـه ليعلن لأصحابـه خبر رؤيا رآهـا فى منامـه أنهم يدخلون معـه مكة يطوفـون بالبيت آمنيـن، وعقب السهيلى فى شروحه بالقول «كان النبى قـد رأى ذلك فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى» وصدّق المسلمون نبيهـم، لكنهم يفـاجأون بـه بدلا مـن دخول مكـة يقف خـارجها ويقبـل صلحا شروطه لصـالح قريش، وفيه تنـازلات اعتبرها المسلمون تهـاونا شديدا، وهنا تـروى لنا كتب السيرة أن عمر بـن الخطاب قد لقى مـن أمر هذا الصلح رهقـاشديدا استنفره استنفـارا حتى ذهب إلى النبى يقـول:«ألم تعدنا أن نأتى البيـت ونطوف به؟ قال: نعم»، لكن الإجـابة بنعم يخالفهـا مايحدث فى الـواقع، فتأخـذ الحيرة بعمر كـل مأخذ مع رعـدة غاضبة دفعتـه إلى الإسراع نحو أبى بكر ليدور بينهما الحوار المتوتر التالى:

عمر: يا أبابكر أليس برسول الله؟.

أبوبكر: بلى.

عمر : أولسنا بالمسلمين؟

أبوبكر: بلى.

عمر : أوليسو بالمشركين؟

أبوبكر: بلى .

عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

أبوبكر: ياعمر إلزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله.

وهنا يعلن عمر جهارا قوله «وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة».

وهكذا كان عمر بصحبة النبى يراه ويعاشره ويـدركه بحسه وروحه، وعايش نزول الوحى وعاينه، ومع ذلـك شك فى الأمر كله نتيجة موقـف لم يدرك أهدافه الدبلومـاسية البعيدة فى صلح الحديبية.

وهنا يعقب السهيلى على موقف عمر عمر الذى شـك ولم تحوله كتبنا التراثية إلى منافق ولم يتهمه أحد بالارتداد، يقول (السهيلى):

«وفى هذا أن المؤمـن قد يشك ثم يحدد النظر فى دلائل الحق، فيـذهب شكه، وقد روى عن ابـن عباس أنه قـال: هو شىء لايسلـم منه أحد»، وهكـذا يستنتج شيخ شـراح السير أن المؤمن قـد يشك، بل إن ذلك الشـك لايسلم منه أحد علـى الإطلاق مستندا فى ذلـك إلى حديث عن حبر الأمة وراوى الحديث الثقة عبدالله بن عباس.

وفى الحديبية حدث من المسلمين عصيان عام علـى النبى ﷺ، وهو مالايدخل فقط فى مفهوم الشك، بل فى عصيان الرسول والله معا، لمـوقف لم يعجبهم من النبى، فقد أصابهم الكـرب لما قـدمه رسـول اللـه ﷺ من تنـازلات فـى هدنـة الحديبيـة، وبعـدما استكملـت التوقيعـات على الصحيفة قـام النبى يـأمر المسلمين بـاستكمال شعائر العمـرة التى لـم تتم قائلا:«قومـوا فانحروا ثم احلقوا» لكن ليلخـص لنا ابن الأثير رد المسلمين علـى نبيهم ،فقد تعصبوا جميعا عليه «وماقام أحد حتى قال ذلك مرارا فلم يقم أحد منهم» هكذا ظل الرسول يردد أمره ولا أحـد يطيع على الإطلاق، ومـع ذلك لم يصدر ضـدهم حكما بالارتـداد ولافرق

بينهـم وبين زوجـاتهم، فقـط عقب بـالاستحسان علـى من حلقـوا وبالاستهجـان على مـن قصروا.

فقالـوا له: يـارسول اللـه فلم ظـاهرت بـالترحيـم للمحلقين دون المقصـرين؟ قـال: لم يشكوا، فقط ظـاهر النبى من لـم يشكوا لكنه لم يطرد كـل الذين شكوا مـن ألوف المسلمين من دين الإسلام. ولم يوقع عليهم أى عقاب.

وكتب السير والأخبـار تكتظ بمثل تلك الأمثلـة لعل أبرزها أن المسلميـن أصحاب رسول الله رغم الوعد بالنعيم وبجنة الخلد، ورغم مصاحبتهم وملاحقتهم للنبى (ﷺ)، ورغم أنهم عاصروا وشاهدوا وعاينـوا ذلك الزمن العظيم زمن نزول الوحى، فقد فـروا من حول رسول الله ﷺ فى غزوة أحد، حتى وقف وحيدا فى الميدان ينـادى: إلىَّ يافلان. أنا رسول الله فما يعرج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية» حتى قذف أبودجانة بنفسه فوقه ليحميه.

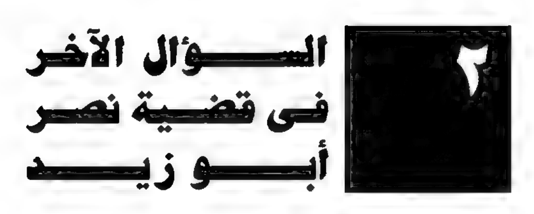
ولحظة الهزيمة وقف بعض الصحابة من قريـش يقولون: «إن رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم فيـؤمنونكم قبل أن يأتوكم فيقتلـونكم» أليس مثل هذا القول شكا فـى الأمر برمته من الألـف إلى الياء؟ (بـرواية البيهقى) . وقـول آخر قرر فيـه بعض المسلمين اللجـوء لرأس المنافقين عبـدالله بن أُبى ليستأمـن لهم من أبى سفيان وهـو مارواه ابن كثير فى قـوله: «فقال بعض أصحـاب الصخرة ـ أى الـذين احتموا فوق صخـرة أثناء القتال ــ ليت لنا رسـولا إلى عبدالله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، ياقوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم». أما البعـض الآخر مـن المسلمين لما رأى الهـزيمة فقـد فروعلى رأسهـم عثمان ابـن عفان، حتى ابتعـدوا عن المـدينة بحـوالى ثـلاثين ميـلا (فرار مـن الميدان، ومـن حول رسـول الله بذاتـه)، ومع ذلك جميعه لـم تصدر ضدهم أحكـام تكفير وارتداد وتفـريق، وكانوا صحـابة رسول الله المقربين.

●●●

والسؤال الآن: ألـم تقرأ هيئة المحكمة الموقرة ذلـك ومثله كثير فى صحيح السير والأخبار الإسلامية قبـل أن تصدر حكمها بأن من يشك قـد كفر؟ وخاصة أن المتشدد إلـى هذا الحد فى أمـور الدين يجب أن يكـون على علم بتفاصيلـه ودقائقه حتـى لايهلك الناس بأحكـامه

ويهلك معهم بقصور علمه، ناهيك عما ينتظرنا إزاء مثل ذلك الحكم أمام موازين العدل الإلهية يوم الدين.

ولله در الإمام الغزالى وهو يقول فى كتابه إحياء علوم الدين «من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى متاهات العمى والضلال» . طوبى للإمام حجة الإسلام زعيم الشكاك فى مرقده، وليغفر الله لمن لايعلم فيتبختر فى متاهات العمى والضلال فخورا بأنه أبدا لم يشك ، وليغفر لنا إذا لم نشك، وليهدنا إن شككنا، فالأمر كله معلق بإرادته الكلية الشاملة وليس لنا مع أمر الله أمر.


٢
السؤال الآخر
فى قضية نصر
أبو زيد

السؤال الآخر
فى قضية نصر أبو زيد

«يعتبر كافراً .. من عبد أحداً غير الله أو أشرك معه غيره، أو أنكر وجود الله، أو أى من خلقه مما أخبر عنه الله فى القرآن الكريم. بأن أنكر الجنة أو النار أو الجن والشياطين أو العرش أوالكرسى».

القول المذكور عاليه، نص مقتبس من حيثيات حكم الاستئناف والوارد فى صحائف محكمة النقض فى حكمها التاريخى بتفريق (نصر حامد أبو زيد) عن زوجته، لأنه كتب فى أعماله المنشورة كلاماً اعتبرته المحكمة موجباً لإصدارها قرارا بارتداد الرجل عن دين الإسلام.

وتعريف الكافر فى حيثيات هيئة المحكمة الموقرة يشرح لنا كيف يعد المسلم كافراً، بتعديد لمجمل معلومات دينية أخبر بها القرآن الكريم إن أنكر المسلم واحدة منها عُد كافراً، لأنه ينكر بذلك معلوماً من الدين بالضرورة.

ولم يفت هيئة المحكمة الموقرة أن تضع ضمن ذلك المعلوم أبعده عن قناعات العقل ومنطق المحسوسات وأقربه إلى المسلمات الغيبية. وذلك مثل: الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى، وهى أمور ليست ضمن ما يندرج تحت قناعات العقل، فكيف يعقل مالا يُدرك؟ أليست هذه بقاعدة العلم الأولى؟

ثم تضيف حيثيات الحكم أن (نصر أبو زيد) قد قال فى أعماله قولاً خطراً هو «أن هناك معركة تقودها قوى الخرافة والأسطورة باسم الدين والمعانى الحرفية للنصوص الدينية، وتحاول قوى التقدم والعقلانية أن تنازل الخرافة أحياناً على أرضها» وتعقب المحكمة بقولها: «وهذا من الكفر الصريح والأساطير معناها الأباطيل.. وهو ما نعت به الطاعن (أى نصر أبو زيد) الدين والنصوص الدينية، زاعماً أنهما ينطويان على أساطير».

هكذا ودفعة واحدة فسرت هيئة المحكمة كلام نصر على كيفها (أى والله العظيم على

كيفهـــــا)، ثم أخذت معنى واحداً من معانى كلمة (أسطورة) لتدعم رأيها المتفرد لإدانة الرجـل، فالرجل أبـداً لم يقل بـاحتواء الدين علـى أساطير، أو لـوجه الحق هو لـم يفصح بذلك، وكـان هذا كافياً، فـالمحكمة لا تحاكم الضميـر لأن الحكم عليه لله وحـده، الرجل قال إن من يفعل ذلك قـوى الأسطورة التى تستخدم الدين ولم يقل الـدين، لكن لأن حكم النقض كان آخر السلسلة الطويلة للوصول إلـى الهدف، كان لابد من إدانة (نصر) وتكفيره. أما الأمر الثانى فهو أنها اقتصرت على معنـى واحد لكلمة أسطورة، رغم أن لها من المعانى الكثير، فيقول ابـن منظور علامة اللغة العربيـة فى لسان العرب وهو مرجعنـا اللغوى جميعاً، تحت مادة (سطر).

«سـطر : السطر هو الصـف من الكتاب.. والجمع من كل ذلك أسطـر وأساطير وسطور.. والسطر هـو الخط والكتابـة.. وقال الزجـاج فى قوله تعـالى: وقالـوا أساطير الأوليـن.. معنـاه سطره الأولـون.. وسطر يسطر إذا كتـب، قال الله تعـالى: ﴿ **ن والقلم ومـا يسطرون** ﴾، أى ما تكتب الملائكة.. والأساطير الأباطيل، أحاديث لا نظام لها».

هذا ما كـان من فهم المحكمة الأوحـد ، وتفسيرها الأوحد، لأمـر عدد من التفاسيـر كان يجب أن تؤول لصـالح المتهم حسب القـاعدة الشرعية والفقهيـة القانونية، لكـن المحكمة رأت ما قررت أن ترى .

لكن ذلـك يفتح بابـاً واسعاً لطـرح أسئلة حيرى، مـا دامت المحكمة قـد فتحته بقـرارها التاريخى، وأصبح من الواجب مناقشة مسألة الأساطير حسب الأصول.

●●●

هنا نعترف أن الاستعمال الـدارج، قد درج على استعمال كلمة أساطيـر فيما بعد وبمرور الوقت، لـوصف الأحاديث التى لا تخضـع لقوانين العقل والمنطق، أو الأحـداث التى تكسر قوانيـن الطبيعة وقواعدهـا الثابتة، لذلـك أصبح المؤمنون بـدين معين يفضلون وصـف تلك الأحاديـث والأحداث بكلمة (معجزة) لكنهـم فى نفس الـوقت يصفون شبيهها عنـد الأديان الأخرى المخالفة أو العقائد التى ينظرون إليها باعتبارها باطلة، يصفونه بأنه (أسطورة)..

ومثال لتوضيح ذلك ، نحن نؤمن باعتبـارنا مسلمين، بقصة الإسراء والمعراج، كما أخبرنا

بها القرآن الكريم، كما نؤمن بوجود كائن غريب الشأن يدعى البراق، فهو دابة تعقل وتفهم ، شكلها ما بين البغل والحمار، أشبه بالحصان، له جناحان، حمل سيد الخلق من مكة إلى القدس فى المعراج، كما جاء فى حديث المصطفى ﷺ.

وفى أقاصيص الديانة اليونانية، كان للإله زيوس دابة للركوب، هى حصان ذو أجنحة يسمى (بيجاسوس)، هنا يرى المسلمون أن قصة البراق معجزة حدثت بالفعل، أما بيجاسوس اليونانى فهو أسطورة. وهكذا أخذ معنى الأسطورة تحديده قياسا على المعجزة.

لكن ما لايفوت لبيب هنا، هو أن الاختلاف هنا اختلاف اصطلاحى لفظى فقط ، وليس خلافا حول معنى المضمون، فكلتا القصتين تتحدث عن كائن يخرج فى تكوينه على القوانين الطبيعية الصارمة، كما يخرج على مألوف العقل وقواعده، لكن المؤمن هنا يميل إلى تصديق مأثوره وتكذيب مأثور الآخرين، وتسمى قناعته هنا إيمانا، أى تسليما وتصديقا قلبيا، لكنها لاتسمى معقولا، لأن الأمر لايخضع لنواميس الكون ولا لقوانين العقل. بل يتم هنا التغاضى عن أبسط قوانين العقل وهو قانون الهوية، أى أن يلتزم العقل ذات الشروط فى ذات الموقف فلا يناقض نفسه ، وهذا القانون هو ألف باء علم المنطق، أى أنه إذا صدق قصة البراق، فلا بد حسب قانون الهوية البسيط أن يصدق قصة بيجاسوس، و إن لم يقبل قصة بيجاسوس فعليه بالتالى ألا يقبل فكرة البراق، المقصود من هذا المثل توضيح أن الخلاف بين المعجزة والأسطورة خلاف شكلى فقط، لايبغى الهجوم على الدين، ولا وصف بعض ما ورد به بأنه أباطيل، فقط هى مما لايخضع لقوانين العقل ولا لقوانين الطبيعة، هى موضوع تصديق و إيمان. ولا محل هنا لتكفير إنسان على اختلاف تسمية اصطلاحية، مادام المتفق على المضمون خروجه عن المألوف وكسره لقوانين الطبيعة ومادرج عليه العقل من قواعد. فهل يمكن لأحد أن يختلف حول معناها هذا؟

●●●

لقد وردت فى كتاب الله الكريم وفى الحديث الشريف عن سيد الخلق ﷺ كثير من النصوص التى تحوى مضامين وسورا لاتخضع لنواميس الطبيعة ولا العقل، لذلك هى محل اعتقاد وتعتمد على أمر لايمكن لبشر الحكم عليه، تعتمد على الضمير الداخلى الذى يقبلها أو يرفضها. و إذا كان اصطلاح أساطير يحمل فى معناه ماخرج على قوانين الكون والعقل،

فإن استخدامه لا مثلبة عليه، فأساطير الأولين فى ابن منظور هى ماسطره الأولون، وأن **(ن والقلم وما يسطرون)** معنى ماتكتب أطهر المخلوقات وهى الملائكة.

لذلك، ولأننا مسلمون، فنحن نؤمن تماما إيمانا قاطعا أن الملك سليمان كان يسمع حديث النملة الذكية، وأنه كان يحاور هدهدا لبقا، وأنه كان يركب بساط الريح، كما نؤمن أن صخرة قد حبلت وتمخضت فولدت ناقة الله، ونؤمن بالحصان المجنح الذى حمل رسول الله ﷺ من مكة إلى القدس، ونؤمن بالملكين هاروت وماروت وقصتهما مع الغانية رسول الغواية المعروفة بالحمراء أنثى كوكب الزهرة.

كما نؤمن أن الله قد أرسل على جيش أبرهة قوات جوية تمثلت فى طير أبابيل تحمل حجارة جهنمية لتلقيها على جيش الفيل، فكانت أول قاذفات جوية فى التاريخ، كما نؤمن أن نمرود العراقى كان أول رائد فضاء فى التاريخ، عندما ركب صندوقا تحمله النسور يريد بجهله وطغيانه أن يصل إلى رب السماء ليقتله، كما نؤمن أن النار لم تحرق إبراهيم الخليل، وأن معدة الحوت لم تهضم يونساً رغم سكونه فيها ثلاثة أيام . ولا نعلم إلى أى حد تطلب هيئة المحكمة منا الإيمان حتى لانكون من الكافرين، فهناك أمور أشد استعصاء على العقل، وردت بكتب السير والأخبار، فهل يجب أن نؤمن بها بدورها أم لا، يعنى هل يجب أن نؤمن أيضا بأن النبى ﷺ كان يبصق على جرح مسلم يحتضر فيقوم لتوه سليما معافى، أو أن تشرب أم أيمن بوله فلا تمرض بعدها، ومثل ذلك كثير. أن مانريد أن نقوله أن تلك جميعا نماذج لاتدخل ضمن بنود العقل ولا تخضع لنواميس الطبيعة، فالصخرة حسب القوانين لايمكن أن تلد، والريح لايحمل بساطا، والهدهد لايتحدث، والحصان لايطير، والنار لابد أن تحرق، لكن هذا جميعه محل تصديق و إيمان لأننا مسلمون. لهذا نحن نؤمن بها عن يقين، لكن يجب أيضا أن نعترف بهدوء أن الإيمان بها شىء، وأن قوانين العقل وفيزياء الكون شىء آخر، لذلك فالعقل لاينتظر إمكانية حدوثها إلا إذا كان به خلل، و إلا خلطنا الحابل بالنابل، ودمرنا أنفسنا بأيدينا، وهو مايحدث الآن فعلا نتيجة الخلط بين مايفرضه الإيمان من تصديق، وبين ماهو ممكن الحدوث، حتى أصبح بالإمكان حدوث مثل تلك الأحداث الخارقة فى أى وقت إذا ما خلصت الضمائر، وساعتها سيتدخل الله فورا بمعجزات جديدة، لتخليص عباده المؤمنين مما أصابهم، ومثل ذلك ماقد حدث بعد

مجموعة الهزائم التى أصابتنا فرفعنا شعار ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وانصب هـذا التغيير علـى الجانب الطقـوسى فـى أداء الشعائر، وعلى الجـانب الأخـلاقى، (وإن كان فـى مستواه النظـرى والقولـى دون العملى). وتصـور الناس أنهـم باتبـاع الفروض والسنن والنوافل وسيـرة السلف، سيحوزون رضا الله فيتدخل فـورا لإنقاذهم بمعجزات، لأن الفرق بيننا وبيـن العدو قد أصبح لاتحله إلا معجـزات. فكان أن هبطنا إلى مستـوى لم نصل إليه من قبل، من كسل عن تحصيل المعارف العلمية اللازمة للارتقاء والتقدم، وجلسنا ننتظر فى بلاهـة بليدة ذلك التدخـل الإلهى الإعجازى. دون أن نتصور أن الممكـن الحدوث فقط هو الأخذ بأسباب العلـم والكد والعنت فى سبيله الذى هو سبيل ارتقـاء الأمم ، وساعة نفعل ذلك يمكن أن نقول أن ذلك قد حدث بفضل من الله وإحسانه.

●●●

مرة ثـالثة ورابعة وخـامسة، نؤكـد إيماننا الـذى لايهتز بكـل ما أخبرنـا به القرآن الكـريم بالوحى الصادق، لكن مادمنا قد تطرقنا فى الأمر إلى هذا الحد، فيجب الاستطراد بالقول: أن الإيمـان أمر، وشـروط العقل، والعلـم أمر آخر، ويجـب ببساطـة أن نعترف أن بينهمـا تنافـرا عظيما، لاتحله أبدا تلفـزة مصطفى محمود التفسيرية، وربما تقف النفـس حيرى بين شروط العقل والعلـم، وبين الإيمان ومطـالبه، تطرح السـؤال الآخر، تطلب الاتسـاق بين ماوقـر فى القلب، وما يجب أن يصدقه العقل، لكنها أبـدا لاتبغى من وراء ذلك شكا ولا مروقا ولاكفرا، فهـى تعتز بـالإسلام وهـى به عـزيزة، فقـط تـريد الاطمئنـان لطويـة فؤادهـا حتى لاتصـاب بالشيزوفرينيا، ذلك الفصام المخيف الذى أصـاب جماهيرنا العريضة الغليظة، حتى أمست بلادنا مستشفى أمراض عقلية كبيرا، يكتظ بالمرضى، ويخلو من الأطباء .

وهذه المشكلـة واجهها المفكرون المسلمـون الأوائل وأرقتهم فتحـدثوا فيها وتجـادلوا ، وحاولوا حلها تحـت عنوان (التوفيق بين العقل والنقـل) والنقل هو الوحى، فاعتـرفوا ببساطة ودون خوف أن هنـاك تناقضا وتنافـرا يحتاج إلى تـوفيق، وحاولـوا ولم تصدر ضدهـم أحكام تفريق، ولهم أجر المحاولة.

●●●

لكن الـدنيا منذ تلـك الأيام تغيرت تغيرا سـريعا، وحقق العلـم منجزات لم تخطـر على

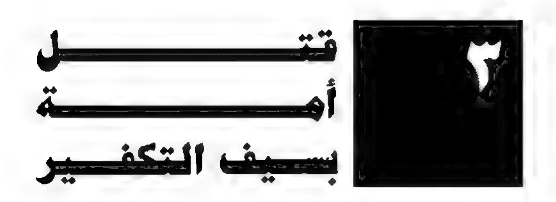
قلب بشر، وأصبح بالإمكان للإنسان أن يعلم ما فى الأرحام ،وأن ينزل الغيث كيف شاء وحيث شاء وبالقدر الذى يشاء، وأمكن التدخل فى جينات الوراثة بهندسة الوراثة، والقادم طوفان من المعرفة أعظم ـ ونحن هنا نقف نتفرج وربما لانفهم ما يحدث، نبسمل ونحوقل (وفى اللحظة الحاسمة فى تاريخنا، ربما ذهبنا بعدها إلى مقلب نفايات الأمم) نصر على إغلاق أبواب الاجتهاد، ونرفع سيوف التكفير، ومن يحاول الاجتهاد مخلصا لوجه الوطن والناس والدين تدينه محاكمنا الوقورة بالردة.

أترون إلى أين يمكن أن يصل بناحكم المحكمة؟

أيها السادة: لم يعد هناك وقت، فالدنيا فى تسارع هائل، وربما فات أوان اللحاق بها إن لم نلهث لهاثا صادقا، لكن الكارثة أن الواقع يفوح بغير ذلك، فنحن لم نزل ندفع مكافأة لمن حفظ القرآن من الصبية، أكثر مما ندفع كتقدير لعلماء مصر الأفذاذ، نحن لم نزل فى وادى الأفاعى والمصباح السحرى وعفاريت سليمان.

أيها السادة : إما أن نفتح نافذة السؤال دون حرج أو تحريم أمام العقل، أو أن نتكفن ونلتحد أشرف لنا، وقبل أن نذهب فى طوايا القرون الغوابر غير مأسوف علينا.

أيها السادة: فقط افتحوا النوافذ أمام السؤال، واحلموا بقدر الممكنات وتوقفوا عن التنادى بالمغازى والحديث عن الغنائم والسبايا، ألا ترون أنكم ذهبتم بنا إلى المغانم لكن كنا نحن المغانم؟ اغمدوا سيوفكم العنترية التى تكسرت أمام الأعادى جميعا ولا تشهروا علينا ما بقى بها من نصال صدئة. هناك الآن حرب أخرى أدواتها العلم وما يحتاجه من جهد وعنت ومشقة إن كنتم فاعلين، حاولوا أيها السادة أن تحاربوا معركة الحضارة ولو مرة إن كنتم تعقلون.


٣
قتل
أمة
بسيف التكفير

ضريبة الحرية شرط التقدم:

قتل أمة بسيف التكفير

بهدوء شديد يجب أن نعترف أننا نعانى من أزمة حضارية طاحنة وصلت آخر مراحلها وأصبحت تهدد وجودنا على سجل التاريخ الآتى، فى مرحلة فاصلة من تحولات هائلة آنية تحدث على كل المستويات فى كوكبنا الأرضى، وأن نقر ببساطة أننا فى القاع نتنفس الخرافة ونستحلب الأسطورة ونستطيب الهيام فى العوالم السحرية. وإذا لم نلق الآن فى الماء الراكد بكل حجر تطوله أيدينا وبسرعة وبقوة ودون وجل أو خوف من سادة المنهج السائد وسدنته والمنتفعين ببقائه جاثما فوق صدورنا ومضببا لعقولنا، فربما لانكون بعدها أبدا ، وإذا لم نفتح الآن كل النوافذ لتجديد هوائنا الآسن دون وجل من تحريمات ورعب من سيف التكفير المسلط على رؤوسنا، فعلينا أن نكتب آخر الحلقات فى يومياتنا قبل أن نذهب فى طوايا القرون الغوابر، ويتلو التاريخ على الدنيا آياتنا عبرة مع عاد وثمود والهنود الحمر.

وإجمالا يمكن القول أن التاريخ العربى بعد ظهور الإسلام قد مر بمرحلتين متناقضتين، تحولنا فى الثانية عن الأولى ،عن الثقافة المتحركة المفتوحة المتجددة إلى الثقافة الثابتة المغلقة الواحدة، ومن الطبيعى أن ترتبط كل ثقافة منهما بالمرحلة التاريخية التى أفرزتها ارتباطا منطقيا واضحا ومتسقا، فعندما كانت الدولة الإسلامية امبراطورية قوية عزيزة مقتدرة، لم تخش على نفسها من الآخر وثقافته، فانفتحت على كل علوم الدنيا وفلسفتها ودياناتها، وقامت حركة ترجمة واسعة نشطة لمعارف الدنيا وفلسفتها ، ومنها كفر صريح من وجهة نظر دينية إسلامية، بل نجد بين كوكبة المفكرين الكبار والذين نحتفى اليوم بذكرى إبداعاتهم ونرفع راياتهم فى وجه من يتهمنا بالتخلف على إطلاقه من كان يعلن كفره وصريح إلحاده، لقد كانت الدولة قوية والذات القومية متحققة فلم يرم أحد هؤلاء بحجر، لأن التجربة حينها أوضحت بجلاء أن العلم لايترعرع إلا فى بيئة حرة تماما، تخلو من كل

ألوان التحريم، لـذلك قبلوا ضريبة الحريـة من أجل التحقق والتقدم، وقد وضعـت لديهم ضرورة تلـك الضريبة لأنها أسهمـت بدورعظيم فى إثـراء السجال الذى حدث آنـذاك. ثم تلت ذلك مـرحلة التحريمات الكبـرى بانتهاء زمن المـأمون آخر الحكام المستنيـرين، ومن يومهـا ونحن فـى انزلاقنـا الكارثـى نحو القـاع، فإذا وعينـا هذه الحقيقـة البسيطة بـدأنا أول كشوفنـا، وهو أن السبب فى تـوقف بلادنا عـن إنتاج مفكريـن وعلماء كبار، هو غيـاب مناخ الحرية، فالعلم لايتنفس مع القيود وأغلال التحريمات.

ولاشك أننا نفصح بجلاء أن منهج قراءة الدين كـان وراء تغييب مناخ الحرية فى بلادنا، وقد تم استخدامه انتهازيا على ثلاثة مستويات انتهت بنا إلى مانحن فيه الآن.

المستـوى الأول : يتعلق بمنهـج البحـث فى الـدين ذاتـه، بـاعتباربعـض منـاطقه مـن المناطـق الممنوعة مـن البحث، وانتهى إلـى إسدال ستـار كامل مـن التحريمات علـى كل مناطقـه، وتـم أثناء ذلك استبعـاد كل ماوصـل إليه البحث فـى المقدس وشئونه إبـان القرون الإسلاميـة الأولى، وتحويله إلـى تاريخ موقـوف وغير فاعـل، يتم درس أغلبه من وجهـة نظر تخالفـه وتكفره، بل ويتم أحيـانا إفقاد الذاكـرة المتعمدة فى المناهـج التربوية وعبـر وسائل تسمى وسائل التثقيـف العام، بينما لـم تعرف عصـور الازدهار أى لون من التحـريـم المحرض وانتشـرت علوم الكـلام ومدارسـه التى اجتـرأت علـى كل أمـر وأخضعته للبحـث والتدقيـق العقلى، وعلـوم التصوف التـى اصطنعت أرديـة ظاهرة الإسـلامية لتتخفـى وراءها ثقـافات وديانـات البلاد المفتوحة، وعلـوم الفلسفة التى لم تجـد حرجا فى مـزج نظريات ـ تعـد من الوثنيات ـ بأصول إسلامية لافروع، كما نجـد نظريات الفيض عند الفارابى وابن سينا، وعلوم إلحاد ناقشت بالحجة ما رأته ليس من العقل فـى نصوص الدين وما قد تدحضه، كما نجد عند الطبيـب أبوبكر الـرازى وعند المعرى وعند الحجـة الكبير فى هـذا الأمر ابن الـراوندى صاحب مخـاريق الأنبياء، ومن أجـل ذلك وضعت ثلاث قـواعد تأسيسية لعصـور التخلف والتردى هى: رفض وتكفير ونفى واستبعاد وربما تصفية كل بحث ينتهى إلى إنكار معلوم من الدين بالضرورة، وأنه لا اجتهاد على الإطـلاق مع نص، وأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. هذا رغـم أن التاريخ يشهد أن تلك التقعيدات الثـلاثة قد تم كسرها لصـالح البلاد

والعباد بيد صحابة رسول الله أنفسم إن قصدا مبيتا مع سبق إصرار وترصد، وإن سلوكا عفويا إنسانيا، فقد اجتهد ابن الخطاب إبان خلافته، ولما يمض على رحيل الرسول سنوات تعد على الأصابع، وكان اجتهاده مع نصوص واضحة، بل وأوامر قدسية، كما حدث فى إلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، ومن قبله كان ذات الاجتهاد عندما ألغى أبوبكر سهم آل البيت وأخذ ابن الخطاب بخصوص السبب لابلفظ النص عندما فعل ذلك، وفى مواقف أخرى، كما فى إيقافه حد السرقة عام الرمادة، بل وأوقف حلالا كان معمولا به زمن النبوة عندما وقف على المنبر وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، متعة الحج ومتعة النساء.

هذا ماكان عن إنكار السلف للقواعد الثلاثة التى تأخذ بخناق البحث فى شئون المقدس عن قصد وعرض، وكان هناك إنكار آخر بالسلوك الإنسانى العفوى وصل إلى حد إنكار الدين كله، وكما حدث فى واقعة أحد، فرغم الوعد بالنعمة وبجنة الخلد عند الاستشهاد فى سبيل الله، ورغم أن رسول الله بينهم ، ورغم أنهم عاينوا الأمر وعايشوه، فقد فر أجلة الصحابة من حول رسول الله بينما يناديهم «إلىَّ عباد الله أنا رسول الله» ولا يغيثه أحد حتى أوقعه القرشيون فى حفرة وأصابوه إصابات بالغة وضربه ابن قمئة ضربة شديدة ظل يشكو منها شهرا، وفر عثمان بن عفان مع رفقة له حتى أبعد عن المدينة حوالى خمسة وعشرين كيلومترا، ووقف آخرون يحتمون بصخرة يقولون إن رسول الله قد قتل، وأن عليهم العودة إلى أهلهم ، وأن يرسلوا لهم عبد الله بن أبى بن سلوب ليستأمن لهم قريشا: أليس فى ذلك إنكار للأمر كله؟ ومع ذلك لم يتعرض هؤلاء للتكفير ومحاكمات التفريق وكانوا صحابة رسول الله المقربين.

ولكن بمجىء القمع الفكرى والسياسى وتضافره مع القمع التحريمى والتكفيرى تم تقعيد القواعد الثلاث لعصور الانحطاط، وهو الأمر الذى هوى بنا إلى ذلك السقوط الأمثولة، وأضر فى الوقت ذاته بالمقدس ضررا بليغاً، بحيث تمكن ذوو النفوذ ووسطاء الدين المحترفين من التعامل مع نصوص الدين بانتهازية قبيحة لتسخيره للمآرب والمنافع وتبرير أشنع المظالم لذوى السلطان، وبالأمس كان صدام حسين يغزو جارا عربيا بعد أن رفع

لاءات الله أكبر على أعلامه، واستدعى رجال دين مشهود لهم بالكفاءة يقتطعون الآيآت التى تبرربل وتسوغ بل وتدفع إلى احترام نموذجه، وفى الآن ذاته اجتمع رجال دين آخرون لايقلون شأنا بالعربية السعودية لتبرير على النقيض تماما، وبالأمس القريب غنينا للاشتراكية بآيات قرآنية، ومع التحول إلى الاقتصاد المفتوح على السوق، وجدنا أننا كنا خاطئين لأن الله قد فضل بعضنا على بعض فى الرزق، والمدهش أن تجد بعض هؤلاء المحترفين هُم هُم بأشخاصهم فى كلتا الحالتين، يستثمرون (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) من أجل دمار البلاد والعباد والإضرار البليغ بالمقدس ذاته.

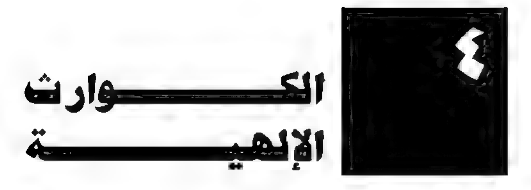
هذا ماكان على المستوى الأول لمنهج الهبوط العربى، أما المستوى الثانى فهو يرتبط بالأول ارتباطا وثيقا ويعبر بوضوح عن أسباب هذا السقوط المخيف، حيث تم تحريم أبحاث لاعلاقة لها البتة بالدين فيما يتعلق بالتكوين الكونى والكائنى، وقد اتخذ هذا المستوى سبيله على خط آخر يحاول التوفيق بين المنجز العلمى وبين النص المقدس، ليس من أجل العقل والعلم، ولكن من أجل تسفيه العقل والعلم، بالقول إن كل ثقافة ممكنة قد توافرت داخل مقدسنا وليس بنا حاجة إلى إعمال العقل أو البحث العلمى الذى قد يؤدى إلى نتائج مضللة وكافرة، وحتى الآن يمنع فى بعض مدارسنا العربية تدريس نظريات النشوء والارتقاء والتكيف البيئى، وهى الأساس الأول لعلوم كالطب وفروعه جميعا، بل إن هناك فتوى صريحة صدرت بالأمس القريب بتكفير من يقول بكروية الأرض، وهكذا كان المستوى الثانى الذى اضطر شقه الثانى للتعامل مع المنتج العلمى الذى أصبح ذا أثر فى الحياة الإنسانية الآن، ولا يمكن رفضه فقام الوسطاء المحترفون والمتكسبون اللاعبون بمصير الأمة بالتعامل معه بعقلية قاطع الطريق، ليقولوا أننا قد اكتشفنا ذلك جميعه قبل أن يكتشفه العقل الإنسانى القاصر، عبر ربنا فى مقدسنا التليد.

وعلى المستوى الثالث تمكن الإنسان خلال قرون طويلة من النضال والكفاح والصراع الدموى مع القهر والعسف والجور أن ينتزع لنفسه مزيدا من الحريات لم تكن قد تأكدت زمن الدعوة الإسلامية، فتم إلغاء وصمة العار الكبرى فى جبين الإنسانية المتمثلة فى استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان، نعم قدم الإسلام فى زمن الدعوة مساحات من الحريات

تعد تقدما قياسا علـى زمنه كالتحبيب والترغيب فى العتق، لكنه أبدا لـم يلغ الرق أو يجرمه، ولـم تزل تتلى آيـات العبيد وملك اليمين دون أن نحاول اجتهادا يعـوض فارق القرون الطوال منذ عمر ابـن الخطاب الذى خالف ومنع وحـرم وأنكر ولما يمض على سكون الـوحى بضع سنوات.

وضمن هذا المستوى تندرج حالات هى الكارثة بعينهـا، فنحن أبدا لم نحاول بل حاربنا وكفرنا أى محاولات لتحريـك الثابت من آجل مصالح البلاد والعباد، كـالموقف النصوصى من المرأة التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليـد لا حاجة إليه وحتى لو كانت عالمة ذرة أو طبيبة أو مهندسة.

أصبح منهـج الانحطاط والتـردى لا يملك الحجـة الكافية، ولـم يعد لـديه سـوى منطق القتل والتجريم، إنه منهج الهبوط العربى.


٤
الكوارث
الإلهية

السؤال الآخر:

الكوارث الإلهية

قارئى مهلا، فأنا أعلم أن العنوان شديدالاستفزاز، لكنى قصدته قصدا، لعلمى أن الحس الإنسانى لديك يفزع من الكوارث، ويستنكر أن يكون سببها مصالح أفراد أو جماعات، ويصاب بالهلع إن نسبناها إلى الله، لكن ماالعمل؟ وهو المنهج الذى ران على تاريخنا المسترخى المتثائب طوال القرون السوالف، ولم يزل كذلك.

لاشك أن أى واحد منا ستتأذى نفسه من عمليات التطهير العرقى التى تمارسها عنصرية الصرب، ولا جدال أن ذات المشاعر تنتابنا كلما تذكرنا الجريمة الكبرى فى حق الإنسانية فى هيروشيما ونجازاكى، أو كلما ورد على خاطرنا هتلر وما جلبته الدكتاتورية على البشرية من دمار، ولاجدال أن قلوبنا تقطر ألما كلما تذكرنا ضرب بغداد أو قانا الوحشى، أو حتى لو مر طائف الهولوكست بخيالنا، إن كان قد حدث، فنحن بشر و إنسانيتنا هى رقينا، وهو الرقى الذى يجعل أحاسيسنا تقشعر، وأنفسنا تجزع، عندما نعلم أن بشرا، أو حتى مجرد كائنات قد تعرضت لمذابح أو لفناء، بسبب أطماع أو مصالح أو تعصب، فى أى مكان على كوكبنا الأرضى.

فما بالنا لو أن هناك كوارث كبرى، تحمل دمارا رهيبا، ونيرانا تأكل الأجساد، أو صخورا تسحق العظام، وأن هذه الكوارث تحدث برغبة إلهية، ثم بفعل إلهى، هنا تقف النفس حيرى لأنها تؤمن بالله وتحبه، وتراه الكمال ذاته، والنقمة والأحقاد و إفناء الناس ليست من الكمال، فالله خير كله، لايتسلى بتقتيل الناس، ولاتطيب نفسه لصراخ العجائز وهلع الأطفال، ولا يسعد بشقاء العباد ودمار البلاد، فنحن نحبه لأنه رحمة، وليس لأنه نقمة. لكن كل تلك المعانى الرفيعة تغيب عن بعض مشايخنا، الذين لايخرجون أبدا عن منهجهم، يسيرون عليه بالنعل حذو النعل، ولايفتحون نافذة واحدة على العقل، ونموذجا لهؤلاء ماخرج علينا به شيخ عظيم السمت، جهورى الصوت، يشخط وينطر فى عباد الله الغلابة، عبر شاشة تلفازنا الميمون، ليقرعنا على ما أصاب بلادنا من زلزال عظيم، فنحن السبب،

ومن هنـا يبطل العجب، فقـد استثرنـا علينا غضب اللـه، فقام يدمر ويهدم ويسحـق ويبيد ويهلك، يخلط اللحـم بالحجر، والأسفلت بالـدم، ويكتم صرخات الألـم تحت الأنقاض، بـل وأوضح فضيلتـه أن ذلـك الزلـزال كـان مجرد بـروفة تمهيـديـة إن لم نـرتـدع عن غينـا، واستعراضـا لقدرات الله علينـا نحن الفقراء إليـه، لقد كـان الزلزال إنـذارا وبيانا عمليـا لما يمكن أن يفعله الله إذا غضب.

أبـدا لم يشغـل فضيلة الشيـخ بالـه ـ وهـو فى عيشـة الهنيء وطعـامه المـرىء ـ ودابتـه الميكـانيكية الفـاخرة، إلا بـدعاء الـركوب ودعـاء دخـول الغائط، لـم ينشغل بقلـوبنا وهـى ترتجف هلعا على بـلادنا وإشفاقا عليها، لم ينشغل بوطن سادتـه العشوائية وسوء التخطيط والفساد، حتى بات على شفا ضياع دون حاجة إلـى زلازل، فمصر فيها ما يكفيها، ترجف لها قلوبنا وتئـن أكبادنا إشفاقا مـن أى جلل يحيق بها مع ظـرفها الخاص وسدها العـالى الذى يدفعنـا إلى وضـع الأيادى على القلـوب هلعا، كلمـا حدث طارىء، لأن زلـزالا عقابيـا مما يتوقعه شيخنـا سيذهب بالحـرث والنسل إلى أن يرث اللـه الأرض ومن عليها، وساعتهـا لن يجد الشيخ دابته الميكانيكيـة، ولا حتى مجرد دابة، بل سيذهب هو نفسه مـع الغابرين، بعد استعراض القوة العظمى التى يحذرنا من غضبها، كمـا لو كنا ناقصين قوى عظمى تستعرض علينا نحن بالذات، للمزيد من الهوان والإذلال.

لكن الشيخ وهو يؤنبنا على خطايانا ولانعلـم إن كان بإمكانه بدوره أن يرمينا بحجر، إنما يسير على ذات المنهج الـذى ران على عقولنا عبر القرون، منذ أيام التنيـن والعنقاء وعفريت المصباح السحرى والحوت الحنون والنملة الذكية والهـدهد اللبق، منذ قررت الأسطورة فى خطو العقـل الابتدائى أن كل أمـر مقدور لا فكاك منـه، وهو مـا تجاوزته البشـرية فى خطـوها التطورى لتفسيـر ما يحيق بهـا من أزمـات، وتفسير ما يلحـق بالناس مـن كوارث لهـا أسباب واضحة معلومـة، فى قوانين بات يعرفهـا أطفال المدارس الابتدائية، لكـن الشيخ لا يعلمها، لأنه حاصل على الدكتوراة، فهناك فرق.

وأحد العناصـر التأسيسية فى هـذا المنهج العريق، الذى لـم يعد موجودا إلا فـى كهوفنا، قانون من أشد القوانين تخلفا وظلما فى تـاريخ الإنسانية، هو قانون: الحسنة تخص والسيئة تعـم،قانـون الثـواب الخاص والعقـاب الجمـاعى، حتـى بـات قـانونـا للسلـوك على كـل المستويات من المعلم فى مدرسته إلى الضابط فى كتيبته إلى الأب فى بيته.

وبهذا المنهج ينسب الشيخ المفضال كارثة الزلزال إلى الله ويستخرج منها العظات أسفارا وملاحم أمواجا تتكسر على أمواج، دون أن يلقى نظرة واحدة على الإحصاءات التى تناولت الخسائر ليعلم أن أشد آثار الزلزال قد أصابت أكثر المناطق فقرا فى بر مصر المحروسة،لأنهم لايملكون ممكنات المعمار القوى الذى يتحمل تلك الهزات، ثم لم يسأل نفسه عن مدى استحقاق هؤلاء الفقراء للعقاب زيادة على فقرهم؟ ثم لايحاول أن يقرأ أعمار القتلى والمصابين وحتى دون أن يقرأ فالعقل السليم لابد أن يستنتج أن النسبة الكبرى من الإصابات كانت فى أبعد الناس عن الخطيئة التى تستوجب العقاب، فالكوارث الجماعية تأخذ اول ما تأخذ الأطفال الذين لايملكون لانفسهم شيئا، ولايستطيعون الفرار، ثم الشيوخ الذين كلت حواسهم عن إتيان المعاصى، ويتطهرون استعدادا للقاء ربهم، ثم النساء لحرصهن الأمومى على نجدة أطفالهن، أما الناجى الحقيقى فهو الذى كان يستوجب العقاب، إنه القادر على إتيان المعاصى والقادر على النجاة بنفسه. وعلى مستوى آخر، فإن فكرة العقاب الجماعى تتنافى مع قدرات الله الكلية، ثم تتناقض مع صفاته تناقضا صارخا لأن الله لايمكن أن يكون فاقدا لقدرة التمييز، أو عاجزا عن معاقبة المسىء وحده وبمفرده بإساءته دون إنزال الدمار بالجميع صالحا وطالحا، ومن جهة أخرى تتناقض فكرة العقاب الجماعى مع صفة العدل فى الله، تلك الصفة التى نطمئن إليها، وهى وراء إيماننا الصادق به، ثم إنها سر هدوء نفوس كثيرة مقهورة، وفقراء يطمحون إلى تدخله لإصلاح أوضاع دنيوية فاسدة، أو على الأقل للحصول على نصيب مناسب فى جنته، يتناسب مع اختلال الأوضاع فى الحياة الدنيا..

لكن لو قلنا هذا لقامت الدنيا ولم تقعد إلا على مشانق ودماء ترضى النفوس المتعطشة إليها، بعد سيل تكفير وتسفيه وربما قالوا: إن فى ذلك إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وربما رأوا فى إعمال العقل مفسدة لعيشهم اللين ورغدهم الطرى، ومن ثم ينطلقون بالسخائم على رأس المتسائل يصبونها عليه صبا، لأن النصوص الدينية قد أكدت من وجهة نظرهم التى كلت لعدم استخدام النظر، إن الله كان يمارس العقاب الجماعى بالفعل، و إلا فماذا كان طوفان نوح؟ وأصحاب هود من عاد إرم ذات العماد التى حقت عليها اللعنة فبادت بشرا وحضارة وحيوانا ونباتا بغضب إلهى ماحق، أو أصحاب الناقة التى ولدتها صخرة فعقروها فدمدم عليهم ثم ماذا عن قوم لوط، وما أدراك ماقوم لوط، وغير ذلك

من الأمثلة كثير. ورغم ذلـك، فإن العقل له شروط، وله مطالب كى يكـون عقلا بالأصل، وهو منحة الله للإنسان، بل إن وظيفة التفكير فى ذلك العقل هى بضعة متناهية من القدرة الإلهية وعلمها اللامتنـاهى، وهذا العقل لا يـرضى بمجرد سرد الأمثلـة، فيقف معاندا لا يتـزحزح كى يطمئن الفؤاد إلـى طوية الإيمان، لكنـه لا يجد من مفسرينا إجـابة شافية، ولا تفسيـرا مرضيا، لذلك يمسك بالعدل الإلهى، ويرفض مادون ذلك، قانعا أن هناك لاشك تفسيرا جديدا يرفع عن مـأثورنا التناقـض، ويحفظ للنفس ثقتها فـى الله وحبها لـه لكنه التفسير الذى لـم يطل زمانه بعد، فهـلا حاولنا فتح نافذة عليـه، وهلا أمكن الاجتهاد طمعا فى ثـواب الأجرين، ولن نخرج بحسرة إذا حصلنا على ثواب الأجر الواحدة وتكفينا المحاولة.

ألا يمكن أن تكون تلك الأقاصيـص من حكايا الأولين مجرد ضرب مثل، وعـاه مؤرخونا ورجالاتنـا الأوائل، فنحتوا له اصطلاحـا نعلمه هو (الترغيـب والترهيب).. ربما.. ربمـا كان ذلك ضربـا من المثل الرمزى لعقول غيـر عقولنا فى زمن غيـر زماننا له مفاهيم غيـر مفاهيمنا ومستوى معرفى غير مستوانا.. ربما.

إن الإصرار على المنهج العتيـق فى فهم لغة المقدس بقدر مـا يضر بحياتنا بالتأكيـد فإنه يضر بالمقدس ذاته، ذلـك المقدس الذى نريد أن نحافظ عليه وعلى احتـرامه، لأنه جزء من تاريخنا الذى يشكل هويتنا.


٥
أي علم
وأي إيمان ؟

السؤال الآخر إلى الشيخ والطبيب التلفازيين :

أى علم وأى إيـمان ؟

عندما بلغت الدولـة الإسلامية أوج قوتها الإمبراطورية، كان طبيعيـا أن تتحول عن خوفها الأول من الكتب والمـؤلفات لشعوب المنطقة، وعلوم الحضـارات القديمة فى مصـر وبابل وفينيقيـا، بعد أن صلـب عـودهـا واشتد كيـانهـا، ولـم تعد تخشـى علـى نفسهـا من الآخـر المخالف أو من ثقافتـه. لذلك انفتحت على كل ثقافات دنيا ذلك الـزمان، على علوم مصر وفارس والهند، وعلـى مختلف الديانات والعقائد الكتـابية منها وغير الكتابيـة، وعلى فلسفة اليونان ورياضيـاتها. واتسمت الحياة الثقافية بقـدر عال من التحرر، مع حركـة ترجمة نشطة نقلت كل هذا إلى اللغـة العربية، فى مناخ يتسم بروح إنسانية رفيعـة من عدم التعصب، إلى الحد الذى تجاوز فيه المسلمون معنى التسامح مع ثقـافة الآخر وعقيدته إلى معنى التواصل (كما عنـد المعرى) وإلى معنـى الاحترام المتبادل (كمـا عند ابن عـربى مثلا)، حتـى وصل الأمر إلى حرية اعتقاد مقبولة من المجتمع ومـن الدولة، وكان طبيعيا أن يفرز ذلك المناخ كل الاتجاهات الفكرية والعلمية، ووجد العلم مناخه المناسـب فتنامى حتى قدمنا للعالم كوكبة عظمى من المفكرين، ووسط كل هذا الزخم العظيم لعلوم الدنيا والدين، نسمع عن الطبيب المعجزة (أبوبكـر الرازى) وهو ذات الرجل الذى كـان يعلن إلحاده دون ترميز أو مـواربة. ثم نسمع بيـن مدارس الاجتهاد، وحـركة تدويـن التاريـخ، وعلماء الريـاضيات، عن وجـه آخر لحقيقة الحرية الثقافيـة ، يمثله الداهية الكبير (ابن الراوندى)، الـذى كرس عمره الذى وصل إلى قـرن من الزمان، لـدحض ما أسماه: مخـاريق الأنبياء، وكتـب فيما علمنا ما ينـوف على تسعيـن مصنفا، أسمـاها بمسميـات الأحجـار الكريمـة، فهـذا كتاب اللـؤلؤة، وذاك كتـاب المرجانـة، وثالث كتاب الـزمردة .. الخ، وعاش الـرجل عمره الطويـل يناقش بالعقـل ما رآه ليس مـن العقل فى تـاريخ النبوات والكتـب المقدسـة، ويكرس ما يـدحض فكرهـا وينعى عليها منهجهـا، ولم يطلـب أحد محـاكمته، ولم تصـادر كتبه، ولا أنقـض عليه نجـار مسلح جهول بمطـواة قرن غزال . لكنا علـى أية حال فقـدنا كل هـذا ، ولم نعد نسمع مقـولات ابن

الراونـدى إلا من المقتطفات التـى كتبها المتأخـرون من مشايـخ الأمة، بعد أن زال مجـدها وحلت بها الغمـة، لتسفيه أفكاره وتكفير ضميره، مع انهيـار قوة الدولة و إغلاق نـوافذ العقل، مع بدايـة عصر الخليفة المتوكل ، الـذى أغلق باب الاجتهاد وألغى دور العقـل وحرم الكتب المخالفة، ومن بعده وحتى اليوم نتحرك بسرعة الصاروخ، ولكن إلى الخلف.

لكن قبـل أن تدخـل الأمة فـى التردى، و إبـان حركـة العلم والتـرجمة النشطـة، تعالـت فلسفات الفيوض الغنوصية التى استمدت أسسها الفكريـة من عقائد مصر القديمة وديانات فارس القديمة، وصبتها فى قالب إسلامى، بحيـث قامت فلسفات جديدة تكاد تكون عقائد جـديدة بكـل معنـى الكلمة، تسمـى عقـائد الفيـض،وأشهر الأسمـاء فـى تلك الفلسفـات الفيلسوف (أبو نصر الفارابى)، ثم (ابن سينا) الطبيب الفيلسوف.

●●●

أمـا فى علـوم التصـوف فحدث ولا حـرج، عن عقـائد قـديمة مـن عقـائد مصر وفـارس والمسيحيين واليهود، تستخفـى وراء عباءة إسلامية، حيـث قامت الشعوب المفتـوحة للغزو العربى الإسلامـى، تحافظ على قديمها الـوطنى تحت مظلة إسلامية. ثـم أبدا لاننسى علم الكلام، ذلك العلم الشديـد الجرأة والاجتراء، والذى كان نموذجا لديموقـراطية الرأى وحرية القول وعلمنة المسـاحة الفكرية، واحتـرام الرأى الآخر مهما كـان مخالفا، وقام يعلـم الناس عـدم الخشية مـن مناقشـة أى أمـر، فليس هنـاك كبيرعلـى العقـل، وليس فـى علم الكـلام محرمات عقلية، فناقش الناس أيامها أمورا لو نـاقشناها اليوم لرُجمنا بألف حجر. وبرزت بين مدارسه مدرسة المعتزلة التى أسسها (واصل بـن عطاء) والتى جعلت العقل مرجعا لكل أمر، حتى لو اختلف الوحى مع العقل، فقد رجح المعتزلة اللجوء لحكم العقل.

ولو قـدر لهؤلاء جميعا أن يعيشـوا زماننا الأغبـر لجلس الفارابـى على خازوق فـى ميدان التحرير، ولصُلب ابن سينا إلى جوار منه فى ميدان طلعت حرب، ولتطوع سباك من أمراء هذا الزمان بـذبح واصل بن عطـاء بباب أحد المساجـد، ولمات ابن سينا بطلقـات رصاص من أحد الصنايعية الذين تثقفوا بثقافة العفاريت السليمانية .

نحن هنا لا نمـزح قدرما نأسف ونـنـزف وجعا على الأمة، ولانستهين بقـدر دين أو فكر أو اعتقاد، إذ أصبحـت هموم جمـاهيرنـا الغفيرة العـريضة الغليظـة (فى الـوقت الـذى تنشىء

إسرائيل مفاعلها النووى الأكبر الجديد على حدودنا) هو كيف نوقف خطانا مع السلف؟ هل يرفع المسلم إصبعا واحدا أثناء التشهد أم إصبعين ؟ المسبحة الثلاث وثلاثون حبة أكثر شرعية أم التسع وتسعون؟، هل أكل الجبن الرومى حلال؟ أصبح كل شىء يدور حول لا شىء، وله مرجع واحد هو حياة السلف الصالح فى أدق تفاصيلها مع ملاحظة شديدة البساطة أن كل تلك الهموم فى فكر أمتنا قد تواكبت مع انحطاطها فى قاع مزبلة الأمم.

هذا عن كيف يفكر رجل الشارع وغير المتعلم وأنصاف المتعلمين، فماذا عن الطبقة المتعلمة؟ (نقول المتعلمة وليس المثقفة فهناك فرق ، كالفرق بين رواد حقل البرسيم ورواد حقل الياسمين). إن تلك الطبقة تنحو منحى آخر أسسه رجل همام تقلب من ذات الشمال إلى ذات اليمين، وما أدراك ما اليمين وما فيه من رغد ونعيم مقيم، يقوم فيه بدور المعلق وصاحب المنهج والرفيق المؤسس.. وهلم جرا، وجرا هلموا. ومع ذلك المنحى والانعطاف التاريخى لفكر شبابنا مع اللافتة المعنونة بـ (العلم والإيمان)، نقف نحاول أن نفهم، كيف نتمسك بالعلم؟ وكيف نحترم الإيمان ؟

نحن مثل كل فرد فى الأمة، نعرف معنى الإيمان، ونشهد لإله أوحد ليس له كفوا أحد وليس له شريك، ونؤمن بمنظومة متكاملة لها كتابها الذى يحدد شروط ذلك الإيمان، ويضع للسلوك والنظم الاجتماعية قواعد محددة . لكنا أيضا نوقن تماما أن ذلك الكتاب الكريم ليس كتابا فى الفيزياء أو الكيمياء أو الهيدروليكا أو هندسة الوراثة، لسبب شديد البساطة، وهو أن القرآن الكريم كلمة الله الثابتة الواحدة التى لاتقبل التغير أو التقلب أو اللعب بها، هو موضوع إيمان فى المقام الأول، أما العلم فطبيعته متغيرة متبدلة، لأنه بذلك يصحح نفسه باستمرار ويتقدم على هذا الأساس ، فهذا منهج، وذاك منهج آخر مخالف تماما، هذا إنتاج عقل بشرى متغير، وذاك من مصدر إلهى قدسى لايقبل الانتهازية والاستخدام النفعى، كما لايقبل التبدل والتغير.

ولكن لأننا قد استقربنا المقام فى قاع مقلب نفايات الأمم، ولأن الأمم الأخرى قد تقدمت تقدما علميا هائلا على كل المستويات فقوى شأنها وعظم أمرها، ولأننا بجوارها فى حال ضعف وهوان، ولأن العلم لاينمو إلا فى مناخ حر، حرية مطلقة بلا حدود، يسمح بالرأى الآخر، ليس فيه تكفير ومحاكمات تفريق، فإن تربة بلادنا لم تعد صالحة لإنتاج العلم، لذلك اكتفينا باستهلاك منتجات العلم التى جهد عليها علماء الدول المتقدمة وأفنوا

فيها أعمارهـم، وهنا طيب خاطـرنا شيخ المفسرين التلفـازى، الذى (تولى) علينـا (متوليا) عافاه الله وأبقـاه للأمة الإسلامية ذخرا ولمصـر فخرا، فرأى أن عزاءنا فى كـون غير المسلمين يكدون ويتعبون ويشقون كالأنعام للوصول إلى كشوفهـم العلمية، بينما نحن بأموالنا وبترولنا الذى منحه الله لنا، نأخذ نتاج هذا العلم ونستهلكه على الجاهز. فالدول المتقدمة مستعدة دوما لتوصيل الطلبات إلى المنازل فحمدا لله أنه قد سخر لنا أخيرا بنى الروم، فهل بعد ذلك نصر؟ وهل بعد ذلك فهم للعلم والإيمان؟

●●●

أما الدكتـور الحجة، الموج المتلاطم من العلـم المتراكم، مفتاح العلم وخـزانته، الشيخ الطبيب بحر العلـوم، صاحب البرنـامج التلفازى المعلوم، فقـد أخذ مبكرا، منذ أن سـار مع عقارب الساعة، بحـل آخر، يحل به مشكلة الأمة ليـرفع عنها الغمة، بحل أساسـى لعلاقتها بالعلم.

رأى الشيخ الطبيـب (رأيا) أو (رؤيـا) لانعلم، ثـم قام يقـولها فـى سلسال طـويل عبـر شاشات التلفاز الميمـون، ثم قال لافض فوه ذات الأقوال فى سلسال آخـر من الكتب، التى أصبحت تملأ أرفف أدمغـة شبابنا. وكان الرأى والقول يؤكدان، أن حـل مشكلة أمتنا يكمن فى إثبات أننا أصحاب كل الكشوف العلمية قبل زمـانها بزمان، وحتى التى لم تكتشف بعد منها.

لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لـو كان الرجل موضوعيا لقال إننا قد شـاركنا الإنسانية فى تطورها العلمى، عبـر ما قدمت كوكبة علمـائنا فى العصور الخوالى، وبـذلك لايكون العلم حكرا علـى أحد، إنما نتـاج مشاركة كل البشـرية فيه، منـذ عصر اكتشاف النـار وحتى الآن، لكنه لـم يرد ذلك، لقـد أراد لنا الفضـل كله بالتمـام والكمال لايخس مقـدار جناح بعـوضة، ويكون له هو الفضل كله فى ذلك الكشف العظيم.

كان الحـل هو القـول: إن القرآن الكريـم يحوى كـل علوم الأولين والآخـرين، وهنـا قام يفتش فـى أفلام كد عليهـا العلماء، ينتقى منهـا ما يلتقـى مع تفسيره هـو للآيات الكـريمة، ليقص لها النظريـة العلمية ويفصلها على قدها ومقـاسها، نعم قد تأتى مـرة فضفاضة، ومرة شديدة الضيق، لكنه وهو يفعل ذلك يرتكب جرما كبيرا، ثم يقع فى إثم عظيم.

أما الجرم فهو فى حق اثنين لانتنازل عنهما أبدا، الأول فى حق العلم نفسه، فهو يقدمه مجزوءا ، منقوصا، مشوها، يهدر مابذل فيه من عناء وجهد بالعقل البشرى، خاصة مع تعقيباته وابتسامته الساخرة المعهودة، من ذلك العقل الغر المفتون، الذى يحاول اكتشاف علوم عرفناها نحن قبله بقرون، عبر معرفة ربنا لها. أما المجنى عليه الثانى فى هذا الجرم، فهو زهرة شباب بلادنا، الذين عليهم المعتمد والأمل، فالعلم عناء وكد وتعب عظيم، يمكن بمنهج الطبيب التلفازى الاستغناء عنه والاكتفاء بالقرآن الكريم، فيدمر الطبيب المعجزة عقل الأمة ممثلا فى شبابها، ليتحولوا إلى صناع قنابل محترفين، وقتلة متمرسين.

بقى الآن الإثم العظيم وهو الأخطر، فالرجل أولا يريد إثبات صدق الله بمعارف الإنسان، هذه واحدة، أما الثانية فهو أنه يعرض لنا الأفلام العلمية ويتطفل عليها، ثم يبدأ فى السخرية من العقل البشرى القاصر الذى أنتج علومها المصورة، أترون أين الإهانة الخفية؟ إنه يثبت صدق الله بنتاج عقل إنسانى أبله، أليس ذلك ما يفعله الطبيب المعجزة؟

ثم إن الاثم مركب، فالعلم متغير، والقرآن كلمة الله الثابتة، فهل إذا ربط السيد الطبيب نظرية علمية اليوم بآية قرآنية، ثم ثبت بعد ذلك فساد النظرية، أفلا ينسحب ذلك على الآية القرآنية؟

وهكذا، ولأن الغرب دوما عدو، ولأن العلم منتج غربى فهو عدو (؟!)، لكن لأن العلم يساعد على تقدم الأمم، تم سحب شرف العلم منهم وتحييده وجعله خادما مطيعا لمنظومتنا، ولكن فى الوهم، وهكذا نصبح أعلم علماء العالم، فالعلم فى كتابنا وهنا الوجه الكارثى، فالقرآن كلام الله، ونحن نفخر به على أولئك الذين يظنون أنفسهم متقدمين وهم واهمون، وهذا يعنى أن رب القرآن رب خاص بنا وحدنا نتباهى به على الآخرين، رغم أن الله رب العالمين، ونحن نؤمن بذلك عن يقين.

ثم ألا يعنى ذلك الشعور بالدونية والقزمية، وإننا مجرد قبيلة لا تعرف شيئا وتتخبط فى الجهالات، لكن شيخها يعرف كل شىء، وعلى جميع أفرادها الاطمئنان إليه، وأنه سيتدخل لإنقاذها فى الوقت المناسب؟ ألا يعنى ذلك تحول الذات الإلهية الرفيعة العظمى إلى مجرد سيد لجماعة؟ وبالمناسبة أليس ذلك هو فهم يهود لمعنى الألوهية؟

وطبعا من حق الرجل أن يفخر، بعد أن سار وراءه العربان (ذُرافات) أو (زرافات) لا فرق،



وانتـابهم هـوس العلـم والإيمان ، ليصيبهـم ذلـك الهـوس بحمى العلـوم الإسـلامية، التـى انعقدت لها المؤتمرات العالمية، التى علمنا مؤخـرا من التقارير المنشورة أنها قد مولت من قبل المخابرات المركزية الأمريكية.

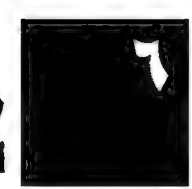
فإذا كان هناك مثـلا طب إسلامى، فلاشك أن هنـاك طبا بوذيا وطبا يهوديـا، أما نحن إذا كنا مخلصين لطبنا فعلينا إغلاق كليات الطب فى بلادنا، مع سحب شهادة الطب من السيد الطبيب التلفازى ومنحه شهادة تفوق فى الطب الإسلامى مثلا، كتعبير عن العرفان لما قدمه لأمة العربان.

والآن جاء موعدنا مع السؤال الدورى (السؤال الآخر):

بفرض أن كـل ما فعلـه السيد الطبيـب صحيح، وبفرض أننـا لـم نفهـم المرامـى البعيدة لخطته السديـدة، فما هو الممكن تحقيقه مـن تلك الخطة لصالح البـلاد والعباد، والخروج من القاع؟ بماذا أفادنا كل ما فعل ويفعل بفرض صدقه؟

يعنى هل يمكن للسيد الطبيـب باعتباره الرائد فى هذا الطريق أن يقـدم لنا حلا لتخلفنا؟ أو هل بإمكانه أن يكتشف لنا من المقدس أسلحة كالليزر ونسميه الليزر الإسلامى مثلا؟

نحن ننتظـر تلك الجـدية فـى السيد الطبيب بكـل أمل، نعـم ربما يطـول انتظارنـا حتى نموت فنبعث لنحاسب على ما قدمت أيدينا خاصة فى حق أمتنا، لكنا على أية حال نطلب لأنفسنا وله المغفرة إن نسينا أو أخطأنا.



مرض المنهج: محاولة للتشخيص المبسط

مرض المنهج
محاولة للتشخيص المبسط

من وجهة نظرى أعتقد أن المشكلة أبعد وأعمق من الاستفسارعن مستوى المد السلفى أو جذره وانحساره، فالأمر يكمن فى منهج تفكير سائد مستمد من المقدس ويعتمد عليه ويقوم به. ولأن للمقدس عدة وجوه وعدة قراءات قد تصل إلى حد التنافر المذهبى، فإن المسألة تتخذ شكلا أكثر تعقيدا، حيث يتحول تعدد الفهم وتعدد التفاسير إلى تعدد فى المناهج التى تطبع سلوك أتباع المذاهب بطابعها، ويسلكون فى الواقع العملى بوحى من توجيهها، ويضبطون عليها حركاتهم وسكناتهم ورؤيتهم للماضى وللحاضر وللمستقبل، ويحددون بها موقفهم من المنتج الثقافى الإنسانى، ومن الآخر المخالف، بل وبه يحددون خياراتهم السياسية وهنا الوجه الكارثى.

وقد يبدو هذا التعدد فى ظاهره رحمة، لكنه العذاب بعينه، فهو من جانب يؤدى إلى تصلب مذهبى شديد، ومن جانب آخر يضع التعامل العلمى معه من الخارج فى حالة استحالة، حيث ستختلف أساليب الجدل بين مذهب وآخر، وحول مايراه هذا المذهب أو ذاك من صحيح التفاسير أو الأحاديث، ومن جانب ثالث فإنه رغم التعددية فإن الرؤى جميعا تستند إلى فكرة تأسيسية ترى أن مايملكه العقل المتمحور حول المقدس هو الرؤية المنهجية الواحدة الصحيحة صحة مطلقة لايدخلها الباطل من بين أيديها أو من خلفها . بل تجتمع المذاهب جميعا عند حقيقة تأسيسية مرجعية هى نصوص الكتاب والسنة التى انقضى على زمنها وظروفها التى أفرزتها مايزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان.

وينبنى على ذلك شعور حاد بامتلاك الحقيقة النهائية والمطلقة لكل أمر فى كل علم ممكن، وهذا بحد ذاته هو المصيبة بعينها، لأنه يؤدى أو أدى بالفعل إلى استشراء وباء نفسى حاد، عندما يصطدم صاحب هذه الحقيقة المطلقة ـ بما يحمله من زهو نفسى يؤدى به إلى الاستعلاء والنرجسية ـ بواقع الأحوال وتقدم الآخر المخالف وتفوقه الحضارى.

فيزداد تمحورا حول الذات فى محاولة يائسة للتمسك بهويته و إثبات ذاته، ليتداخل ذلك كله مع الانبهار الضرورى بحضارة الآخر المتقدم ــ فى تعقيدات أخرى ـ تنتهى إلى استشراء حالة فصامية جماعية ظاهرة الوضوح، تظهر أعراضها على كل المستويات حتى على المستويات القيادية، وماتتخذه من قرارات وتخبطات انتهت بنا إلى حيث نقبع الآن.

و إذا كنا لانغفل عن العوامل الأخرى التى أدت إلى الحال الراهن ـ وخاصة الجوانب الاقتصادية ومدى نضوج الأوضاع الاجتماعية المتفاوتة بتفاوت خصوصيات الأوطان العربية وعدم تبلور طبقاته بشكل محدد واضح، مع الانحرافات العنيفة التى أصابت الأشكال السياسية العالمية فى مفاجآت السنوات الأخيرة ــ فإننا سنحاول تقديم مطالعة بسيطة فى دور النصوص ووسطاء الدين المحترفين فى تأسيس هذا المنهج وترسيخه.

النص بين الثبات والحركة

معلوم أن النص القرآنى لم يأت به صاحب الدعوة فى شكل كتلى ، إنماجاءنا مفرقا منجما بالتبرير القرآنى ﴿**ليقرأه على الناس على مُكث**﴾، تغيرت أحواله وتبدلت بتبدل أحوال الواقع والمتغيرات زمن الدعوة، فتجادل مع أحداث الواقع وفعل فيها وانفعل بها واستجاب لضرورات المتغير الموضوعية ، عبر ثلاث وعشرين عاما هى العمر الذى توترات خلاله النصوص القرآنية. وعبر هذا العمر تغيرت آيات وتبدلت أخرى، ومُحيت آيات ونُسخت أخرى ورفعت آيات وأُنسيت أخرى، وهو الأمر الذى وجد صداه فى الآيات القرآنية التى تردد أموراً معلومة فى أبواب علوم القرآن، كما فى الآيات التى قيلت بمناسبة حديث الغرانيق : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا**﴾ «٧٣، ٧٤/ الإسراء».

كذلك الآية ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته**﴾ «٥٢ الحج».

وبشأن محو آيات تقول الآية: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ «٣٩ الرعد».

وعن التبديل تقول الآية: ﴿**وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفتر بل أكثرهم لايعلمون**﴾ «١٠١ النحل».

وبشأن الإنساء والنسخ تقرر الآية : ﴿ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ «١٠٦ البقرة». وغير ذلك كثير واضح الدلالة والمعنى.

و إعمالا لذلك لابد من فهم أن هذا النص القدسى لم يأت كتلة واحدة متماسكة جامدة كألواح موسى، لكنه مر بمراحل تطورية ارتبطت بواقع الحجاز زمن الدعوة وبتطور المتغيرات فيه ارتباطا وثيقا. لكن بموت صاحب الدعوةوانقطاع تدفق الآيات توقف هذا التفاعل وتحول النص على يد أتباعه إلى مقدس لايقبل تبديلا ولا تحويلا . وثبتوا به، ومعه ، عند تلك اللحظة الزمنية التاريخية بكل مالها وما عليها، ومع حراك الواقع الحراك الضرورى بمتغيراته المتلاحقة، ظل المنهج واحدا ثابتا لايتزحزح ولا يتحرك، وأصبح الإصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة سمة المنهج العربى المسلم، فى التفكير وفى السلوك، مما أدى فى النهاية إلى تخلف ثقافى هائل، قياسا على الحراك الضرورى الذى انتهى بالإنسان العربى اليوم إلى استخدام كافة المنتج الحضارى التقنى للعالم المتقدم من جهة، مع الإصرار على ثباته المنهجى والثقافى بمنظومته الواحدية فى الجانب الآخر.

وعبر القرون الخوالى السوالف تمكن الإنسان فى بقاع المعمورة عبر نضالات طويلة وتضحيات عظيمة أن يرسى مبادىء إنسانيته الحرة، مما أدى إلى تبدل عظيم وتغير هائل فى المفاهيم خاصة حول قضايا الحريات، بينما على الجانب الآخر ظل منهجنا هو المحافظة والثبات عند ظاهر ألفاظ النصوص التى أحيطت بكل التحريمات لعدم الاقتراب أو المساس أو حتى محاولة فهم صحيح يواكب المستجدات.

وحتى الآن يردد المسلم آيات ملك اليمين دون أى محاولات من جانب فقهاء المؤسسات الدينية الإعلان الواضح عن وقف العمل بأحكام هذه الآيات، باعتبار استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان كان وصمة عار فى جبين الإنسانية على مر التاريخ.

نعم حض الإسلام على العتق وحبب فيه فى مراحل الدعوة الأولى، لكنه أبداً لم يحرم الرق كما حرم مثلا لحم الخنزير، ولم يجرمه، ومات الرسول (ﷺ) والصحابة ولديهم الأعداد المعدودة من العبيد، ونعم كان الإسلام بالتحبيب فى العتق والترغيب فيه نقلة تقدمية قياسا على زمنه، لكن الأمر اليوم قد اختلف اختلافاً تاماً. ومع ذلك لم تزل أدعية ميكروفانات المساجد الكبرى فى بلادنا المحروسة تنادى المسلمين بالتهيؤ لنفل أموال غير

المسلمين وسبى نساءهم، الأمر الذى يطفح بالمراقب ويضعنا سخرية للعالمين ما بين واقعنا فى قاع الأمم وبين مطالبنا التى نرفعها إلى ربنا.

وضمن قضايا الحريات والتى تحتاج إلى كسر جرىء وعميق فى جدار الثبات والسلفية، قضية المرأة، التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لالزوم له، رغم أنها قد تكون حاصلة على أعلى الدرجات العلمية وتعدل فى موازين العقل مئات الرجال. وعندما حاول نصر أبو زيد ـ كمثال ـ الحوض فى هذا الأمر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تكفير وتفريق وشوق إلى الدماء، وهو الأمر الذى يدفع إلى التساؤل عن مدى جدوى التعامل من على ذات الأرض، لمنهج يستسهل دماء المخالف فى الرأى ، بل يراه أمراً جميلاً وعظيماً وسبيلا إلى ملكوت الله.

وهنا يطيب لى أن أشرك القارىء فى طرفة مادمنا فى ميدان القراءة المبسطة، حيث كنت مؤخراً على الستالايت من القاهرة مع الشيخ يوسف البدرى بالدوحة على قناة الخليج الفضائية، وأذكر أنى قلت ساعتها أنى رجل قد لوثته الحضارة،يكره رؤية الدماء تسفك والأيدى تقطع والأجساد تجلد، فكان رده العجيب: وماذا عن سفك دماء المسلمين فى البوسنة؟ ويبدو أن منهج الرجل، وهو منهجهم عموما يرى أن الغرب ـ وهو النموذج المبهر وغير المعلن فى بواطنهم ـ يمارس الذبح والقتل فلماذا لانمارسه؟ وأنه مادام الغرب المتحضر يمارسه فليس علينا ملامة، الكارثة أنه يريد أن يمارسه معنا أيضا. ولا تعليق.

وهكذا يكون أى خلاف فى الرأى حول تفسير آيات، أو محاولة الخروج من أسر الثبات، مدعاة لإهدار الدم بكل بساطة بل أحياناً بولع شديد. وهو الموقف أيضا من قضايا الديمقراطية، ناهيك عما هو أبعد مايكون عن مجرد السماح بمناقشته بينما قد أصبح مبدءا إنسانيا راسخا : هو مبدأ حرية الاعتقاد، فدون مناقشته خرق القتاد وإسالة الدماء أنهارا.

العلم والمعجزة

ولأن النص القدسى هو الثقافة الوحيدة الصحيحة والممكنة وفق هذا المنهج، فقد أصبح النص هو المرجع العمدة والأم لكل القضايا حتى لتجد أساتذة أكاديميين يشرفون على تخريج أجيالنا يتساءلون مع كل جديد: هل جاء ذكره فى القرآن؟!!

ولأن النص كان يعمد فى أحيان كثيرة إلى ضرب الأمثلة لأهل زمنه ترغيبا وترهيبا، للإيعاز بـأن ضعف صـاحـب الدعـوة والمسلمين الأوائل لايعـول عليـه، فوراءهـم تقـف قوة اللـه والملائكة ظهيراً. وتأتـى ضمن تلك المرحلة أحاديث النصوص مشحـونة بالمعجز والملغز الذى يكسـر قوانين الطبيعة والعقـل معا، فنجد قصـة الحصان المجنح (البراق)، وحـديث الصخرة التـى تمخضت فولـدت ناقة اللـه، وحديـث الملائكة المحـاربين يركبـون الخيول ويحملون السيوف، وحـديث الجن والعفاريت وبسـاط الريح السليمانى، وكـل هذا لطيف وموعظة حسنة وإنذار للكافرين من أهل الحجـاز زمن الدعوة، لكن اليوم ومع المفترض فى الإيمان أنه تصديق وتسليـم، يصبح بالإمكان الوثوق فى تحقيق أشبـاه تلك الأحداث اليوم، فقط إذا خلصت الضمـائر وصفت النوايا بالإخـلاص كلية لكل تفاصيل المنهـج الطقوسية، فبالإمكان بل بالضـرورة عدم بذل أى جهد علمى حقيقى، ويتحول الشعور بـالعجز والدونية إلى ارتكـاس نحو زمن السلف الصـالح تهيئة للواقـع الأرضى لمجىء نصر اللـه والفتح. ولا يصبح هنـاك مجال سـوى لإنشاء دولـة دينية وسـاعتها سيتـدخل اللـه بنفسه لإنقـاذ حزبـه والخروج بخير أمة أخرجت للناس من القاع بقدرته وحده.

والوجه الكـارثى فى أصحاب هـذا المنهج أنهم يتعاملـون مع المنتج العلمى الإنسـانى بتعال وترفع، ولأن العلم قد ساعد على تطـور الأمم الأخرى فقد أصبح محل نقيضين، محلا للحب والكـره، نستعمل منتجـه التقنى لكـن نختصر العلـم فى ذاتـه، هو الشيطـان الأعظم الذى ساعد الآخر المتفوق. ويتم تكريس هذه المعـانى عبر وسائل التثقيف العامة كالإذاعة والتلفاز بـل ودور التعليم على تنـوعها. ومع الانبهـار بهذا العلـم وبالعقل المتفـوق لايملك الموفقـون والانتهازيون وأصحـاب المصالح والمتـاجرون بمصير الأمـة سوى ادعاء تـوفيقية رخيصة ومبتـذلة بين العلـم وبين نصوص الـدين، تنتهـى إلى تكريـس العلم كله للـه وحده وتحقير شـأن العقل الإنسانـى القاصـر. وإبان ذلك يتـم التعامل مـع المنتج العلمـى بعقلية قاطع الطريق، وبنفسية المريض بالذهان وبالشيزوفرينيا معا، فيتم التأكيد على أننا أصحاب كل تلك الكشوف قبل أن يكتشفهـا الغرب الكافر بعقله القاصر، وأننا نعلمهـا سلفا عبر علم ربنا بها، كمـا لو كان الله بهـذا التصور التجزيئى والقبلـى شيخا لقبيلتنا وحدهـا ويكفينا أن يعلم هو نيابـة عنا، فهو المتصرف، وهو العالـم، وما علينا سوى طاعة أوامـره ونواهيه وانتظار تدخله فى الوقـت المناسب الذى لايعلمه إلا هو. وهكذا، ورغم أننا شركـاء مثل كل البشرية

فى صياغة العلم الإنسانى عبر مراحل متعـددة من تاريخنا، ننفى هذا العلم ونحيله إلى عدو شيطانى نحبـه ونخافه ونكرهـه ونتمنى امتلاكه ونحتقـره فى آن واحد. ثم نحـول أنفسنا إلى مجرد كائنـات بلهاء تعتمد على علم ربها فقـط وهو العلم المخفى ، وتستخدم كـافة المنتج التقنى للعلم البشرى أفلا يسيء ذلك إلى مفهوم الكمال الألوهى ذاته؟!

قوانين التخلف الثلاثة

رغـم أن المسلميـن الأوائل الذيـن عاينـوا الدعوة وعـاشوا زمنهـا، قد وعـوا درس تجادل النص القدسـى مع الواقع، فمدوا الخط علـى استقامته واستفادوا من حـواره مع المتغيرات، ثم جـاءت الإمبراطوريـة الإسلامية فـى عصر الثقـة والقوة لتفتح كـل الأبواب والنوافـذ على حضارات الدنيا وعلوم العالمين آنذاك.

وبمجىء الخليفة المتوكل وتضعضع قوة الدولة وما صاحب الأحوال بعدها من الدخول فى عصـور الانحطاط والتردى، انتهى الأمـر بتقعيد القواعد المكبلـة للحريات الفكريـة عبر تحريمات وضعت فى التعامل مع النصوص الدينيـة، تكبح أى محاولة للانطلاق بالمفاهيم من أسر الثبات لتواكب حركة التطور والمتغيرات.

وقد تمثلـت تلك القواعد فـى ثلاثة قوانيـن تأسيسية : أولها: تكفيـر من ينكر معلومـا من الدين بـالضرورة، ورغـم أن هذا المعلوم من الـدين بالضرورة لايملك أحد تحـديده وضبطه، لأن معنى ذلك هو الاطلاع علـى المقصد الإلهى منه بدقة وتواصل نبـوى، فإن هذه القاعدة كثيراً ما استخدمت لإخـراس ألسنة المعارضة على المستوى السياسى، كمـا حدث فى ذبح محمود طـه بالسودان، وفـى أحيان أخرى استخـدمتها المعـارضة السياسيـة المرتديـة للزى الإسلامـى، كما حـدث منذ سنوات قليلـة فى مقتـل فرج فـودة فى مصر ثـم محاولـة اغتيال نجيب محفوظ، وأخيراً ماحدث مع نصر أبو زيد.

وكانت القاعدة الثانية هى (لا اجتهاد مع نـص)، والمقصود بالنص ذلك الواضح الدلالة القطعى الذى لايختلف عليه اثنان وحوله لاتنتطح عنـزتان، رغم ما نعلمه أن ذلك التوصيـف بوضوح الدلالـة والقطعية وعدم الاختلاف حوله قـد تبدل وتغير ونسخ وتفاعل مـع الواقع، ثم جاء رجـال كبار فى تـاريخ الإسلام فـاجتهدوا مـع نصوص من هـذا القبيل بما يتعـارض وما

استقرت عليه الدلالة، حتى أنهم أكسبوه دلالات أخرى وحتى وضعت بهذا الاجتهاد تحريمات وألغيت محللات، عندما مدوا الخط على استقامته ووعوا الدرس النبوى والقدسى فى تجادل النص مع الواقع، واستفادوا من حواره مع المتغيرات وجدله معها زمن الدعوة، حتى أن الخليفة عمر أوقف العمل بحدود كما حدث فى عام الرمادة، وحرم حلالا كمتعة النساء، بل وأوقف العمل بفريضة كمتعة الحج، بل وأوقف العمل بنصوص واضحة كآية المؤلفة قلوبهم. كذلك فهم الخليفة (على) ذات الأمر وأعلنه واضحا فى قوله : «إن القرآن لاينطق بلسان بل ينطق به الرجال»، مُطلقا بذلك حرية تعدد الأفهام حوله.

أما القاعدة الثالثة فكانت قاعدة شديدة الانتهازية وترتبط بمصالح ذوى السلطان ووسطائهم المحترفين من رجال الدين بوضوح وجلاء لايقبل جدلا أو مكابرة، ووضعت لتبرير مظالم بغيضة لأصحاب السلطان، ضد مصالح الناس والوطن والدين نفسه. وبهذه القاعدة كان ـ ولم يزل ـ يتم نزع الآيات من سياقها الداخلى لتمرير أشفع المظالم. ولا بأس من اللجوء فى ظرف آخر إلى نقيض تلك الآيات لتبرير أمور هى على العكس تماما، نتيجة ما احتواه المصحف العثمانى من تجاور للآيات الناسخة بجوار المنسوخة وما يصح العمل بحكمه إلى جوار ما توقف العمل بحكمه، والتغطية الكاملة على هذا الأمر والتعمية عليه حتى يمكن استثماره وقت الحاجة.

وإبان ذلك يتم إلغاء دور الإنسان وفاعليته تماما فى صياغة أى مأثور، وتحال الثقافة جميعا إلى عالم غيبى مفارق، ويدرب المسلم على الإفراط فى تقديس كل قديم بكل رموزه الممتدة فى الحاضر فيصاب برهاب اليورنيفورم المشيخى والعمامة، ويسلم له القيادة، مع تقديس لكل لحظة تاريخية ترتبط بأمر دينى، حتى اللغة ذاتها أصبحت مقدسة وتم تثبيتها عند زمن تواتر النص، ومُنعت من الحراك ، وكبلت عن التطور.

وأصبح النص القدسى مصدر كل معرفة ممكنة، حتى المعرفة بالذات وبالهوية وبالتاريخ الذى انقطعنا عنه بانقطاعنا عن لغته القديمة وهى وعاؤه الحافظ، ففقدنا الذاكرة التاريخية، ومع فقدها توارى مفهوم الوطن والمواطنة خجلا أمام مفهوم أصولى يؤكد دوما أن الإسلام هو الوطن.

وتمحورت الأحكام على الفكرة أو على السلوك، أو على الرأى، أو على الموقف

السياسى، حول الحلال والحرام والإيمان والكفر، وليس بحساب مصالح البلاد والعباد، وليس حول الحكم بالصواب والخطأ العقلى والعلمى والعملى، وتحول المأثور إلى وسيلة للمعرفة بدلا من أن يكون مادة للمعرفة والدرس تنقله من مستوى الرأى المُختلف حوله، إلى مستوى العلم الذى لا خلاف حوله.



٧

خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل

خاتم الأنبياء
وبزوغ عصر العقل

أبداً لم تأت سور القرآن الكريم وآياته دفعة واحدة فى كتلة متماسكة مثل ألواح موسى عليه السلام، بل تتابعت مفرقة ومنجمة ليقرأ ه النبى على الناس على مكث وعلى مهل حسبما قررت آيات القرآن ذاتها. وقد استمر تواتر آيات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاما هى عمر ذلك الوحى بالمقاييس الزمنية البشرية.

ولأن تلك الآيات قد انضبطت حركتها الزمنية بشروط الزمن الإنسانى وتكوين الإنسان ذاته، فانتهت بموت الوسيط البشرى (النبى ﷺ) وتوقفت بتوقف زمانه على الأرض وشروطه الجسدية فى علاقتها بالحياة وبالموت. وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنسانى الأرضى أخذا وعطاء فى جدل ينفعل بالواقع ويفعل فيه يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه، وهو مايعنى أن هذا النص الجليل لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، بل عمد عمدا إلى إبراز وإظهار تفاعله معه وتبدله بتبدل الظروف الإنسانية والموضوعية البحت، بكل ماللإنسان وبكل ماعليه بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل فى صياغة الواقع وصناعته، بل إن الجانب الإلهى فى المقدس عندما كان يفعل فى الواقع زمن الدعوة المحمدية، أبدا لم يكن يفعل بتدخل إلهى مباشر، بل كان يفعل بواسطة البشر أنفسهم، وبذلك كان مشاركا للإنسان والإنسان مشاركا معه من صياغة الواقع ودفع الحراك التاريخى.

ومن هنا جاءنا الناسخ والمنسوخ والحديث القرآنى عن آيات رفعت وأخرى بدلت، وثالثة محيت ورابعة أنسيت.. إلخ، وهى أبواب معلومة فى علوم القرآن، قامت على شهادة المقدس ذاته بما كان يحدث، لكن مثل ذلك الحديث سيبدو غريبا لغير المتابع ولمن لايقرأون فى علوم دينهم وقرآنهم ويكتفون بتلقّيها شفاهة، وعادة مايكون مثل هؤلاء هم أشد الناس دموية ولا إنسانية وأعظمهم تعصبا لأنهم أشد الناس جهلا بمقدسهم.

ثم إن هذا المقدس نفسه قد قرر على الناس مناهج مقدسة، وهى فى حقيقتها مناهج إنسانية ورأى بشرى ثبت صوابه فأقره الوحى، وكم من حالة أقر فيها الوحى آراء الصحابة مثل أبى بكر وعمر بوجه خاص. لذلك تجد مساحة الإنسانى فى القرآن الكريم هى المساحة الكبرى والفاعلية العليا، خاصة إذا لم تنس أن هذا المقدس لم يأت من أجل الله، فهو أجَّل من الاحتياج لأى أمر كان، لكنه جاء من أجل الناس وصلاح معاشهم، ومن هنا جاء الجانب الإنسانى ليغطى المساحة الأوسع من الآيات والأعظم، بينما كانت الإلهيات والغيبيات فيه والتى محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو كفر، قبول أو رفض إما أن تؤمن بها أو لا تؤمن، فهى قليلة محدودة حتى أمكن صياغتها فى جملة واحدة يمثلها قانون الإيمان الإسلامى «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

لكن عندما اجتهد مفكر مصرى وقال إن النص القرآنى بمفارقته لمصدره الإلهى قد تأنسن وأصبح ملكا للبشر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تنفير وتكفير وطبول حرب دينية ومحاكم ومحاكمات وأحكام تفريق وردة، كما هو معلوم، رغم أن آيات القرآن تتم قراءتها بلسان إنسانى وحنجرة وشفتين، وتُرى بعين بشرية، وتتداولها الحواس بآلات إنسانية فيزيائية بحت، بل وتختلف حولها الأفهام باختلاف المجتمعات الإسلامية وباختلاف المذاهب والرؤى، بل تختلف من شخص إلى آخر باختلاف الثقافات ودرجتها بين الناس.

كان هذا هو درس الوحى الأول والأخطر والأكثر تمييزا للدين الإسلامى عن بقية الأديان، أنه مع التحرر ضد التسلط، ومع التغير والحركة ضد الثبات والجمود، ومع الإنسان وقوانين الواقع وشروط العقل ضد كل المستغلقات والأساطير والألغاز والأحاجى والخوارق، وعندما كان يرد حديث الخوارق والمعجزات كان يأتى من باب ضرب المثل للترغيب والترهيب لقوم هكذا كانت ثقافتهم، وهكذا كان منهجهم فى التفكير، وهكذا كان مستواهم المعرفى.

أما التشريعات والأحكام فكانت هى ذلك المتغير الضرورى الذى أثبت سمته المتغيرة والمتحولة زمن النبى نفسه مرات ومرات، كما فى أحكام المواريث وزواج المتعة والموقف من الرق والموقف من الخمر.. الخ. ليعطى الدرس للمؤمنين به ألا يثبتوا عند منطقة زمكانية بعينها، فيتم تقديسها وتصبح مصدرا لثقافة واحدة ثابتة لاتتغير. ليعطى الدرس أن تلك اللحظة الزمكانية وزمانها زمن الدعوة منذ مايزيد على أربعة عشر قرنا، ومكانها الحجاز

وحده، لحظة بدء وانطلاق وليست لحظة ثبات وجمود .أعطى الدرس بأنه جاء يفجر كل قيود المكان، فكان ملكا للبشرية جمعاء، ويفجر كل قيود الزمان بدرس تغير الوحى مع متغيرات الواقع الأرضى. أعطى الدرس أنه مع المدينة ومع المدنية عندما أصبح اسم يثرب هو المدينة المنورة وعندما هاجم كل نزعات الارتداد عن المدينة بهجومه الكاسح والمتكرر على الأعراب. وقد وعى المسلمون الأوائل ذلك الدرس، وكان الصحابة من الخلفاء الراشدين نموذجا أول وعى هذه الحقيقة فاعتبر مصالح الناس والبلاد وحدها هى سبيل الرشاد للأحكام والقرارات، حتى لو خالفت تلك الأحكام والقرارات العقلية الإنسانية نصوصا إلهية، وهو ماتكرر بعد الخلفاء الراشدين فى مواقف فريق المعتزلة المعلومة بين العقل والنقل.

وهكذا كان دفع النص القرآنى الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال الأرضية، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الخرافة والتواكل وانتظار الخلاص السماوى. وقد صحب ذلك الدرس النظرى دروس عملية فى أكثر من موقف حاسم إبان زمن الدعوة ذاته. بل كانت تلك الدروس العملية تحمل قدرا شديدا من القسوة والردع لنزعة الثبات والتواكل لتأكيد منطقها الإنسانى والموضوعى والعقلانى. فجاءت غزوة بدر الكبرى لتعطى درسا أمثل للمؤمنين، فعندما راعوا الظروف الموضوعية للمعركة، ودرسوا مواطنها واختاروا مواقعهم وأرسلوا الجواسيس والعيون لأخذ الأخبار عن عدوهم (دون انتظار للملاك جبريل)، وتهيأوا عسكريا وتدربوا تدريبا كافيا انتهى الأمر بنصرهم نصرا عزيزا، وعندما ركنوا إلى التدخل السماوى بالملائكة فى غزوة أحد، وأهملوا شروط الواقع الموضوعية أصيبوا بهزيمة شديدة المرارة كادت تفصل فى مصير الدعوة الإسلامية سلبا. وهكذا صحب الدرس النظرى التطبيق العملى فى درس واضح البلاغ والبيان والإفصاح المبلغ المبين.

أما الأشد إفصاحا وأنصع جلاء فهو القرار الإلهى الرفيع بأن النبى محمد (ﷺ) هو آخر حلقة من حلقات تدخل السماء فى حياة الناس على الأرض. فوصف النبى (ﷺ) بصفة اصطلاحية تحمل كل تلك المعانى، فهو النبى الختم والنبى الخاتم.

والختم هو ضمانة توثيق العهد ونهايته بعد أن استوفى جميع شروطه وبنوده، وبذلك

يكون الختم هو خـاتم العهد واستيفاؤه شروط الصدق وبنوده. ويصبح نبـى الإسلام هو ختم العهد السماوى مع الأرض بكونه كان آخر رسالـة تواصل للسماء مع الأرض بعد تواصلها مع الإنســان عبر زمـن وتاريـخ طـويلين قـامت خـلالهما بتـوجيـه وتصحيح السبـل والمناهـج الإنسانيـة وليست السمـاوية. حتى جـاء النبى الخـاتم كـآخر حلقة فـى تلك السلسلـة من التدخلات السمـاوية فى عالـم الإنسـانية. لقد بلغت الإنسـانية سن الرشد وعليهـا من تلك اللحظة التاريخية الزمكانية أن تعتمد على نفسها ولاتنتظر تدخلا سماويا آخر. جاءت لتعلن انتهاء التدخـل الإعجازى السماوى وبداية عصـر العقل الإنسانى علـى الأرض، والعقل هو بضعة مـن العلم الإلهى والـروح القانونـى الكونى، وهـو رمز الله فـى الإنسان هو سـر الإبداع والإنتاج والتـوافق مـع النواميـس الكونيـة المتحركـة التى لاتعـرف الثبات. وبهـذا العقل أو الأمانة التـى حملها الإنسان استحق الخلافـة على الأرض كنموذج للإبداع الإلهـى فيها رمزا عليه وعلـى اقتداره واتساقه بـذاته مع القـوانين التى وضعهـا بنفسه، وضمن تلك القـوانين: الاتساق وعدم التناقض، واللـه لايتناقض مع قوانين هو واضعها، وتلـك القوانين هى التغير الأبدى، لـذلك جـاءت دروسه للإنسـان كى يعى قـوانين التغيـر فى الكون ،مـن هنا كـانت دروس الإسلام النظريـة والعملية التى جاءت تـؤكد بدء عصر العقـل والإنسان على الأرض، وأنه قد بلغ سن الرشد، وآن أوان اعتماده على ذاته وعقله ومناهجه وتجربته الإنسانية بعد أن اختتمت السمـاء شروط عقـدها مـع خليفتها على الأرض بمجـىء آخر تـواصل للسمـاء مع الأرض النبى محمد (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين، وانتهاء عصر المعجزات.


٨
الإسلام والقضية
الإسرائيلية

السؤال الآخر:

الإسلام والقضية الإسرائيلية

«اتبعونى أجعلكم أنسابا، والذى نفس محمد بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

كان ذلك نداء النبى ﷺ يجلجل فى مكة يعد من يتبع صاحبه بكنوز عظمى وفتوحات أعظم، وقد ظل هذا النداء يتكرر حتى بعد قيام دولة الرسول النبوية الصغيرة فى يثرب، خاصة فى المناطق الصعبة وهو ماحدث فى غزوة الخندق والمدينة محاصرة بالأحزاب قد يدخلونها على أهلها بين فينة وأخرى، وساعتها أعلن الرسول وعده للمؤمنين أن الله قد فتح عليه بلاد الفرس وبلاد الروم، وهو مادعا مسلما أنصاريا هو (معتب بن قشير) ليعقب فى المساحة الواقعة بين الوعد وبين واقع الحال، فيقول: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»!! وكما هو واضح رد ساخر ينعى هما حاضرا لاينبىء بمثل ذلك الوعد العظيم. لكن خط سير التاريخ كان مع صاحب الدعوة وأمله الكبير.

كانت مصر وساحل أفريقيا مع فلسطين وبلاد الشام جميعا تقع حينئذ تحت ظل عرش قيصر الروم، بينما كانت العراق وما والاها شرقا تقع تحت مظلة كسرى الفرس، وكل الدلائل تشير إلى فراغ سياسى واضح ناتج بالضرورة عن انهيار قوى الإمبراطوريتين بعد حروب دامت وطالت، ولابد أن تملأ هذا الفراغ قوة جديدة.

وقد وعى عرب الجزيرة الدرس وقرأوه بإمعان وأدركوا دورهم التاريخى المنتظر، فكانت دعوة النبى ﷺ، وكان الوعى النافذ لرجل من سادة الملأ القرشى عظيم ، هو الشيخ (عتبة بن ربيعة) الذى كللت السنوات رأسه بالحكمة فقرأ خطوات التاريخ المقبلة قراءة واضحة بوعى ضفره موقعه القيادى فى دار الندوة، فقام يحدد موقف الملأ القرشى من محمد ودعوته بندائه: «يا معشر قريش أطيعونى وخلّوها بى وخلّوا بين هذا الرجل وماهو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».



وهنا يطفر السؤال: هل كان معلوما لدى صاحب الدعوة، وفى خطة الوحى أن بلاد الحضارات الشرق أوسطية القديمة، مثل مصر والشام والعراق، ستقع ضمن حدود الدولة الإسلامية الإمبراطورية المنتظرة؟ وأنها ستتحول تماما لتصبح دولا عربية تتبنى العروبة لغة وثقافة وقومية بل وربما عنصرا؟

المشكلة أننا لوسلمنا بذلك لوقعنا فى مأزق حرج بين مايطلبه الإيمان وماتطلبه همومنا الوطنية والقومية، فنحن اليوم فى أزمة حضارية طاحنة تستدعى تمسكا شديدا بالهوية مقابل الآخر الغاضب المتفوق، والهوية فى مصر مصرية تضرب بجذورها آلافا من السنين فى أزمنة غوابر، والهوية فى العراق عراقية تضرب بحضاراتها المتعددة من آكد إلى بابل وأشور فى عمق الماضى فحازت العراقة لاسمها، وبلاد الشام بدورها لايقل وجودها الحضارى القديم عن شأن جيرانها، ثم يجمع هؤلاء جميعا رابطة العروبة التى تحققت خلال قرون بعد الغزو العربى لها، لكن مكمن المشكلة أن اعتزازك بذلك القديم العريق الذى يحفظ لك التماسك النفسى والروحى ويضمن لك عدم فقد الذاكرة التاريخية، سيتصادم فورا مع موقف الوحى القرآنى الذى كرم بنى إسرائيل تكريما مقارنا طوال الوقت بأصحاب تلك الحضارات مع تسفيه هذه الحضارات لصالح التاريخ الإسرائيلى، لأنه يعتمد فى موقفه على الإيمان والكفر وحدهما، وكانت تلك الحضارات حضارات كافرة برب الشعب الإسرائيلى. لذلك يغرق فرعون مصر وقومه المجرمون فى لجج بحر ينشق بالعصا الحية، لأنه كفر برب موسى وهارون الإسرائيليين، وينهار برج بابل فوق نمرود وقومه لأنه جادل الحق الذى جاء به الخليل إبراهيم أرومة العبريين، ويموت جوليات الفلسطينى قتيلا وهو يدافع عن أرضه ضد الاستيطان الإسرائيلى لبلاده بقيادة الملك داود، لأن جوليات كان بدوره كافرا. ومن هنا تطرأ الأسئلة الملحّة والمشروعة إيمانيا ووطنيا وقوميا، والتى تفرضها متغيرات واقع الأحوال منذ جاءت هذه المواقف وحيا مع بدء دعوة النبى ﷺ وحتى الآن أسئلة تبحث عن السواء النفسى والاتساق مع الذات ومع الإيمان ومع منطق الأحداث . تبغى التمدد فى هويتها العريقة احتماء وتماسكا، وتريد فى الوقت ذاته احترام المقدس وقراره حتى تطمئن إلى ماوقر فى القلب حتى يصدقه العقل ويطابقه العمل. وحتى يمكن ذلك سنحاول قراءة حركة التاريخ عل مستويين: الحركة الأولى إبان تواتر الوحى فى مكة والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ وتوقف الوحى والحركة الثانية منذ توقف الوحى، وحتى الآن.

وقائع الحركة الأولى

وعلى محور الحركة الأولى نطالع الدعوة الناشئة فى مكة وهى فى بدئها تبحث عن ملاذ وحلفاء وأتباع، وتمثل هـذا البحث فى سعـى صاحـب الدعـوة إلى كسب الـولاء لدعـوته، بعرض نفسه على شتى القبائل وعلى المستوى الاستـراتيجى كان أهم نقطتين يجب التركيز عل حلف أحدهما يتمثل فى مدينتين تقع كليهما على الخط التجارى الدولى الذى يمسك بعنان تجـارة عالم ذلك الـزمان. المدينة الأولـى هى الطائف التـى تقع على عصب طـريق الشتاء اليمنى، والثانية هى يثرب الواقع عند عنق طريق الإيلاف الصيفى إلى الشام.

ويحكم المصالـح التجارية المشتركة التى تـربط أهل الطائف بالأرستقراطيـة التجارية المكية رفضـت الطائف عـرض التحالـف مع الدعـوة الجديـدة، وبالمنطـق نفسه ــ منطق المصالح ـ قبلت يثرب حلف صاحب الدعوة. بعد أن دفعها إلى ذلك أمران:

الأول: أن قريشا قد أسقطت يثرب من حسابـات مكاسبها التجارية نتيجة لضعف يثرب الشـديد بعـد مجموعـةالحروب الأهليـة التى دارت بيـن بطـونها وأحـلافها، حتـى لم يعـد بإمكانها القيـم بفعل مناسب على طريـق الإيلاف الشامى للضغط على قـريش ، حتى تنال نصيبها مـن تلك المكـاسب التجـارية الهائلـة. وقد رأت يثـرب أن التحالـف مع صـاحب الدعوة هو الفرصة المثـالية للوقوف ندا لمكة التجارية. بل وتشكيل تهـديد حقيقى تمثل فى قمته فى قطع الطـريق التجارى تحت قيادة زعيم قـرشى من قريش ذاتها، قـريش مكة التى سبق وأهملت يثرب من معادلتها الاقتصادية.

أما الأمر الثـانى الذى دفع يثرب إلـى هذا التحالف أو سـاعد عليه بالأحرى ، هـو خئولة النبى وآل هاشم فى بنى النجار من الخزرج اليثاربـة تلك الرابطة القرابية التى دعت الأخوال فى يثرب إلى استقبال ابن رحمهم الهاشمى، وفتح مـدينتهم له لتكون نواة الدولة وعاصمتها المقبلة. ولايغيب علينا دور الإيمان العظيم لأهل يثرب بـالدعوة الجديدة، وهو الإيمان الذى هيأهم لـه ومعاشرتهم لفكرة التـوحيد الإلهى عبر أهلهـا من يهود يثرب، لكن ذلك تحديداً كان سببـا فى جعل يثـرب مدينة إشكـالية لوجود العنصـر اليهودى بها، ممـا استدعى ــ فى التعامل معها ـ تكتيكا من نوع خاص، أراد به الله إعطاء الدرس الموضوعى للمؤمنين.

●●●

من نافلة القول التأكيد أن يهود يثرب إنما كانوا عربا بكل معنى الكلمة، فقط كانوا يدينون باليهودية. ومثلهم مثل بقية يهود الشتات كانوا ينتظرون نبيا من بنى إسرائيل، يعيد لإسرائيل مجدها ويقيم لها دولتها الغابرة التى أنشأها داود وولده سليمان ، على أن يكون هذا الآتى من نسل تلك الشجرة وحين ظهوره سيمسح بالزيت المقدس مسيحا ليقيم عمد دولته ويعيد بناء الهيكل الذى دمره طيطس الرومانى عام ٧٠ ميلادية.

وقبل ذلك بزمان عانت الدولة السليمانية من قوة جيرانها، فقد وجه الفرعون شيشنق لها أولى الضربات زمن رحبعام بن سليمان، ثم تبعه الآشوريون الذين قضوا على النصف الشمالى من دولة إسرائيل لينهى الأمر نبوخذ نصر البابلى باحتلاله نصفها الجنوبى وسبى أهله. وهنا لم يبق أمام أنبياء شعب الرب سوى استمطار اللعنات على أعداء إسرائيل المتمثلين فى حضارات المنطقة القديمة، والتنبؤ بانتقام سيقوم به الممسوح المسيح الآتى بعد أن يقيم دولة إسرائيل على أنقاض دول المحيط المعادى لها. ومن هنا كثرت نبوءات الكتاب المقدس بنبى آخر الزمان الآتى من سجف الغيب.

وعندما ظهر النبى محمد ﷺ فى مكة، أرسل إعلانه يدوى بين فيافى الجزيرة ليصل من يهمهم الأمر يؤكد أنه نبوءة موسى وبشرى عيسى وأنه أحمد النبى المنتظر. وتم دعم ذلك بقصة الذبح التى كاد يتعرض لها أبوه عبدالله لتتناغم مع قصة الذبح التى كاد يتعرض لها إسماعيل ابن إبراهيم، حيث كان الذبح علامة على التواصل مع السماء. وقد تم تعويض ذلك الذبح فى اليهودية بذبح شاة أو بذبح جزئى للطفل بجراحة الختان التى أكدت التوراة أنها بصمة العقد الذى تم بين إبراهيم ونسله وبين الله، وبموجب هذا الختان/ الختن/ الختم/ تم توثيق العقد والوعد بوراثة النسل الإبراهيمى الإسرائيلى للأرض مابين نهر مصر إلى نهر الفرات.

ولكن لأن شرط النبوة التورانية أن تكون فى بنى إسرائيل، ولأن النبى محمد ﷺ ليس من بنى إسرائيل، فقد أمكن إيجاد الصلة مع الوعد بإرجاعه ليس إلى يعقوب المسمى بإسرائيل لكن إلى الأب الخليل صاحب الوعد والعقد الأول، إلى إبراهيم نفسه. وحيث إن إسماعيل كان أول من اختتن قبل شقيقه إسحق، أمكن القول بإمكان مجيء نبى آخر الزمان من الفرع الإسماعيلى ، دون شرط اقتصاره على الفرع الإسرائيلى من نسل إبراهيم. وهكذا تم ربط صاحب الدعوة بالمشروع الإسرائيلى، ليكون محقق الوعد لكن عبر النسل الإسماعيلى.

وهو الأمر الذى وعاه مؤرخونا الأوائل وعبروا عنه بهذا المعنى.

●●●

لازلنا على محور الحركة الأولى التى حددت علاقة النص المقدس بواقع الأحداث التى أصبحت تاريخا، إبان تواتر الوحى فى مكة وقبل الهجرة إلى يثرب، فى دفعات متتالية من الآى القرآنى الكريم للتأثير فى يهود يثرب توطئة لهم لقبول دعوة النبى، بل وقبوله هو نفسه فى يثرب. فجاءت آيات الكتاب الكريم تتحدث عن مكانة بنى إسرائيل فى التاريخ السياسى والدينى للمنطقة، وكيف فضلهم الله على العالمين مع تأكيد أن محمدا إنما هو استمرار للنبوات المتوارثة فى البيت الإبراهيمى، مع تكرار لقصص أولئك الأنبياء منذ نوح وإبراهيم عبورا على إسحق ويعقوب والأسباط وانتهاء بداود وسليمان وعيسى، باعتبارهم كانوا توطئة لخاتم النبوات. ومن جانبها كانت الأحاديث تؤكد أن محمدا كان غرة بيضاء فى جبين آدم تناقلتها أصلاب الأنبياء والطاهرين التى شخصت بميلاده.

ومن هنا جاءت الآيات تترى تؤكد ليهود يثرب الذين يترقبون ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**﴾ (٤٤ المائدة)، ﴿**إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة**﴾ (٦ الصف). مع احترام واضح حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة وتوقيرها والإشارة إليها فى الآيات، كذكر شعيرة اليهود المقدسة التى كانوا يحملون بموجبها تابوتا يعتقدون أن ربهم يرقد بداخله، وجاء ذكر هذا التابوت فى الآيات ﴿**إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم**﴾ (٢٤٨ البقرة)، أو مثل كتابة الله للتوراة (بإصبعه فيما تقول التوراة) على ألواح الشريعة ﴿**وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة**﴾ (١٤٥ الأعراف). ثم تلى ذلك الموقف العملى للنبى عند حلوله كريما على يثرب لتستنير به وتحمل اسم مدينة الرسول المنورة، فقد استقبل مع أتباعه قبلة اليهود فى الصلاة، بل وصام معهم يوم كيبور/ الغفران/ يوم غرق المصريين وخروج بنى إسرائيل من مصر، ثم عقد الصحيفة مع يهود يثرب للتعاون والدفاع المشترك، مع كفالة تامة لحرية الاعتقاد. وإعلان عدم التناقض العقدى بين ديانة يهود وبين ماجاء به محمد، وهو ماتنطق به آيات كثيرة من قبيل ﴿**وهو الحق مصدقا لما معهم**﴾ (٩١ البقرة)، ﴿**وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ (١٣٩ البقرة). وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب لونا من ممكنات مستقبلية تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وماسيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، لكنهم أبدا لم يروا فى محمد النبى

الإسرائيلى المنتظر، بينما كانت خطوات النبى تلك تسجل على الجانب الآخر تباعدا مؤقتا عن أهل مكة فى إنذار واضح لقريش كى تغير موقفها ،وتستمع إلى التاريخ وهو يحث خطاه نحو تغير التكتيك من أجل سيادة عربية بقيادة قرشية مقبلة.

●●●

وبمرور الوقت لم يبق وداد الود على حاله، فقد استمر يهود يثرب يهودا دون اندماج كامل يضمن لدولة المدينة تماسكها، ثم تأتى غزوة بدر الكبرى لتضع بيد المسلمين القوة المادية سلاحا ومالا، وتمنحهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، وهكذا آذن فجر الأيام البدرية بمغرب مرحلة آن لها أن تغرب. وأخذت آيات القرآن تترى تحمل روح سياسة جديدة، تنسخ ماقد سلف من حرية اعتقاد سمح بها فى ظرفها، آتية بجديد يوطىء لخلاص يثرب الكلام لدولة الإسلام ، لأن الدين قد أصبح عندالله فقط هو الإسلام **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** (١٩ آل عمران). **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾** (٨٥ آل عمران).

وأخذت الجفوة فى الاتساع لتتحول إلى عداء جهير صحبته معارك طاحنة انتهت بخروج يهود من يثرب نهائيا ، مع إيضاح جديد تحيطنا به الآيات علما فى قولها : **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**(٤٦ النساء). **﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾** (٧٥ البقرة)، ناهيك عن تقرير القرآن أن القائلين بأن الله ثالث ثلاثة قد كفروا، قد صحبته معلومة لم تكن معلومة بالتوراة، وهى أن يهود تقول عن الله الذى لم يلد ولم يولد أنه قد أنجب عزيرا ابن الله.

هكذا كانت حسابات الجدل المتفاعل بين صدق الواقع وبين الوحى الصادق الذى طابق الواقع وتحرك معه فى درس عظيم من البرمجة والتخطيط ، بدأ على أمر وانتهى إلى أمر، وقفت بعده دولة الرسول موحدة شامخة بعد الخلاص المنكر الإيمانى الحى لدعوة الرسول، يهود يثرب.

لكن ماعلاقة كل هذا بسؤالنا التأسيسى عن أزمة مؤرقة بين مايمليه الاعتقاد وبين همومنا القومية والوطنية؟ الإجابة رغم وضوحها فإنها سيبين فيها الخط الأسود من الخط الأبيض مع قراءة المحور الثانى للحركة التى تبدأ من وفاة الرسول ﷺ وتوقف الوحى حتى الآن.

وقائع الحركة الثانية

عملا بخطة الرسول ﷺ التى استنها بنفسه قبل رحيله إلى عالم البقاء ، قامت الخلافة من بعده بحروب الفتوحات الكبرى التى انتهت بإدخال دول غير عربية تحت مظلة الدولة الناشطة، بل وتم استعراب سكان البلدان المفتوحة لغة وثقافة وعقيدة ومنهج حياة، فكان أن دخلت فى ضفائر العروبة بلدان ذات حضارات عريقة ، كان لها مواقف عدائية مع اليهود الغوابر، وتتلو فى مقدسها مواقف تشين جذورها الحضارية وتقتلعهم منها ، عبر الإيمان بكفر أصحاب تلك الحضارات من أجداد كانوا لنا عنوان الفخار، مع وجوب الإيمان بصدق الآخر الإسرائيلى وتبجيله إزاء الوطنى العريق. خاصة مع مرور زمان تمكن فيه يهود العالم من إقامة مجد داود وسليمان فى أورشليم مرة أخرى باقتطاع أرض عربية من أهلها لصالح شعب الرب والدولة الموعودة بالكتاب المقدس.

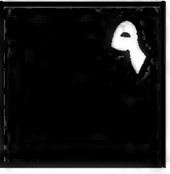
لقد كان الموقف قبل انجلائه فى بدر، يسعى لتأكيد العلاقة مع التوراة وأصحابها، بسرد القصص التوراتية فى آيات قرآنية تؤكد صدق نبوة النبى ليهود يثرب، وضمن تلك القصص تم تكفير حضارة مصر ممثلة فى قوم فرعون الذين أجرموا فى حق بنى إسرائيل فغرقوا عقابا واستحقاقا، كما انتصرت الآيات للملك داود الإسرائيلى وهو يقتل جالوت الفلسطينى ويقيم على أنقاض الفلسطينيين دولة إسرائيل، ثم تم الوقوف من حضارة العراق القديم ذات الموقف لأن ملكها النمرود جادل إبراهيم أرومة العبريين فى أمر ربه فاستحق هو وإله دمار برج بابل والعذاب.

السؤال الملحاح لايتحرج ولايتراجع عن الاجتراء الحر يتساءل: ألايكفر هذا الموقف فينا نصف هويتنا إن لم يكن معظمها، ويكفر الأسلاف والتاريخ، ويقطع مع الماضى، ويفقدنا الذاكرة الوطنية؟ و إذا كانت خطة الوحى قد استدعت نسخ مصالحة يهود وكل ماارتبط بها من آيات، لكن الحكمة الإلهية لصالح الوقف الجديد المعادى لليهود، لم تدخل ضمن خطة النسخ بقية البنود المرافقة لقصص مثل قصص فرعون وجالوت ونمرود، لكن ألايشرخ ذلك فى الذات القومية تجاه الآخر المعادى المتفوق المحتل؟

فكيف نحل هذه الإشكالية دون أن نستهين بأى عنصر فى ديننا الحنيف الجليل، ودون أن نفقد تواصلنا مع أصولنا الحضارية التى تشكل هويتنا.

لا أتصور حلا يليق بجلال الوحى وتوقيره سوى إعادة قراءته غير منزوع من سياقه مرتبطا بواقعه وأحداثه لنعلم حكمة السبب، حتى لايتصادم الإيمان مع العزة الوطنية بأسلافنا العظماء ، ولايتضارب الوطنى مع القومى، ولا يتناقض القومى مع الإيمانى.

وهذا النوع من القراءة هو وحده الكفيل الآن برفع الالتباس فى علاقة الإيمانى بالقومى أو ما يمكن تسميته فك اشتباك، ومن جانب آخر يحقق مصلحة ضرورية هى رفع الانتهازية والاستخدام النفعى للدين ونصوصه حسب مصالح ذوى النفوذ، فنحارب إسرائيل بآيات ونصالحها بآيات ونبنى الاشتراكية بآيات ونفتح المجتمع الحر على السوق بآيات، وبحيث يظل النص القرآنى فى مكانه اللائق من ثقافتنا، دون مصادمات تفرز الأسئلة الصعبة، وربما نكون قد أصبنا، وربما نكون قد أخطأنا، لكنا نحاول لوجه مصر ولوجه الله مانبغى سوى الفهم وهو مطلب إنسانى طبيعى.



الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة

الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة

الإيمان هو التسليم والقبول والتصديق بموضوعات لا تخضع للدرس والنظر العقلى أو التجريبى، فهو تسليم بغيب أخبر عنه صاحب الدعوة، وهذا التصديق يعد مقياساً للالتزام بالديانة من عدمه، وصلاح الإيمان من فساده. ونموذج ذلك فى الإسلام ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو ما ورد فى شكل أحاديث منسوبة للنبى محمد ﷺ، مثل التسليم والإيمان بوجود إله كامل مفارق للمادة خالد أزلى أبدى، وبرسالات سبقت دعوة نبى الإسلام، وبآيات إعجازية كبرى حملها الأنبياء والرسل كدلالة صدق تكسر قوانين الطبيعة لأنها لا تخضع لنواميس العقل ومنظومته وقواعده، ومثل التسليم بوجود كائنات مجنحة نورانية تسكن السماء وتحف بعرش الإله ويحمل ثمانية منها ذلك العرش، كل تلك وغيرها كثير من الغيبيات هى من شروط الإيمان، هى موضوعات لا تقبل البحث والبرهنة عليها، ومناقشتها من الأمور غير الممكنة، لذلك هى محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو رفض، فإن صدقتها دخلت فى زمرة أتباعه لتسليمك بها إيماناً بصدق المبلغ بها والداعى إليها، وإن رفضتها لا تدخل فى زمرة هؤلاء. هى موضوعات محلها القلب والوجدان والضمير الداخلى، هى محل قبول أو رفض، يصلح دوماً عرضها على الناس الأمس واليوم وغداً، وتصح الدعوة إليها فى أى مكان، لأنها لا تطلب سوى التصديق القلبى والإيجاب والتسليم والانقياد بإيجاز هى قابلة للعرض على الناس فى كل مكان وزمان.

ومثل تلك الغيبيات موضوع الإيمان يمكنك أن تجدها فى أى كتاب مقدس فى أى دين، لذلك سمى ديناً، ومثل هذا المقدس فى أى عقيدة، أمر يعتقد أتباعه ومن آمنوا به أنه صالح دوماً وأبداً لكل مكان ولكل زمان. ومثل هؤلاء جميعاً يعتقد المسلمون أن القرآن الكريم صالح لكل مكان وكل زمان ،باعتباره كلمة الخالق الأزلى المبدع التى لا تقبل تبديلاً. لكن ذلك لم يمنع المدارس العلمية من مناقشة الكتب المقدسة والتعاطى معها

بالعقل وقوانينه وبمنهج العلم وشروطه، حتى أصبحت مدارس نقد الكتب المقدسة مرجعاً لا غنى عنه اليوم فى جامعات العالم ـ خاصة المتقدم ـ للباحثين فى شتى التخصصات، سواء على مستوى درس البعد التاريخى للنصوص أو أصولها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

ورغم أن القاعدة تفترض صلاحية النصوص المقدسة لكل مكان وزمان بذاتها وبمحتواها وقوتها الذاتية، فإن التقدم العلمى الهائل والمتسارع إضافة إلى التطور الاجتماعى والسياسى الذى شهدته المجتمعات الإنسانية، أوجد مساحة ضخمة بين ثقافة ثابتة وتصلح رغم ثباتها لكل المتغيرات، وبين ما يحدث فى واقع الحال فعلاً من تباعد واضح من جانب منهج التفكير العلمى عن تلك الثقافة الثابتة، بل أصبحت فكرة الثقافة الثابتة الصالحة دوماً فكرة خارجة عن مفاهيم العلم وشروطه وعن قوانين العقل ومنظومته.

من هنا قام المفكرون المنتمون لهذا الدين أو ذاك بمحاولات التقريب بين النصوص المقدسة وبين ما أفرزه ذلك الحراك الإنسانى المستمر والمتسارع من قواعد ومفاهيم ومعارف جديدة تماماً لم تكن معروفة زمن تدوين ذلك المقدس. وهو بالتحديد ما حدث مع الكتابين المقدسين التوراة والأناجيل تحت عنوان مدرسى هو: مدارس نقد الكتاب المقدس BIBEL. والواضح لدى الجميع أن الاتجاه الكهنوتى المصر على الثبات قد سجل مجموعة عظيمة من التراجعات أمام التقدم العلمى الهائل، كما لوحظ تحول هؤلاء عن العنف إلى التراجع السلمى، بعدما رسخت مفاهيم الحريات خاصة مبدأ حرية الاعتقاد، بل وبدأت هذه التراجعات. بمبادرات من رجال الكهنوت أنفسهم، بعدما بدأ الأمر فى فجر العلم التجريبى صراعاً دموياً عظيماً أدى إلى سفك دماء البشر أنهاراً مع أول بادرة نقد أو خلاف كانت تظهر.

الإسلام دين الحراك

لكن الحال مع الدين الإسلامى يختلف اختلافاً بيناً، حيث بدأت محاولات التوفيق بين العقل والنقل مبكرة جداً فى مدارس العرب، وأدت إلى نشوء فرق فلسفية تم تصنيفها جميعاً تحت عنوان مدرسى واحد لعلم جديد هو (علم الكلام). ونادراً ما أهدرت دماء مسلم لاختلاف حول أمر من شئون المقدس، قد أرست مدارس علم الكلام أقدامها بثبات منذ

فجر الدولة الإسلامية، مما فتح أبواب الاجتهاد على مصراعيها، حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترجيح حكم العقل إذا تعارض أو اختلف مع نص. وكانت تلك المدارس ــ والمناخ السائد الذى أدى إلى طمأنينة وسلام أفرزها ـ رحمة بالمسلمين ، إذ تم إرساء حق الاختلاف حول أمور الدين مبكراً، بحسبان الإسلام تحديداً ملك جميع المسلمين وليس فيه أية سلطة كهنوتية تفرض رأياً بعينه فى فهم النص دون فهم آخر، ومن ثم فقد أمسى راسخاً لكل مسلم واع واجب الاعتراف بحق تعدد الأفهام حول النصوص، وأصبح هذا الحق متاحاً للجميع على اختلاف مذاهبهم ومعارفهم.

وإذا كان ضمن عناصر المقدس موضوعات لاتقبل المناقشة هى الغيبيات فإنه يحتوى ما يتعلق بالشرائع ومعاش الناس ومصالحهم، وهو الجانب الذى نصر على أن نطرح بشأنه أسئلتنا الأخرى، مع الابتعاد عن مناقشة الغيبيات، رغم أن مناقشة الغيبيات ذاتها ليست ممنوعة ولا هى مناطق محرمة، ولم يتوقف الباحثون المسلمون الأوائل عند الجانب المتغير بتغير الزمان والمكان وهو الجانب الحقوقى فى الشرائع، بل تجاوزوا ذلك إلى بحث موضوعات الإيمان الغيبية، بل وتم بحث ودرس ومناقشة وجدل واختلاف عظيم حول أمور بحثية هى من الغيب المطلق مثل ذات الله وصفاته، وهل هى حقيقية أم مجازية؟ وهل القرآن مخلوق محدث أم قديم أزلى؟ لكن ذلك كان زمن القوة والاقتدار، زمن العزة والوثوق بالذات، عندما كانت الأمة عفية صبية قوية لاتخشى على ذاتها من حرية البحث بل وحرية الاعتقاد. لكننا نسمع اليوم كلاماً غير الكلام، ودعوة للعودة إلى سلف دون سلف، وإلى موقف منتقى دون آخر، كما لو كان أسلافنا من باحثين عقلانيين ليسوا ضمن هؤلاء الأسلاف، رغم أنهم كانوا دوماً مصدر اعتزازنا وفخارنا. ونرى مواقف آنية تشير إلى حالة مستعصية من الخصاء الذهنى المشتبك مع ذهان عقلى واضح، تسفك بموجبها دماء بريئة باسم الدين والقرآن ويحاكم الناس على رأى أو قول، بل ويحاكمون فى الأغلب على ضميرهم ونواياهم. ويصدر الأمر بالتنفيذ!

ولعل السبب الواضح هو حالة الانحطاط والتردى التى وصلنا إليها بين أمم العالمين، فكان رد الفعل هو التمسك الشديد بالذات، وبعدما فقد الإنسان علاقة الأمان مع الوطن تحولت الهوية من الوطن إلى الدين ، من باب تجميع أكبر حشد من الأنصار والمؤيدين خارج إطار حدود الوطن. وتحولت تلك الهوية الدينية نحو المفهوم القبلى، وحيث نتحدث

عن بشر دون الحـديث عن حدود وطنية، فنحن نتحـدث عن منظومة قبلية، فالقبيلـة وحدها هى التى تتحرك باستمرار ولا تعرف أية حدود وبالتـالى ليس لها وطن بعينه، لذلك استبدلت من فجرهـا مفهوم الوطن بمفهـوم الحمى الذى يتحرك معها أينمـا تحركت، مفهومـاً معنوياً وليس مادياً، يرمز له سلف القبيلة البعيد وسيدها القديم الذى عادة ما يكون هو ربها الضامن عزتهـا وتماسكها اللـزج الضرورى إزاء تحركهـا الدائب وغير المستقـر. لذلك كـان استبعاد الوطن كهـوية والإبقاء على الدين وحـده يحيل بالضرورة إلى الشكل القبلـى والفهم القبلى لتجميع الأمة متعـددة الأوطان فى قبيلة واحدة، يكـون الخروج عليها إضعافاً لهـا، وبقوانين القبيلة العتيـدة القديمـة يكون هذا الخـروج جريمـة تستوجب التصفيـة والاستبعاد مـن دنيا الأحياء والمشكلة تكمن فى تكييف شكل هذا الخروج، ولأنه عـادة ما يتم تكييفه قانونياً فإنه يكون عرضـة للتطرف فى الفهم والحكم ويصبح أى قـول أو مناقشة مدعاة لنعتـه بالخروج، وبالتالى للحكم والتنفيذ.

الشخصية الثقافية الثابتة

وقد اتخذ التمسـك بالهوية خشيـة الذوبان فى الآخـر المتفوق وثقافته شكـل الشخصية الثقافيـة القديمة الثـابتة المقـدسة، لنكون شعبـاً مقدساً يتحـد باللـه القوى، ألسنا خيـر أمة أخرجت للنـاس؟ وبذلك يمكن مـواجهة الآخر القوى وثقـافته المتغيرة دوماً بثقـافة لا تتغير أبداً.

ولأن العلم المتقدم بكـل منتجاته وكشوفـه واختراعاته المبهـرة قد ساعد الـدول التى تم تصنيفها معادية، بل معـادية للإسلام تحديداً، فقد تحول هذا العلم فـى نظر أصحاب الرؤية الثابتة إلـى شيطان مريد مقتدر يسـاعد الآخر على التفـوق كراهية فى الإسلام. ومـن هنا كان المزيد من التمسـك بالشخصية الثابتة والهوية الـدينية لإقامة حزب الله فـى مواجهة حزب الشيطان أو حلـف العلم، ولأن الواضـح والظاهر أن حـزب الشيطان هو المتفـوق حتى الآن، فإن النبوءة هى أن حـزب الله هو الغالـب بالتأكيـد، مع محاولة استيهامية مريضـة تؤكد دوما أنه حتـى هذا العلم قـد تمت معـرفته لدينـا قبلهم عبر معـرفة ربنـا بكل تلك العلـوم قبل أن يكتشفها العلم الغربى، وأنها محفوظة فى كتاب الله من الأزل.

وإعمالاً لـذلك قررنـا الوقوف عنـد لحظة زمكانيـة، زمنها هو لحظـة تواصل السمـاء مع

الأرض منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، ومكـانها بلاد الحجاز من جزيرة العرب. وتم تثبيت كل الزمن الماضى والزمن الحالى والـزمن الآتى عند تلك اللحظة، لنتجاوز التخلف الحالى بتفوق قـديم تمثل فـى ذلك الديـن القويم الذى أقـام للعرب ديناً ودولـة ودنيا وامبراطـورية سامقة. غيـر مدركين أن الدنيا بعد تلـك اللحظة قد تحركت تحركـاً هائلاً وعظيماً. ودون أن ندرك أن ذلـك التفوق القديم كـان قياساً علـى زمنه وعصره، وأن الـوقوف عند كل تفـاصيله الدقيقة وتثبيتها ثقافة لليوم . هو التخلف ذاته. ولا نرى أن موقفنا اليوم من التغير والحركة مع المتغيرات هو ذات مـوقف من عارضـوا الدعوة الإسلاميـة فى فجرها وقـالوا: هذا ما وجـدنا عليه آباءنـا. وغير مكترثين بالتنـاقض الصارخ بين القول بثقافة ثابتة وبين المـوقـف الواجب اتخاذه لصلاح حـالنا الراهن، كما تتنـاقض مع رغبة دفينـة فى التغير وملاحقة الـزمن، نبغى تطويع الكون المتغير لثقافتنا الثابتة بتأكيد أن أى تغيير يطرأ يوافق بتمامه وكماله ما نعلمه من موقعنا الثابـت وثقافتنا التى وضعت من الأزل فـى لوح محفوظ لتوافق كل تغيـر ممكن حتى نهاية العالم.

ومن ثـم لم نعد نفهـم درس التغير الذى كـان هو درس الإسـلام الأول، ولـم نعد نعـى ما وعاه المسلمـون الأوائل، بل لـم نعـد نقرأ ثقافتنـا قراءة واعيـة، ناهيك عـن الثقافة العـالمية. وحولنـا ثقافتنا من ثقـافة إلى تمائم وتعـاويذ سحريـة ندعو بها علـى الأعداء كما ندعـو بها المطر إلى السقـوط. ويمكن ببعض الأداء الطقوسى الـرمزى استدعاء ملائكتهـا ومعجزاتها وكل كائناتها الغيبية لتحارب لنا معركتنا وتفعل فعلها فى الواقع، دون أن نبذل من جهد أكثر من مسـواك ومسبحة وسجـادة وترتيـل وتنفيذ الأوامـر فى السلـوكيات. وبهـذا يمكن لقـوى السماء أن تدمر لنا الآخر المتفوق وكفى المؤمنين القتال، وهو غاية المراد من رب العباد.

إلا أن الـواضح الظـاهر الجلـى أنـه لا هذا ولا ذاك يحـدث ، وكـل ما يحـدث هو تفـوق المتفوق، ومزيـد من الهبوط والانحطاط والتردى علـى جانبنا. مع استهتار واضـح بالمقدس ذاته بتثبيتـه عند تلك اللحظة التـاريخية وتجميده، فـى قوالب ثـابتة ومفاهيم محـددة لدى السلف ، كما لو كنا لا نملك عقولاً كما كانوا يملكـون، ناهيك عما وصلنا إليه من انهيار شبه تام أصاب حياتنا ومعاشنا وفق تصور أننا نملك الحقيقة الكاملة والمطلقة والثابتة.

١٠

حول ما هو أهم من تصريحات (الأب الروحى) المشهور !!

حول ما هو أهم من تصريحات (الأب الروحى) المشهور !!

عراب مافيا الإسلام السياسى الأستاذ (مصطفى مشهور) ألقى القفاز فى وجه الدولة المدنية، وقذف بالكرة إلى ملعب دنيا المتنورين فأقام الدنيا ولم يقعدها، رغم أن الرجل كان صريحا واضحا بسيطا صادقا مع نفسه ومع مايعتقد ومع أهداف جماعته المعلنة، ومع الأيديولوجيا الشمولية التى ينتمى إليها. فلم يكذب ولم يدلس ولم يلتو، إنما قال مايؤمن به سافرا فاضحا، حيث قال ـ فض فوه ـ فى حوار صحفى: إن جماعته تطلب تحصيل الجزية من أقباط مصر مع استبعادهم من الجيش تحسبا لخيانتهم للوطن. الرجل لفق على المسيحيين نعم، لكنه لم يلفق فيما يعتقد ولم يقف فى مناطق الوسطية الانتهازية النفعية المائعة وقال كلمته بشجاعة جسور.

والغريب فى الأمر جميعه أن الهجوم تعامل مع الرجل، كما لو كان قد قال فرية أو جديدا لانعلمه، كل مافى الأمر أنه نفخ الرماد الهش الذى يخفى تحته الجمار الملتهب، ونحن نأنس للرماد لأنه يساعد على إخفاء الحقائق والتناسى. ونسيان يلقيه من يزعمون التقدمية والتنوير على لهب لايجرؤون على الاقتراب منه لأنهم يحذرون المناطق الملغومة، بل ويرتعبون من مجرد مساندة من يقتربون منها حقا ويحترقون بها صدقا ، بمنهج علمى واع رصين وبروح وطنية فدائية لاتعرف تعدد الألوان حسب المصالح والهوى. إن هؤلاء البعض الذين هاجوا وماجوا وأرغوا وأزبدوا هم أكثر زيفا من كل إفك وتلفيق، فهم يريدون الأمور على هواهم، ولايريدون ريحا مفاجئة تطفىء شموع طرقهم السرية فى تحالفات مصلحية مقيتة.

نعم ربما صفق هؤلاء المستنيرون لباحث عاشق حقيقى لوطنه تئن كبده وتنزف روحه ولها عليه ، بمنطق التصفيق للفدائى أو الجندى المجهول، لكنهم فى الوقت ذاته يصمتون صمت القبور ويكمنون كمون البوم إزاء أبحاث صادقة حقيقية رفيعة علمية هادئة لاتبغى

نفعا سوى وجه هذا الـوطن، تخوض عش الثعابين وتصارع بروح قتالية عـالية وفدائية نادرة. تؤمـن بهذا الوطـن وتحب هـذا الوطن وتتعشقـه حتى الموت فـرحا بـاختلاط دمائهـا بثراه. ويكتفى المستنيـرون الكبار بـإعلان الإعجـاب بهذه الأبحـاث العلمية فـى ندوات ديـوانية جانبيـة وجلسات ثقـافية بيتيـة، وعادة مـايكون الإعجـاب أقرب إلـى الهمس لأن الصـوت المسموع يضر بالمصالح والتوازنات وألعاب السياسة البهلوانية، ولأنه قد يودى بالحياة وهم يحبون الحيـاة حبا جما. وإذا اضطـروا لإبداء الرأى إزاء هـؤلاء الباحثين المهمشيـن عمدا، المعتم على أعمـالهم قصدا، فإنهم عادة مـايسلكون سلوك العاقل الرصيـن المتزن الثقيل، فيقولون أقـوالا مرسلة لاهى مـع ولاهى ضد، أما بعضهم مـن أنصار تحالف المستنيـرين مع عقلاء الفكـر الدينـى فإنهـم عادة مـايشجبون، وربمـا باعـوا تلك القلـة النادرة والفـذة من مفكرى مصر المخلصين مع أول صفقة سلطانية ليذبحوا وتهدر دماؤهم أو ينفوا من بلادهم، ولا بأس أثنـاء ذلك من بعض التمثيليـات المبتذلة التـى تشجب وتدين الإرهـاب الفكرى، ويعود الجميع بماغنموا من عزاء واجب ومادايم إلا وجه الله.

وهؤلاء ذاتهـم من شـرعوا كل سيـوفهم العنتريـة وتنابـذوا بالأقلام عنـدما أعلـن مشهور مايعلمـونه جميعـا يقينا ويغمضـون عنه العيون وتتبلـد أفهامهـم إزاءه بجبن رخيـص، وتتم المتاجـرة بالـوطن هنـا وبالله هناك. نـاهيك عـن السماسـرة المقتدريـن من رجـال شئون التقديس المحترفين على الجانبين الإسلامـى والمسيحى ، الذين يميعون كل المواقف بلثم لحى بعضهم بعضا فى تظـاهرات إعلامية مقيتة ورخيصة و(يدفنوه سـوا) وسرا وهو أشد فتكا بالوطن من النفـايات النووية، تحت غبار هش لايصمد مع أول نفخـة، وهو ماتكرم(مشهور) بعمله ببساطة، وبكل بساطة ودون أن يرتكب إثما دينيا، بل ولاحتى وطنيا. ألا ينص دستورنا التليد الخليط بكل أنواع السلطـة إسلامية على اشتراكية على ليبراليـة على سمك على لبن على تمر هندى، عملا بـالشعار الرفيع والأسمى: كله عند العرب صـابون؟ ألا ينص الدستور أن لدولتنا المدنية دينا رسميا (؟!) هو الإسلام، وأن الشـريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، فأين أخطأ الرجل؟

لقد بح صوتنا حول هذا الأمر لكن لاحيـاة لمن تنادى، ولأن هذا الكلام ليس أوانه، ولأنه خوض فـى محظور خطر، رغـم أنهم يعلمون يقينـا أنه إذا فـات أوان اليوم، ونحن علـى هذه الحال، فلن يكون لنا بعد ذلك أوان.

وعصبة الإخوان أقـوياء بضعف موقف هؤلاء السـادة وحذرهم الشديد أمام التـابوهات، وجميع فصـائل الإسلام السياسـى تعلنها صريحة أن مـايفعلونه ليـس ناتج فكـرة أو آرائهم الشخصية، إنما هو تنفيذ لأوامر إلهية صريحة واتباعا لسنة فعلية وقولية صريحة، حتى القتلة الإرهابييـن منهم يستندون إلى نصـوص لاتقبل لبسا، ومـع ذلك لايجد مشايـخ السلطة أى بأس مـن الكذب والتدليـس فى تلفازنا المبـارك أسكت الله لـه حسا، فيلجأون إلـى منهج انتقائى بـاطل من النصوص للـرد على نصوص الإرهابييـن رغم أنهم يعلمون بحسـب علوم القرآن، ومن أبواب النسخ أن آية السيف قد نسخت كل آيات حرية الاعتقاد، والناس جميعا تعرف ذلـك، ومع كل هـذا يجلس مشايـخ السلطنة يلفقون رغـم أن الكل يعرفـون، وتستمر التمثيليـات العبثيـة دون قلم جـرىء مجتهـد واحـد يطلب مثـلا إعـادة النظـر فى مفـاهيـم النصوص ذاتهـا بما يتفق وظرفنـا وزماننا، حتـى أننا لـم نقتـرب حتى اليوم من نصـوص الرق والسبايـا والعبوديـة إطلاقـا، ولاحتى طـالبنا مجمعـا دينيا بـإصدار مـايفيد بـإيقاف العمـل بأحكامها، قياسا على اجتهادات جريئة أخرى مماثلة سبقتنا. فأى كارثة نعيش أيها السادة؟

وفى الحوار الـذى سبب الأزمة مع عـرّاب الإخوان يقول الصحفى المحـاور (خالد داود) أن (مشهور) لم يكف عن ترديد أنه لايقول قـول جماعة ولايرفع مجرد شعار ورأى خاص ولا قول مشهور، إنمـا هو يتحدث عن نصوص صريحـة فى القرآن وفى السنة وفـى الشريعة، وأن الجزيـة جزء أصيل فـى شريعة الإسـلام. لكن حـول هذا الجزء الأصيـل لم يتكلم أحـد من عناترنـا، بل كأنهم لـم يسمعوه أو يقرأوه ولم ينطق أحـد وتغابت عنه جميـع الأفهام ووجهوا نحو الرجـل دون الأصل كل إداناتهـم. فأثبت المهاجمون للـرجل أنهم دونه شجـاعة وأكثر مداورة وأشد التفافا حول الحقائق. وقد عبر الصحفـى (خالد داود) عن ذلك بقوله: «إن هذا قول كاف لزرع الخوف والـرعب فى قلب أى محاور لأنه ببساطة يوجه الحـديث إلى مناقشة أمور عقيدية». والمطلوب بنفس البساطة التغافل عن ذلك والتعامى عنه وعدم المناقشة.

وهـذا طبعا لايعنـى صدقـا حقيقيـا فى المـواقـف المعلومـة للأب الـروحـى وعصابتـه المشهورة، فهـو فى ذات الوقت الـذى طلب فيه تطهيـر الجيش من المسيحيين، أكـد بكل كذب مفضـوح وتلفيق أشـر أن المسيحيين يـريدون تطبيـق الشريعـة الإسلاميـة هكذا(؟!)، وبغض النظر عن هـذه الصورة الكاريكاتورية، فإنـه حتى هذا الكذب له مسوغـاته من زمن الرعيل الإسـلامى الأول وزمن الصحابة وأيـام تدوين الأحاديث ، فهـو الكذب المستحب ،



بالضبط كـالأحاديث النبويـة المكذوبة لكنها المستحبة.. وأنهـا رغم كذبها فهـى فى سبيل الله. وأن مثـل هذا الكذب الشـرعي ليس جـديدا، فقـد أسس له أبـو ديانات المنطقـة وأبو أنبيائها سلفا عن خلـف، عندما كذب ثلاث كذبات توصف بأنهـا جميعا (فى الله)، وذلك عندما ادعى السقم وعندما قال فعلها كبيرهـم هذا، وعندما قال لملك مصرعن سارة زوجته (هى أختى). فحتى الكذب عند السيد مشهور ولو كان مضحكا فهو كذب شرعى مشهور، لم يناقض الرجل فيه نفسه ولاتاريخ منظومته.

أما المستنيـرون الأعلام المنتشرون فكـانوا هم أهـل المداورة والالتفاف والكـذب البواح الصراح، يمسكون كل شيء من منتصف ليميلوا مـع ثقل أحد الطرفين حسب المستجدات من ظـروف ومتغيرات، لذلـك لم يقتـرب أحد ممن حـدثونا مـن جوهـر وسر الداء الـدفين ، ومناقشـة الأصول دون الفروع . كـل الكلام كـان عن زمان وكـان ياما كـان من حـب ولهيب مشتعل مـن الغرام بين المسلمين والأقبـاط، ولطالما عانـق الهلال الصليب، وكلنا حلـوين وكلنا طعمين، رغم مايغص به تاريخ مصر مـن ألوان اضطهاد رسمى وشعبى على مر التاريخ وحتى الآن. بل لقد تم إسقـاط ما يقرب من ألف عام من تاريـخ مصر، لأن شقها الأول كان ثورة قبطية ضد الرومان لاتشغلنا كما لو كان المسلمـون غير مصريين، وهو منطق بشع يؤصل دوما لفكرة غزو عربى طويل الأمد طالما لـم ينشغل المسلم بتاريخ وطنه وتركه للأقباط. أما الشـق الآخر مـن تلك المـدة الطويلـة المنسية، فقـد كان ثـورة مصريـة ضد الغـزو العربـى مُسحت أيضا مسحا من تاريخنا لأنها قبطية كما لو كنا لسنا بدورنا أقباطا، أعنى مصريين؟!

هؤلاء السادة لـم نسمع لهم صوتـا حول هذا الأمر ـ مثـلا أيضا مجرد مثل ـ ولم يملكوا شجاعـة العراب المشهور علـى مواجهة الحقيقة مـن أجل حسم كثيـر من الأمور التـى تقف عثرة كبـرى ومصدر خطر عظيم ، لنعطـى مالله لله ومـا للوطن للـوطن، وهو الأمر الـذى نلح عليـه ونقدم فيـه جهودا معلـومة ولـن نتنازل عنـه، مهما ظـل هؤلاء يشيحـون عن المطلـب الأساسى بـرعب غير خاف مـن الاقتراب من مواطـن التحريمات والتكفيرات، حيـث هناك الفزع الأكبر.

علينا أن نفتـح كل نـوافذ البحـث الرصيـن على مـأثورنـا، ونعترف بمـافيه ببسـاطة دون تـأويلات مخلـة لاتخـدم الحـاضر، وقـد تضـر بـالديـن نفسـه ، ولا بـالانتقاء منـه حسـب المناسبات أحيانا وحسـب هوى السلاطين أحيانا أخرى، والنموذج هنـا من ذلك المأثور أن

النبى ﷺ عندما قيل له فى غزوة أحد عن استعداد حلفاء المسلمين من يهود يثرب للقتال فى صفه قال: نحن لانستعين بأهل الشرك على أهل الكفر، ورفض العرض، مشهور لم يخرج بذلك على مايعتقد، لكن المطلوب بعد الاعتراف إعادة نظر شاملة فى فهم النصوص المقدسة، وفى أحكامها وفيما يجب اليوم العمل بحكمه بقانون مصلحة العباد الذى شرعته علوم الفقه ولم تجرمه، بل حضت عليه وحرضت، وماسبقنا إليه السابقون من مستنيرين، منذ أزمان حين قال أبو الفضل الأندلسى والسنون تردد صداه:

قل لمن لايرى المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما

إن هذا القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما



١١ تعقيب على لقاء نتانياهو بالمثقفين المصريين

تعقيب على لقاء نتانياهو بالمثقفين المصريين

ولاأقصد هنا التعقيب على الحوار أو على كل ماقـال السيد نتانياهو، لكن فقط على فقرة واحدة قـالها فـى هذا اللقاء، وأوردهـا الأستاذ عبـدالستار الطويلـة فى عـدد ١٠/ ٣ من روز اليوسف.

يقول الأستاذ عبد الستار: «وهـو ـ أى نتانياهو ـ لايعدم حجة يقلـب فيها حقائق التاريخ، فهو يقـول فى براءة شـديدة وهو يبـرر احتلال يهـودا والسامرة، كمـا أصر على تسميـة الضفة الغربية بشكل مستمر طوال اللقاء: نحن لسنا الأمـريكيين أو الفرنسيين الذين ذهبوا لاحتلال فيتنام والجزائر، هؤلاء غرباء عن الأرض والشعوب هنـاك ولاحق لهم فى ذلك، أما نحن فهذه الأرض هى أرضنا، والذى حدث أننا طردنا منها ونريد استردادها».

وكنا نظن أننا قـد تجاوزنا هذا المنطق من حقبـة الستينيات لكن السيد نتانياهـو بالتزامه العقدى الواضح والمعلـن قد أعادنا مرة أخرى إلـى تلك المنطقة من التاريخ بمنطـق يدعى الحقوق المؤسسة على التاريخ.

لن أكرر هنـا القول المأثور إن كان ذلك كـذلك، وكان لابد من إعادة الأراضـى المسلوبة عبر التـاريخ إلـى أصحابها، فعلـى العالـم المتقدم الـذى يأخذ بهـذا المبدأ أن يعيـد القارة الأمريكية إلى الهنود الحمر.

ولن أكرر هنـا أن الحقوق الدينية لاتعطى حقـوقا فى الأرض، وإلاكان للمسلـم الأفغانى والصينى والأندونيسى حقوقاً فى أراضى الحجاز، وهو مالم يدعه مسلم عاقل أو رشيد.

ولن أكرر ماسبـق وقلته فى أعمالى المنشورة عـن كون إسرائيليى اليوم أمرا يختلـف تماما عن بنى إسـرائيل التوراتيين، وإلاكان علـى السيد نتانياهـو أن يقدم لنا أهم وثيقة تـؤكد تلك الحقوق، وأنه وفق منطقه هو عليه أن يقدم لنا شهـادة إثبات نسب تعود به رأساً للنبى يعقوب المعروف بإسرائيل.

نعم نحن نعلم أن فى الأزمنة الخوالى كانـت هناك العقود المكتوبة بين أفراد مجتمعات الأمم المتحضـرة لتؤكد الحقـوق، أما القانـون كما فى مصـر القديمة فقـد كان للدنيـا مثلا، ولكنا نعلـم من توراة السيـد نتانياهـو أن أولئك الذيـن ينتسب إليهم لـم يكونوا ممـن يفكون الخط، لـذلك عمـل يعقوب مـع خالـه الآرامى رجمـة حجارة لتكـون علامـة شاهـدة على عقدهما أسماها (يجر سهدوثا)، وأعطى إبـراهيم سبع نعاج لأبيمالك ملك جرار الفلسطينى وزرع شجرة أثـل عند بئـر سبع (لـذلك سميـت كذلـك) كى تكـون شاهـدة على عقـده مع أبيمالك حول ملكية أحد الآبار ـ وليس شيئا كالنيـل مثلا ـ أو بالنص التوراتى «وأقام إبراهيم سبع نعـاج من الغنم وحدهـا، فقال أبيمالك لإبـراهيم ماهـى هذه السبع نعاج التـى أقمتها وحدها، فقـال أنك سبع نعاج تأخـذ من يدى لكى تكـون لى شهادة بأنى حفـرت هذا البئر، لذلك دعا ذلك المـوضع بئر سبع لأنهما حلفا كلاهما هناك، فقطعا ميثـاقا بئر سبع.. وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع/ سفر التكوين ٢١/ ٢٨ ـ ٣١»..

وهو ذات الأمر الـذى تكرر مرة أخرى مع أبيمـالك الفلسطينى لكن البطل هـذه المرة لم يكن إبـراهيم بل ابنـه إسحق، وكـان النزاع حول البئـر التى سميت بئـر سبع أى بئـر القسم/ القسـم الذى أقسمـوه على عهـد غير مكتـوب فهى تعنـى الرقـم سبعة كمـا تعنى القسـم أو الحلف(انظر سفر التكوين ٢٦/ ٢٢ ـ ٢٣).

مجرد بئـر كانـت البدايـة، وحولهـا تناقضـت رواية التـوراة مما يشيـر إلى بطـلان القصة بكاملها من أول سرد لها بكتاب ينعت بالمقدس.

نعم نحن نعلـم أنهم لم يكونـوا من بين الشعوب التـى تعرف الكتابة حينـذاك، حتى أن العهد الأعظـم وهو المزعوم قـد حدث على ذمـة التوراة بين إبـراهيم وبين الله ليـأخذ أرض فلسطين مـن الله، كـان بموجـب عقد مـوثق مختـوم بخاتـم واضح، وكـان أى ختم ؟ وأى توثيـق؟ كما تقول التـوراة : «وقال الله لإبراهيـم وأما أنت فتحفـظ عهدى أنت ونسلـك من بعدك فـى أجيالهم، هـذا هو عهـدى الذى تحفظونـه بينى وبينكم وبيـن نسلك مـن بعدك، **يختتن** منكم كل ذكر فى لحـم غرلتكم (أى فى **القضيب** الذكرى) فيكون عـلامة عهد بينى وبينكم/ التكوين ١٧/ ٩ ـ ١١).

وبالطبع ليست تلك هى الوثيقة التى نطلبها مـن السيد نتانياهو لتؤكد الحقوق التاريخية التى يدعيهـا، فلا هو يستطيع إبراز تلك الـوثيقة للإعلام العالمـى، ولا أى محكمة يمكنها أن تأخذ بهذه الوثيقة المعتمدة بختم الطهارة (بالطبـع هى غير الطهارة الثورية). ناهيك عن أنه إذا كان هـذا الختم وتلـك الوثيقـة إعلانـا عن امتـلاك بئر سبـع (البئر فقـط وليس المـدينة) فلاشـك أن المطالبين بحـق الملكية ومايملكون مـن صكوك إثبات لـن تكفيهم آبار الـدنيا (لعلماء النفـس رأى فى تلـك القصة وهـى عندهـم تعبير عـن الفعل الجنسى، فالقضيـب معروف والبئر رمز الفرج).

والغريب فـى أمر نتانياهو أنـه يؤكد حقوقـه اليوم فى فلسطين اعتمادا علـى حقوق الآباء الأولين و إقـامتهم فـى فلسطين، رغم أن تـوراة السيد نتـانياهـو تؤكد وتعيـد وتزيـد أن أرومة العبريين إبراهيـم ذاته كان غريبا على أرض فلسطيـن، وهو الأمر الذى ظل يكرره أخـلافه من بعده، مما يجعل كلام السيد نتانياهو غريبا غـرابتهم على فلسطين.انظر معى ياسيد نتانياهو توراتك إذ تقول بلسان إبراهيم وأخلافه :

١ ـ فخرجوا معا من أور الكلدانيين **ليذهبوا إلى أرض كنعان تكوين** ١١/ ٣١.

أى أن القبيلة الإبـراهيمية جاءت إلـى فلسطين وافدة مـن أرض أخرى وبلاد أخـرى، وقد أثبتنا فى كتـابنا (النبى إبراهيم والتاريـخ المجهول أن أور الكلدانيين هذه تقع فـى بلاد أرمينيا الحالية ولاعلاقة لها بالمنطقة).

٢ ـ وقـال الرب لإبراهيم اذهـب من أرضك ومن عشيـرتك ومن بيت أبيـك **إلى الأرض التى أريك**. تكوين ١٢/ ١.

٣ ـ أنـا الرب الـذى أخرجـك من أور الكلـدانيين **ليعطيك هذه الأرض** لترثها. تكـوين ١٥/ ٧.

٤ ـ لأكون إلها لك ولنسلك من بعـدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك **أرض غربتك كل أرض كنعان**. تكوين ١٧ ـ ٧، ٨.

ولعل القارىء لاحظ ـ كمـا لاشك يعلم السيد نتانياهو يقينا ـ أن التأكيـد على غربة تلك القبيلة عن أرض كنعان تكاد تتكرر فى كل إصحـاح، نكتفى منها بتلك الأمثلة لأن إحصاءها يحتاج صفحات طويلة من الملل.

وهكذا جاء السيد نتانياهو بافتراء واضح على التاريخ بل على توراته ذاتها التى يعض عليها بالنواجذ. لقد وصل أسلافه قادمين من بلاد بعيدة غرباء على أرض كنعان. الرجل ذكى ومذاكر توراة كويس، سيرد علينا نعم كان أهل الأرض كنعانيين وهم شعب سامى لايمكن لأحدنا أن يدعيه لنفسه دون الآخر. لأن كلينا سامى لكن لديك أيها السيد فى توراتك ذاتها مايشير بوضوح إلى أن الفلسطينيين قد سكنوا تلك الأرض قبل مجيء أجدادك إليها من أرمينيا أو من حيث ألقت، ولم يكن فقط سكانها الكنعانيون، لقد وصل إبراهيم وكانت تلك البلاد لاتسمى بلاد الكنعانيين رغم سكن الكنعانيين فيها، لكنها كانت تسمى أرض الفلسطينيين.. هكذا بوضوح فصيح تسميها التوراة أيها السيد المؤمن وقد ورد ذلك فى قصة طريفة لاتستحى التوراة من ذكرها فلاحياء فى الدين، والتوراة كما تعلمون أيها السيد لاتعرف الحياء.

كان إبراهيم جدك البعيد حسبما تزعم، و إن كنا فى شك عظيم فى ذلك لو ناقشناك، لكنا على يقين فى عدم نسبتك إليه دون أن نناقشك، كان جدك هذا قد نزل مصر يستجدى القوت بعد مجاعة حلت ببلاد فلسطين، ونستمع معا إلى تراتيل التوراة إذ تقول : «وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديدا. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك، قولى أنك أختى **ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك/** تكوين ١٢/ ١٠ ـ ١٣»

ثم نفهم من بقية الرواية أن ادعاء سارة الأخوة لإبراهيم لم يكن اتقاء إبراهيم للقتل، إنما لسبب آخر ترويه التوراة تذكرة للعالمين إذ تقول : «فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. **فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد و إماء وإتن وجمال.** فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة إبرام، فدعا فرعون إبرام وقال : ماهذا الذى صنعت بى لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى. والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته **وكل ماكان له/** تكوين ـ١٢/ ١٠ ـ ٢٠».

سنفهم الآن المراد والمقصود عندما نعلم أن ذات الأمر قد تم تدبيره للملك أبيمالك، فنقرأ : «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة/ تكوين ٢٠/ ١، ٢» وكانت النتيجة «فأخذ أبيمالك **غنما وبقرا وعبيدا و إماء وأعطاها لإبراهيم** ورد إليه سارة امرأته وقال أبيمالك هوذا أرضى قدامك اسكن فى ماحسن فى عينيك وقال لسارة : **إنى قد أعطيت أخيك ألفا من الفضة**/ تكوين ٢٠/ ١٤ ـ ١٦». وتكررت القصة ذاتها مع ولده إسحق بحذافيرها لكن لنسمع هنا القول : «فذهب إسحق إلى أبيمالك **ملك الفلسطينيين**، إلى جرار/ تكوين ٢٦/ ٢». التوراة هنا تنتهى إلى تعريف أبيمالك بأنه ملك الفلسطينيين، لقد كان الفلسطينيون قد استقروا فى الأرض وأقاموا فيها ممالك أدت بالنبى صفنيا إلى مناداتها فى سفره «**ياكنعان ياأرض الفلسطينيين**/ صفنيا ٢/ ٥». حيث هناك زعم تروجه جامعات العالم يقول: إن الفلسطينيين ـ أو كما ذكرهم التاريخ (البلست) ـ قد قدموا من كريت إلى فلسطين، فحتى لو كان ذلك هو الحادث تاريخيا فإن التوراة تقول بمجيء أرومة العبريين إلى بلاد كنعان وقد عرفت باسم أرض الفلسطينيين، لقد كان البلست قد أقاموا فى فلسطين زمنا كافيا قبل ذلك ليمنحها اسم الفلسطينيين.

ومع منظومة أخلاقية كتلك المنظومة التى حدثتنا عنها التوراة لايكون هناك مجال للقول بنقاء الجنس الإسرائيلى مع هذه البداية التى لاتبشر بخير، ناهيك عن كون هذا النقاء الجنسى ظلما لطبيعة الإنسان فمن المستحيل أن تقنعنا بنقاء هذا السلسال خلال ألوف السنين، وأن البذرة الإسرائيلية ظلت تتناقل فى أرحام الطاهرات حتى وصلت يهود اليوم. لأنه من جانب آخر هناك مغالطة تتم بموجبها المطابقة بين مفهوم الدين اليهودى وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلى، بحيث يبدو وفق تلك المغالطة أن يهودى الفلاشا الزنجى ويهودى روسيا الأحمر ويهودى المنطقة السامى ويهودى أمريكا المهجن، هم جميعا يعودون بالنسب إلى جدهم يعقوب إسرائيل.

فنحن كبشر لانستطيع التسليم بلون خارق من العفاف الجنسى المنقطع النظير عند بنات يهود، حتى تحمل البذرة الإسرائيلية خالصة، ولن نضرب هنا أمثلة ضربناها كثيرا فى أعمالنا المنشورة عما يموج به الكتاب المقدس من صخب جنسى وصهيل شبقى لبنات

صهيون على الشباب الفتى لأمم غير إسرائيليـة. (انظر مثلا سفر إرميا ٣٠، ٥٠، ١٣ وحزقيال ١٦.. الخ). ولهذا السبب تحديدا وضعت دولة إسرائيل قانونا لايعتبر الفرد بموجبه يهوديا إلا إذا كانت أمه يهودية.

لكن المشكلة أننا إذا طبقنا هذا المبدأ على مـؤسس دولة إسرائيل الملك داود، ثم على أشهر ملـوكهم الملـك سليمان، فسنجـد الأول حفيد راعـوث، ولم تكـن لاإسرائيليـة جنسا ولايهودية دينا إنمـا كانت موآبية، أما سليمـان فقد رزق به أبوه داود من امرأة حيثيـة لا يهودية ولاإسرائيليـة. وطبقا للقانـون و إعمالا لبنوده فإن كليهمـا لم يكن يهـوديا ولاإسرائيليـا و إنما فلسطينيان لأن الأمهات فلسطينيـات، وتكون المؤسسة الكبـرى من البدء دولة فلسطينيـة تـم سلبها لصالح يهودا.

يبدو هكـذا أنه لـم تصبـح لدى السيد نتـانياهـو أية وثيقة تعطيـه حقوقا فـى الأرض حتى أساطيره لاتسعفه، وبالطبع لن نقبل منه الوثيقـة التأسيسية فلدينا منها الأقوى والأكبر والأكثر عددا ونفيرا.


١٢
حدود الاجتهاد
(مناظرة
تليفزيونية) - ١

مناظرة تمت على شبكة تليفزيون الأوربت الفضائية بين سيد القمني ود.عبد الصبور مرزوق بتاريخ ٣/ ١١/ ١٩٩٦ .. والبرنامج تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يقدم على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونياً.

حدود الاجتهاد

(مناظرة تليفزيونية) ـ ١

المقدم : مساء الخير، واضح أن قضية الأمس والحوار الذى دار بالأمس مع المفكر الأستاذ نصر حامد أبو زيد كان بالفعل قضية خطيرة جدا، نصر حامد أبو زيد الذى أثاره من جدل ومن نقاش حتى الآن لم يهدأ، ومازالت المكالمات ومازالت الفاكسات تتوالى علينا من أجل مناقشة ماقال مابين مؤيد ومابين معارض وبين مستفسر، أنا وصلنى منه اليوم فاكس من حيث هو موجود فى أوروبا أحب أقرأه عليكم ومن حقه علينا أن نعطيه فرصته كى يقول كلمته الأخيرة فى هذا الأمر.

يقول : الأستاذ فلان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فى نهاية البرنامج وبالأمس طلبتم منى أن أرد فى ثلاثين ثانية إن كنت أقبل مناقشة من أخرج القضية من إطار البحث العلمى فى الجامعة حيث واجه الفكر بالفكر والاجتهاد باجتهاد مقابل إلى ساحات المحاكم حيث لايمكن حسم الخلافات الفكرية إلا بإجبار الرأى على الخضوع للرأى الآخر وفى مدة الثلاثين ثانية المتاحة قلت إنى لاأقبل مناقشة شخص أعتبره عدوا، وحتى لايساء فهمى أود أن أوضح للمشاهدين أنى قصدت بالعدو من اتخذ منى ومن اجتهاداتى موقفا مسبقا دون مناقشة علمية موضوعية، بل وحتى فى كثير من الأحيان دون قراءة مؤلفاتى، وأكثر من ذلك نقل الأمر كله من خلاف الفكر إلى منازعة قضائية انتهك من خلالها حرمة حياتى العائلية واتخذ التفريق بينى وبين زوجتى وسيلة للإرهاب الفكرى.

وهو مايفضى دائما إلى غلق باب الاجتهاد نهائيا. أما غير ذلك فإننى مستعد لمناقشة كل من يخالفنى فى الرأى مناقشة علمية موضوعية هادئة. فأنا من أشد المتمسكين بالمبدأ الفقهى العظيم رأيى صحيح يحتمل الخطأ ورأى خصمى خطأ يحتمل الصواب وأنا فى النهاية لاأبغى من اجتهاداتى الفكرية سوى وجه الله سبحانه وتعالى والدفاع عن نصرة وجه الاسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

«نصر حامد أبو زيد»

إذن الأستاذ الدكتـور نصر حامد أبـوزيد على استعداد لمنـاقشة فكرية والـدخول فى أى مناقشة مـع من يريد الـدخول فى هذه المنـاظرة معه، وأوربت كـالعادة تؤمن بـالرأى والرأى الآخر وهى ستفعل كل مافى جهدها من خلال هذا البرنامج أن تتاح فرصة هذه المناقشة.

تحقيقا لهذا المبدأ، الرأى والرأى الآخر اليوم يستمر النقاش فى هذا الموضوع ولكن ننقله إلى درجة أخرى وهى حق الاجتهاد وحدود الاجتهـاد. نحن نسأل : هل أغلق باب الاجتهاد؟ ماهـو الاجتهاد؟ ومـاهى حـدوده؟ هل هنـاك قضايـا مسلمة لايمكـن الاجتهاد فيهـا؟ وهذه القضايا التى تعتبر مسلمة واجتهد فيها فهل يحـق للآخر إذا كان ذلك خطأ أن يعيد فتح باب النقاش فيها؟ الإسـلام دين الحرية وأيضـا دين العقل ولكن هـل هناك حدود لهذه الحـرية وضوابـط لهذا العقل؟ القضيـة بالفعل معقـدة وليست بسيطة. وتحتـاج منا إلى طـرح الرأى والرأى الآخر.

معى فى الأستوديـو اليوم طرفان يعبر كل منهمـا عن وجهة نظر وعن مدرسـة من التفكير.. معنا فى الأستوديـو الدكتور عبد الصبور مرزوق رئيـس رابطة العالـم الإسلامى سـابقا والمفكر الإسلامى المعـروف ورئيس المجلس الأعلى للدعـوة الإسلامية وهو رجل لـه آراؤه الواضحة والمعروفة وأحد الذين يؤمنون بالحوار، الحوار علـى كل اتجاهاته، لكن هناك أيضا نقاطا له فيها وجهة نظر وأيضـا معنا فى الأستوديو صاحـب هذا الكتاب (يرفع الكتاب أمـام الكاميرا) الدكتور سيـد القمنى صاحب كتـاب الحزب الهاشمى وتأسيـس الدولة الإسلاميـة وهذا هو أكثر الكتـب التى أثـارت جدلا فـى مصر فـى الآونة الأخيـرة بالنسبـة للفكر الإسـلامى وهـذا الكتاب أثـار جدلا يكاد يكـون أكثر من كتب الـدكتور نصر أبـو زيد، وصف الأستـاذ المفكر فهمى هـويدى، وصف الأستـاذ الدكتور سيد محمـود القمنى بأنـه أسوأ من سلمـان رشدى وأكثـر خطرا. إذن نحـن معنا فـى الأستوديـو رجل يعبـر عـن مدرسـة من التفكيـر الإسلامـى التقليدى المتعارف عليه، وآخـر يعتبر من الذين يجتهدون فى التفكيـر، وهذا الاجتهاد وصف من بعض المفكـرين الإسلاميين بأنـه أخطر من سلمان رشدى. إذن علينـا أن نعمل الجدل والحوار فـى هذه الحلقة حتـى نجيب عن الأسئلـة هل أغلق بـاب الاجتهاد؟ ماهـو الاجتهاد ؟ماهى حـدوده؟ تسمحوا لى نبدأ هذا الحوار.. أبـدأ مع أستاذنا الدكتور عبـد الصبور، أستاذ عبد الصبور ماهو الاجتهاد؟

د. عبد الصبور مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم الاجتهاد فى مفهومه العميق والصحيح هو إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة فيما ليس فيه نص لايقبل التأويل، هذا الاجتهاد يعتبر إحدى القسمات الأساسية فى الفكر الإسلامى منذ نزول القرآن حتى هذه اللحظة. لأن القرآن ليس كتاب تشريع فقط وليس كتاب هداية فقط ولكنه دستور الأساس بالنسبة للإسلام ككل وللدولة الاسلامية والمجتمع الإسلامى.

القرآن كما نعلم يحترم العقل احتراما كاملا ويدعو إلى إعماله فى كل الاتجاهات، يدعو الإنسان إلى التفكير وإلى النظر وإلى السير فى الأرض.. كما هو معروف ومن ثم يعتبر إعمال العقل الذى هو الاجتهاد فيما لانص له قسمة من قسمات الإسلام الحضارية التى تحسب دائما لهذا الفكر الإسلامى وحدد هذا الاجتهاد : أولا هذا الاجتهاد يبدأ منذ التعامل مع النص، فيه مقولة بتقول أنه لااجتهاد مع النص، أنا باعتقد أن هناك اجتهادا مع النص فى فهم النص وفى محاولة الوقوف على مرامى وأهداف وأعراض النص التى تنتهى أو تصل فى النهاية بالمجتهد إلى أن يلتمس أو يتلمس جوهر الإسلام التى قد لايكفى النص فى عرضها أو فى توضيحها للقارىء.

الحدود التى يتحرك فيها الاجتهاد نأخذها ببساطة شديدة من مقولة سيدنا رسول الله ﷺ لما أراد أن يرسل القاضى المعروف إلى اليمن ــ لاأتذكر الاسم الآن غاب عنى ـ هو معروف، فقال له بماذا تقضى؟ قال: أقضى بكتاب الله. فقال: إن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى. فربت الرسول على كتفه وهنا حمد الله أن يكون فى الأمة المسلمة من يسلك مثل هذا السلوك. إذن فتح باب الاجتهاد.

مقدم البرنامج : إذن فتح باب الاجتهاد، لكن فعلا هل كان من الممكن أن يذهب هذا القاضى إلى اليمن ويقول أن الخمر حلال.

د. عبد الصبور مرزوق : اسمه معاذ بن جبل.

مقدم البرنامج : هل كان من حق معاذ بن جبل أن يحلل الخمر يحلل ماحرم الله ويحرم ماحلل الله، والاثنين قضيتين مشكلة كبيرة.

د. عبد الصبور : لهذا السبب أنا قلت فى البداية أنه إعمال العقل فيما ليس فيه نص

قاطع لايجوز تجاوزه واحنا لما نقول نص لايجوز تجاوزه لايعنى هذا الحجر على العقل أو التفكير لأنى قلت أيضا أن هناك مساحة لإعمال العقل حتى فى النص نفسه. فى محاولة فهم النص الفهم الصحيح بما يتفق مع روح الإسلام.

مقدم البرنامج : د. عبد الصبور تسمح لى أسأل الدكتور سيد القمنى ماهو تعريفك للاجتهاد من وجهة نظرك؟

سيد القمنى : أخى الكريم ليس هناك خلاف على ماقاله الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق، هو إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة (فيما ليس فيه نص يقبل التأويل/ تحتاج إلى وقفة) بمعنى أن الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق قال إنه يجوز الاجتهاد مع النص للوقوف على مراجعة لتلمس جوهر الإسلام. حين لايكفى النص أن يكون شارحا موضحا شاملا فى وقائعه وتفاصيله، بمعنى أنه قد أعطى إعمومات كلية ولنا أن نجتهد فى الجزئيات، هذا إذا كان فهمى موافقا لما قاله الدكتور مرزوق.

الدكتور مرزوق: تمام الموافقة.

سيد القمنى : لكن ربما أخالف السياق العام للدكتور مرزوق لأنى فهمت من حديثه الطيب أن باب الاجتهاد لم يغلق أبدا حتى الآن ، وأنه منذ البدء وضعت حدود الاجتهاد منذ زمن صاحب الدعوة نفسه عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن فى القصة التى سمعناها الآن. لكن من وجهة نظرى باعتبارى أعايش هذا العصر وأقرأ أيضا فى نصوص دينى والاجتهادات السابقة وكتب السير والأخبار أجد هناك ماتمكن الإنسان عن الوصول إليه بعد كفاح ونضال طويل، حتى وصل إلى تأسيس مبادىء لحرياته، فهل هذه الحريات اليوم مسموح بها فى ضوء مسألة حدود الاجتهاد أن له حدودا بعينها. مثلا (لااجتهاد مع النص) .. الخليفة عمر اجتهد مع النص.

د. مرزوق : نعم ..

سيد القمنى : واجتهد إلى حد أتصور أنه لو أن أحدا منا حاوله اليوم لحوكم وطورد وفرق عن زوجته وربما عن مجتمعه وبنيه بالنفى، أى أن هناك مجموعة من التحريمات تلحق هذا الاجتهاد وتكبحه عن ممارسة البحث الحقيقى من أجل صالح البلاد والعباد والدين.

ونموذجا لذلك شرط أو قيد الاجتهاد مع النص هناك قاعدة أخرى قننت تكبح الحريات

فيما يتعلق بالتعامل مع النص الدينى أيضا، مثل القاعدة التى تقول العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

مقدم البرنامج : ماذا تعنى هذه القاعدة لبعض المشاهدين غير المثقفين وأنا منهم، ماذا تعنى هذه العبارة.

سيد القمنى : هذه تعنى ببساطة أنك تستطيع فى أى لحظة تصادفك إشكالية آنية الآن أى تجد لها فى لفظ الكتاب الكريم مايدعمها أو ينفيها بغض النظر عن كون هذا اللفظ قد قيل فى أى مناسبة وماذا كان سعيه الحقيقى الذى حدث زمن صاحب الدعوة وزمن تواتر الوحى.

مقدم البرنامج : هنا يمكن الرد عليك من العامة بأن القرآن الكريم صالح لكل مكان وزمان. مارأيك يادكتور عبد الصبور.

د. عبد الصبور : أنا سعيد أنك قلت القرآن لكل زمان ومكان لأن هذا جوهر الموضوع الذى تفضل به الأخ الأستاذ الدكتور سيد وهو قضية أسباب النزول : هل النصوص القرآنية التى نزلت فى مناسبات معينة يتوقف الحكم على زمنها ولا يصلح أن يستمر فى مجتمعنا المعاصر أم لا؟ والأصوليون قالوا هذه القاعدة : العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب. أيا كان السبب الذى نزلت معه الآية، لكن الحكم قابل للاستمرار والصلاحية عبر الزمان والمكان، وهذا موضوع يحتاج توضيحا. هناك مبدأ لايمكن إغفاله فيما يتعلق برسالة محمد ﷺ وهل هى كغيرها من الرسالات السابقة؟ خاصة ببيئة معينة، بناس معينين أوقبيلة معينة؟ مثلما قال القرآن ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا**﴾ ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالح..**﴾ وهكذا يعنى هنا الرسالة مختصة بقضية فلان أو علان، لكن لما جاء الإسلام خاطب الرسول قائلا : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾، ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾، خرج بالرسالة من الإطار المحدود، لاعرب ولاعجم ولاقرشيين إلى العالمية. ومعنى الخروج إلى العالمية أن الرسالة بتشريعها وجوهرها وفلسفتها مستمرة عبر الزمان والمكان، إذن هى قابلة للتطور ويجب أن تكون قابلة للتطور والتغيير عبر الزمان والمكان وتلائم المتغيرات التى تحدث فى الأزمة المختلفة والأمكنة المتغيرة. لذلك سنجد أن الوقوف عند سبب النزول لأن الحكم ينبغى أن يمتد ولاسيما فى عموم الرسالة، وهذا مادفع الإمام الشافعى لكى يغير

حكمه بتغير المكان الذى يعيش فيه، فعندما جاء إلى مصر غير أحكامه وآراءه بتغير المجتمع الذى يعيش فيه. وهكذا فإن ماتفضل الدكتور سيد وأشار إليه فى هذه القضية فإن ربط الحكم بسبب النزول يلغى عموم الرسالة وعالميتها وتجددها، ثم هناك أمر مهم فى هذا الجانب أن التعلق بهذا تعلق ضعيف، لماذا؟ لأن حصر الآيات وأسباب النزول كما عند الواحدى أو فيما كتبه السيوطى فى اللباب ستجد النسبة كلها عند الاثنين لاتزيد على ٧٪ عند كليهما، فالنسبة بالفرض ١٤٪ إذن بذلك أنا أهدر ٨٦٪ من الآيات وأكاد أنحيها عن التأثير فى حياة الناس، فهذا الكلام يحتاج إلى وقفة جيدة ومراجعة مقولة النص هو الحكم.

مقدم البرنامج : بدون لف بدون دوران، دكتور سيد من الذى يقف ضد الاجتهاد من وجهة نظرك؟ الان!

سيد القمنى : كل المتنفعين والانتهازيين الذين يلعبون بحياتنا وبمصيرنا وبمستقبل أولادنا وبالدين نفسه. كيف؟ لماذا أقول أننا علينا أن نعرف الأسباب الحقيقية للنص القرآنى الكريم وللسنة النبوية المطهرة؟ نحن عانينا من انتهازية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» طويلا عندما نريد أن نبنى مجتمعا اشتراكيا نقول إن النص نص اشتراكى؟! ونقتطع منه ومن سياقه الداخلى ومن سياقه التاريخى ومن سببه الحقيقى، لنأخذ به لنرضى الجالسين على كراسى الحكم فى هذه اللحظة. ويتغير الرجال الكبار وتتغير مؤسسة الدولة وشكلها ودستورها، فيأتى نظام الاقتصاد المفتوح والحر فنجد.. (مقاطعة من الأستوديو)

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : قبل أن نبدأ برنامجنا بقليل كان على إحدى القنوات الفضائية الشيخ يوسف القرضاوى وهو عالم إسلامى جليل وقال إنه كان يتمنى أن يكون مشاركا فى حلقة الأمس التى أجريناها مع نصر حامد أبوزيد. وهاهو مفكر إسلامى موجود، والدكتور نصر حامد أبوزيد قال لنا بالفاكس أنه مستعد لهذه المبارزة الفكرية مع هؤلاء الذين يمثلون الفكر الآخر...

معنا فى الأستوديو اليوم الدكتور عبد الصبور مرزوق والدكتور سيد القمنى والمناقشة الآن حول سؤال كنت أسأله للدكتور سيد سؤالا واضحا : من الذى يقف ضد فتح باب الاجتهاد؟

فقال :المنتفعون ووصف منهم بعض الحكام.. اتفضل أكمل..

سيد القمنى : ليس بهذا الشكل الذى تقول : نحن نقول : القاعدة «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب» يتم بواسطتها استخدام كلام الله فى غير موضعه أحيانا ولأغراض انتهازية دائما، فنبنى الاشتراكية بآيات، ونفتح البلد على الاقتصاد الحر بآيات أخرى، وإنك لتجد أن بعض الذين أدلوا هنا وأدلوا هناك من رجال الدين بالمؤيدات الشرعية من الكتاب ومن السنة يكادوا يكونوا هم هم نفس الأشخاص، وفى هذا ضرر بليغ بالدنيا وبالدين. والأمثلة كثيرة على هذا، صدام حسين احتل بلدا شقيقا هو الكويت، واستقطب فى عاصمته بغداد عددا لاحصر له من المشايخ المشهود لهم بالكفاءة من العالم الاسلامى قاموا يؤيدون احتلاله للكويت بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. فى الوقت نفسه عقد مؤتمر فى مكة ليرد على ذلك. فكيف يمكن أن نمتهن النص القرآنى إلى هذا الحد، ونعامله بهذه الانتهازية.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : هناك مشاهد هو الأستاذ عبد العزيز النفيسى بيقول ــ وكان الأستاذ صلاح منتصر قد أشار إلى ذلك ــ بيقول: كيف تتم المقارنة مابين مؤتمر يعقد فى مكة منبع الوحى بحضور كبار العلماء من العالم الاسلامى، وبين مؤتمر إسلامى إذا صح التعبير أقيم فى بغداد يحلل ماقام به صدام ضد الكويت بدعوة من صدام حسين الذى يتبنى وينتمى إلى حزب البعث الاشتراكى الذى تنص فيه التوصية الرابعة من مقررات المؤتمر القومى لحزب البعث : يعتبر المؤتمر القومى الرجعية الدينية أحد المخاطر الأساسية التى تهدد الانطلاقة التقدمية.. إلى آخره..

سيد القمنى : نحن ياأخى لسنا فى مقام تقييم هذا رجل وطنى، هذا حاكم عميل، هذا ليس مجال الكلام، نحن نتحدث عن علاقة حرية التفكير بالعقيدة والحدود المسموح بها، وعلى أى درجة يجب أن نجتهد.. وعند أى درجة يجب أن نتوقف؟ هذا هو موضوعنا، فنحن نضرب مثلا. والمكان ليس شرطا ياسيدى الكريم لعقد مؤتمر كى يكون هذا المؤتمر مبروكا أم لا؟! إطلاقا (يوافق د. مرزوق بقول : نعم، نعم) وإنما صيغة العمل والأهداف المرجوة منه هى التى تحدد مدى نفعه وقيمته وماذا سيقدم للناس؟

ما أريد أن أصل إليه هو أننا نستخدم بهذه القاعدة نصوص الدين استخداما انتهازيا



يضربنا ويضر بديننا وبخصوص الاجتهاد علينا أن نتذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اجتهد مع النص. نحن نريد أن نطمئن إلى طوية الفؤاد، يجتهد نصر أبو زيد فيفرق عن زوجته ويكفر، يقتل فرج فودة، يضرب نجيب محفوظ بسكين، أنا أصبح مثل سلمان رشدى أو أسوأ منه. إلى آخره. مثل هذا...

مقدم البرنامج : (مقاطعا): أنصار المدرسة الأخرى يقولون أنكم تعديتم المسموح وممكن فى التفكير الإسلامى. وأنكم اتخذتم هذه المواقف بغرض الربح التجارى، بمواقف متشددة، مواقف خارجة على المنطق، من أجل إثارة أكبر قدر من الجدل، وذلك مثل الاتهام الموجه إليك بأنك فى كتاب الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، تتحدث عن أن ماحدث فى بداية عهد الرسول ﷺ أنه كان صراع السلطة، وأن عمه أراد أن يوصله إلى الحكم من أجل ثأر قديم بينه وبين القبائل الأخرى.

سيد القمنى : هذا تفسير أسقط على كتابى.

.. سيدى الكريم أنا قدمت فى هذا الكتاب قراءة للواقع الموضوعى فى جزيرة العرب، للمجتمع وهو يتحرك للاقتصاد وهو يفعل، للسياسى.. لكذا وكذا، وقدمت قراءة لصاحب الدعوة الإنسان. قيل إن هذا محاولة للقول إن الدعوة الإسلامية مجرد حركة سياسية ابتغت بها القبيلة أو العشيرة الهاشمية الاستيلاء على مقدرات الحجاز وحكمه. ياأخى الكريم أنا قلت ماحدث لأن هذا ماحدث بالفعل، وفى الواقع نحن طول الوقت نقرأ القراءات المعتادة فلنفتح نوافذ على الواقع الموضوعى فى قراءتنا، ثم إن ذلك لايتعارض ولايتناقض ولايتضارب مع الناموس الإلهى. الله سبحانه وتعالى بكماله لايتناقض ونفسه. إذن فى هذه الحالة عندما يرسل رسولاً محملاً برسالة، لابد أن يهيىء له الواقع الأرضى ويضبط حركات هذا الواقع وسكناته كى تلتقى مع الرسالة المرجوة كى نفهمها وكى نستقبلها وكى نتفاعل معها، فهذا أمر لايتعارض.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : يا د. عبدالصبور مرزوق.. الدكتور سيد القمنى تعامل فى كتابه مع الرسول كإنسان كما ذكر وتفضل. هل حينما يتحدث عنه كإنسان فقط فهل هو يجرده من نبوته؟ ويجرده من كونه شخصا غير عادى تلقى رسالة من السماء؟

د. عبدالصبور مرزوق: هناك مسألة حول ما قاله الدكتور سيد عن المنتفعين

والانتهازيين، وعن أولئك الذين يطوعون أى نص للحكام، وأشار إلى مؤتمر بغداد وما يتصل به. الحقيقة أنا عشت هذه التجربة وكنت أحد المشاركين فى المؤتمر الذى أشار إليه الدكتور سيد، وفى لحظة كنت أقول كلمتى بالمؤتمر، فإذا بصدام حسين يدخل، تصفيق فى القاعة، وتوقفت إلى أن دخل.. قلت ننتهز فرصة وجودك معنا هنا ـ الكلام ده مثبت ومسجل وظل تليفزيون و إذاعة بغداد يذيعانه ـ لكن أحب أقولك على حاجات: (الكلام موجه من فضيلة الدكتور الشيخ لصدام حسين) لقد قلت أنك ستحرق نصف إسرائيل إذا اعتدت على أى بلد عربى، وأتمنى لو تحرقها كلها إن استطعت، لكن فى تقديرى أن الأيديولوجيا التى ينتهجها حزب البعث لايمكن أن تفى بهذا. و إذا أردت أن تصل إلى قوة تساعدك على إسرائيل لابد أن تنفتح على الإسلام، وأن يتغير فكرك كرئيس، والأمر الثانى أن العمق البشرى للعراق جميعا لايفى أبداً بهذه الطموحات لأن إسرائيل قوة ضخمة، ولايمكن أن يقف كفؤا لها سوى القوة الإسلامية، وقلت له: أنا مش عايز أتكلم اتفضل أنت فالناس بتحب تسمعك.

ونزلت وجلست فى مكانى بين الشيخ الغزالى رحمة الله عليه وأخينا الدكتور سيد طنطاوى الذى أصبح فيما بعد شيخا للأزهر، و إذا بصدام حسين يقول: أنا سعيد أنى بأسمع هذا الكلام، وأحب أقول لأخونا اللى اتكلم إنى أنا منذ بدأت أغير اتجاهاتى وبدأت أتجه للتعبير عن القومية كانت لى متغيرات و إنى أصبحت أتجه الاتجاه الإسلامى، وأصبحت أتعامل مع الرؤية اللى أنت اتكلمت عنها تعامل آخر باعتبارها هى طريق الخلاص، والدليل على هذا ـ كما قال صدام حسين ـ إن أنا بدأت أفرج عن الأسرى الإيرانيين وبافتح الباب الآن لنوع من التسوية.. وأثناء كلامه قام من خلفى شخص عراقى وقال له: ياسيادة الرفيق.. كذا وكذا.. فإذا بصدام حسين يرفضها ويقول له: كلمة رفيق دى كانت زمان، نحن الآن نتكلم باسم الإسلام، وأنت ما سمعتش أخونا بيقول إيه؟ يقصد الكلام الذى قلته ـ **مقدم البرنامج (مقاطعا)** : هل الإسلام هو تغيير مسميات، ويكتب على العلم..

سيد القمنى : الله أكبر.

مقدم البرنامج: يكتب على العلم الله أكبر، وهذه كلها شكليات.

د. عبدالصبور : أصل الأخ الدكتور سيد قال إن هناك بعض الانتهازيين، وإذا كان من يصفهم بالانتهازيين فلايجب أن يتم تحميل الإسلام وزرهم على الإطلاق.. وهؤلاء موجودون فى كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنا بعد أزمة الخليج كان لى كتاب عنها (الحقيقة الغائبة فى أزمة الخليج)، وأعطيته للشيخ الغزالى قبل أن أذهب إلى المغرب فى ندوة، ووقفت فيه أمام ما أشار إليه الأخ الدكتور سيد، وقلت إن الإسلام هو الذى دفع الفاتورة فى الحالتين لأن كليهما كما قال الدكتور سيد يستخدم النص. إما مع صدام أو ضد صدام. لكن هذه ليست القضية..

مقدم البرنامج (مقاطعا): نحن الآن نناقش ما قاله الدكتور سيد، وأنه تحدث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كإنسان، هل يعنى هذا أنه سحب منه نبوته.

د. عبدالصبور مرزوق: أنا لم أقرأ ما كتب الدكتور سيد، لكن إذا كان كما قيل عنه، وأنه يجعل النبوة والرسالة كلها انعكاسا لواقع سياسى أو واقع اقتصادى أو قبلى، فقطعا يكون هناك شىء لايمكن الموافقة عليه على الإطلاق. لأن الرسالة وحى غير مرتبطة بمتغيرات الواقع القبلى أو الجاهلى لأسرة الرسول ﷺ.

مقدم البرنامج (موجها كلامه إلى د. سيد) : حضرتك عندما كتبت تحدثت عن الرسالة باعتبارها وحيا؟

سيد القمنى : ياسيدى الكريم، لايستطيع أحد هنا أن يكتب كتابا منشوراً ينكر فيه وحيا أو نبوة، لسبب بسيط هو أننا فى النهاية نريد أن نصل إلى غاية نتفق عليها فى قراءة النصوص المقدسة. لأن سر تلك الخلافات يعود إلى أن هناك خلافا تأسيسيا فى قراءة لفظ القرآن الكريم وفهمه. نفس الأمر الذى يقع مع أى نص حتى مع النص الإنسانى. مثلا نصوص نصر حامد أبوزيد يختلف عليها، أنا شخصيا أرى أنه رجل شديد الحرص على الإسلام مدافع عن وطنه وعن مستقبل هذه الأمة. هناك آخرون رأوه بشكل آخر. المشكلة أن كلام نصر شىء، وكلام المقدس أمر آخر.. لماذا؟ هذا كلام بشر، كلام إنسان، أما ذلك فكلام قدسى، لذلك نتحرى الحذر والحيطة فى التعامل معه، لذلك يشغلنى أن أتحدث عن الحدود الموضوعة للاجتهاد التى أعتقد أنها تقف بينى وبين حرية التفكير والتعامل مع هذا النص. بحيث إن هؤلاء الانتهازيين وأنا لاأقول أن الكل انتهازيون.

مقدم البرنامج (مقاطعا): ماهى شروط الذى يجتهد؟

د. عبدالصبور مرزوق: الكفاءة العلمية رقم واحد، وأن يكون المتقدم للاجتهاد دارساً دراسة جيدة للقرآن ولتفسيراته ولكل ماكتب حوله، ويمتلك المقدرة العلمية التى يستطيع بها أن يتعامل مع نصوص القرآن، مع المذكرات الشارحة كالسنة النبوية بحيث يخرج منها فى النهاية إلى فهم معطيات الرسالة، وأمر آخر شخصى أقترحه، أن يكون المجتهد لايستخدم اجتهاده مطلقا لغاية دنيوية، وكانت من ممارسات من تعرضوا للاجتهاد، وبذلك نضمن أن الاجتهاد غير موجه لأى غاية شخصية أو قبلية أو حزبية.

مقدم البرنامج : إذا اجتهد وأخطأ ماهى العقوبات؟

د. عبدالصبور : المعروف شرعا أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وهذا يعطى علامة وإعلانا كبيرا عن أن الاجتهاد فى الإسلام مطلوب ومرغوب ودائم حتى لو أخطأ ماحدش له عنده حاجة، لكن فى قضية نصر أبوزيد كانت القضية فى البداية قضية ترقية جامعية ومراجعة بحوث ترقية، واللجنة قالت إن البحوث لاترقى إلى مستوى الترقية ولاتؤهل الأستاذ الدكتور نصر أبوزيد للترقية. تبقى القضية بذلك قضية جانبية، لكن من نقل القضية إلى مستوى آخر بعض الإخوة الذين هم فى تقديرى لايملكون الرؤية السليمة ولا الحس السليم وجعلوا منها قضية كفروا بموجبها نصر أبوزيد وفرقوا بينه وبين زوجته ونقلوها من الجامعة إلى المحاكم. أنا قرأت عن نصر أبوزيد فى إحدى الصحف أنه يعلن إسلامه وتمسكه بكل أركانه ولايقول أنه كافر، وأنا لم أقرأ كتبه، فقط أقرأ الآن نقد الخطاب الدينى على حلقات بصحيفة العربى، لكن اجتهاد الدكتور نصر اجتهاد بشرى كما قال الدكتور سيد، ويمكن الرد عليه. والأمر يختلف مع النص المقدس.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : قضية اليوم هى حدود الاجتهاد فى الإسلام، وهذه القضية بالغة الخطورة والأهمية، لذلك معنا الآن فى الأستوديو الدكتور عبدالصبور مرزوق الباحث الإسلامى المعروف والدكتور سيد القمنى وهو باحث فى شئون الأديان وأصدر عدة كتب فى تاريخ الأديان أثارت جدلا واسعا منها سبعة كتب هى مثار جدل كبير حولها. لو تسمحوا لى بتصحيح، فالمؤتمر الذى كان يتحدث عنه الشيخ مرزوق ليس هو ماتحدث عنه الدكتور

القمني، لأن الذى تحدث عنه الدكتور مرزوق كان قبل غزو الكويت وليس المؤتمر الذى حدث بعد غزو الكويت، فالأول كان بخصوص حرب الخليج بين العراق وإيران، أما الثانى فكان بعد غزو صدام للكويت وكان فى بغداد، ثم كان هناك آخر فى مكة تسمحوا لى نأخذ الاتصالات الهاتفية.

مين معانا على الخط ؟ ألو، الأستاذ فيصل المرزوقى، اتفضل يا أخ فيصل.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : فى الحقيقة عندى تعقيب على حلقة الأمس التى جرت مع نصر أبوزيد، فأنا أعتقد أن مقدم البرنامج يستغل البرنامج لمواضيع مثل الجنس وغيره للإثارة فقط. وفى الحقيقة إن هذا البرنامج يستغل لفرض وجهات نظر خاصة بمقدم البرنامج ولايقدم معلومة تفيد الناس.

مقدم البرنامج : شكراً، تحب تضيف حجة ثانية؟

المشاهد (فيصل المرزوقى) : فى حلقة الأمس التى خصصت للدفاع عن المرتد نصر أبوزيد، وهو مرتد بحكم المحكمة وليست الصفة من عندى. حاولتم فيها جذب التعاطف مع هذا المرتد. ياأخى هل وصل بنا الأمر لنهون من حكم محكمة وندافع عن واحد حكم على نفسه بهذا الحكم؟

مقدم البرنامج : وإذا المحكمة طلعته براءة بعد كده؟ موقفك هيكون إيه؟!

المشاهد (فيصل المرزوقى) : أى محكمة تطلعه براءة؟ نحن نتكلم عن حكم صدر وانتهى.

مقدم البرنامج : لألم ينته، هناك عرض آخر على القضاء.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : نحن نتكلم عن..

مقدم البرنامج مقاطعا: يعنى حضرتك تريد محاكمته شرعيا ولا قانونيا.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : ياأخى نحن لو حاكمناه شرعيا فأنت تعرف مصير أمثال هؤلاء، لكن نحن نتكلم عن القوانين الوضعية التى تلجأون لها أنتم، هى التى حكمت عليه بالكفر.. إذا لجأ الناس للمحكمة اعتبرتموهم متآمرين، وإذا لجأوا للقوة اعتبرتموهم متطرفين.

وكمان الأخ الذى بجوارك هذا من شوية يخلط الأوراق بين ما فعله صدام وما فعله نصر أبوزيد الذى تلاعب بنصوص قرآنية وأعتقد أنه لامجال للمقارنة بين الاثنين، لأن الأول تلاعب بمصائر الناس. أما الثانى الخطر فقد تلاعب بنصوص قرآنية ومحاولة تأويل على حسب ماتهوى نفسه.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : حضرتك قرأت كتبه؟

المشاهد (فيصل المرزوقى) : أنا لم أقرأ كتبه، أنا لا أحتاج لقراءة كتبه لأنه طرح أفكاره فى ندوة أمس، وهو من خلال كلامه لايدل على تمكنه مما يقول، وهناك نقطة أخرى حول من أخرج الموضوع من ترقية إلى خارج أسوار الجامعة، فى الحقيقة هو بنفسه الذى أخرج الموضوع عن الجامعة، عندما رفضت الجامعة ترقيته.

وهناك نقطة أخيرة: السؤال الذى يطرح نفسه وأطرحه أنا على المالكين للأوربت: فى برنامج بانوراما فى الـ «بى بى سى» العربية والذى تطرق للسعودية، استفز هذا البرنامج فيكم غيرتكم على الوطن السعودى، وتم إلغاء التعاقد معهم وتحملتم مشاكل كثيرة نتيجة لهذا الموقف. أما استقبال من أساء إلى كتاب الله وشكك فى عدالة الرحمن ومحاولة إضفاء التعاطف مع هذا المرتد، ألا يثير هذا فيكم غيرتكم على دينكم وعلى قرآنكم، أم أن الوطن أهم من الدين لديكم؟

مقدم البرنامج : حضرتك بتقرأ من ورقة؟

المشاهد (فيصل المرزوقى) : بغض النظر يعنى تريدنى أقرأ منين؟ وموقفك ياأستاذ عماد من حديث البى بى سى عن السعودية كان واضحا ووطنيا، لكن موقفك مع نصر أبوزيد..

مقدم البرنامج مقاطعاً : يعنى حضرتك شايف إن الموقفين متماثلان؟ والموضوعين واحد، يعنى حضرتك شايف أنك لما تناقش أحداً فى كتابه يعتبر فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقى) : أنا ما أناقش أى أحد فى كتابه يكون معقول، أنا لو أناقش يهوديا فأنا أتقبل هذا لأنى أعرف أنه عدو لنا، ونعرف أفكاره وأهدافه، لكن أن تستقبل فى برنامجك من حاول تأويل القرآن بما تهوى نفسه..

مقدم البرنامج : يعنى شايف حضرتك إنه مافيش مشكلة لو تناقش واحد يهودى، لكن مناقشة مسلم كتب عن الإسلام وأخطأ ويقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهذا فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقى) : لاحظ أنك أنت تدافع عنه الآن وتقول أخطأ، هو للآن لم يعترف بالخطأ، هو يصر على كلامه وحلقة الأمس لم تكن مواجهة، بالأمس كنت أمس أنت وضيفك صلاح منتصر مع المرتد. بدليل أنكم لم تعطوا فرصة للإخوان المشاهدين لمناقشته والرد عليه.

مقدم البرنامج : لأده فيه ناس تكلموا وطالبوا بأحكام أكثر قسوة كالقتل، واتهمه آخر أنه لايذكر اسم الله، واتهمه آخر أنه علمه ضعيف، والشريط موجود حضرتك، وميزة برامج التليفزيون أنها مسجلة.

المشاهد (المرزوقى): الجامعة هى التى أظهرت ضعفه وضعف كتاباته.

مقدم البرنامج : ماهو ياأخى الحوار مع الناس هو مايثبت القوة أو الضعف، ياسيدى أنت ليه عايز نشنق الناس قبل مانتكلم معاهم، نعطيهم الفرصة يتكلموا وبعدين نقول قويا أو ضعيفا.

المشاهد (المرزوقى): لما يتكلم فى أى فكرة أناقشه فيها، لكن عندما يتكلم عن القرآن فلااجتهاد مع نص ياأخى.

مقدم البرنامج : نترك للدكتور عبدالصبور يعقب وهل صحيح أنه حينما نجيب د.نصر نناقشه هنا فيه إساءة للإسلام. يادكتور عبدالصبور هل مناقشتنا للدكتور نصر فيها إساءة للإسلام، يعنى هل هذه المحطة التليفزيونية تعتبر محطة ضد الإسلام أو قناة غير إسلامية إذا ناقشت أحداً فى أفكاره؟

د. عبدالصبور مرزوق: أنا لم أحضر حلقة أمس ولم أقرأ كتب الدكتور نصر.

مقدم البرنامج : أنا باتكلم عن المبدأ.

د. عبدالصبور مرزوق : من حيث المبدأ لأ، من حيث المبدأ نناقش أى إنسان فيما يقول وهذا بالعكس، فالمناقشة والاجتهاد قسمة حضارية من قسمات الإسلام، والقرآن ناقش

الكفار، والآيات تقول ﴿**قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون**﴾.. وفى الآخر قالت لهم: ﴿**لكم دينكم ولى دين**﴾ فمناقشة أى إنسان لا اعتراض عليها، لكن موضوع الدكتور نصر بدأ ببحوث مقدمة للجامعة لنيل الترقية وأنا لم أقرأ التقارير.

مقدم البرنامج : يعنى ليس ضد الإسلام فى شىء أن تناقش أفكار من اجتهد وأصاب أو أخطأ.

د. عبدالصبور: إطلاقا، الكفرة كنا بنناقشهم، والقرآن كان بيناقشهم.

مقدم البرنامج : إذا أحد أعلن أنه كافر صراحة هل ممكن تناقشه ولاً لأ؟! وما الموقف ممن يناقش تحت مظلة الإيمان ويقول أنا مسلم ولا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأومن بالكتاب والسنة والأنبياء.

د. عبدالصبور: علينا أن نقرأ كلامه أولا ثم نرى هل كلامه يتفق مع مايقوله ويعلنه أم غير ذلك، إذا اتفق كلامه مع مايقوله ويعلنه لامشكلة، لكن إذا كان الكلام المكتوب مناقضا لإعلانه وفيه مخاطر على الدين، فهنا نتخذ منه موقفا آخر.

مقدم البرنامج : وإذا خرج أحد عن الدين؟

د. عبدالصبور : إن قضية الردة فى الإسلام فيها كلام كثير بين الفقهاء، لكنهم يجمعون أنه لايحكم عليه حتى يستتاب.

مقدم البرنامج : قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة كتب تقريراً عن الأبحاث التى كتبها الدكتور نصر حامد أبوزيد.

د. عبدالصبور : أنا لم أقرأ لا التقرير الأول، ولا التقرير الثانى ومن هنا لا أستطيع الحكم.

مقدم البرنامج : معنا الآن على الخط المفكر الإسلامى الكبير أحمد كمال أبوالمجد فلنسمع رأيه فى هذه القضية :

تفضل يادكتور كمال.

أنا عايز أعرف أولا هل شفت حلقة إمبارح؟

د. كمال أبوالمجد : شفت حلقة إمبارح وبأتابع حلقة النهاردة.

مقدم البرنامج : يعنى مبدأ الحوار فى حد ذاته مقبول أم مرفوض وماهى ملاحظاتك عليه؟

د. كمال أبوالمجد : بسم الله الرحمن الرحيم، الحقيقة يا أستاذ عماد أنا لى ملاحظات، لأن إحنا أحياناً نتكلم فيما هو مقطوع به ولايحتاج إلى حديث، وهذا يفوت علينا مناقشة مقطع النزاع، ليس مطروحا للبحث من جديد أن الإسلام يحترم حرية التفكير وأن الاجتهاد فريضة إسلامية لمن يقدر عليها وتتوافر عنده شروطها، هذه مسألة حسمها التاريخ وحسمها تاريخ أمة مليئة بآلاف العلماء والكتابات الموثقة، ونأتى ونطرحها اليوم كما لو كانت قضية جديدة؟ فى رأيى أنا كارثة، لكن ماهو الاجتهاد؟ لأنه أنا بقدر مايزعجنى ويزعج كل عاقل الحجر على الفكر باسم أى شيء ولو كان الدين، فيزعجنى أيضاً انتشار مدرسة اسمح لى أن أسميها مدرسة الاستحلال العلمى، بمعنى أنها تحت راية الاجتهاد تخبط خبطا عشوائيا وتقول كلاما لايليق بالعقلاء، ثم تقدم على أنها مدرسة، فيقال : التقليديون فى مواجهة كذا، كما لو كان هؤلاء الذين يخبطون يمثلون مدرسة توضع على قدم المساواة مع تراث الأمة بعلمائها وفقائها وعقلائها ومتقيها وخبرائها، هذا فى رأيى خطر عظيم، وأنا الحقيقة مما تعلمناه فى مناهج العلوم كلها أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، أنا لا أستطيع ولا أعطى نفسى حق مناقشة الدكتور سيد اليوم فى كتاب لم أقرأه، لكنى أعطى نفسى حق التعقيب على بعض ما قال، ونفس الشيء بالنسبة للدكتور نصر أبوزيد، لدى ملاحظتان: واحدة على ماقاله أمس الدكتور نصر وأُخريات على ما قاله ويقوله اليوم الدكتور سيد. يعنى لما نيجى للدكتور نصر أبوزيد عافاه الله وسامحه وعفا عنه ويقول لى إن الآية التى تتحدث أن للذكر مثل حظ الأنثيين بمنهج بلاغى لايستقيم أبداً ــ تتحدث عن الذكور فقط، طيب يادكتور نصر ياعالم ياجليل يالغوى يا أريب يا أديب ألا تذكر أن أول الآية : يوصيكم الله فى أولادكم؟ إذن القضية بالعقل والبداهة والمنطق وفى أصول التفسير المعتمدة عند العقلاء فى الشرق والغرب وفى الإسلام والكفر، أن الآية خاصة بالأولاد، بتتكلم عن الأولاد الذين قد يكونون ذكوراً وقد يكونون إناثا، بقى أنا أراجع ميراث أمة وإجماع علماء محققين وأقول والله لقد فتح على فتح مبين، وأنا أول من قال هذا ثم أتواضع وأقول؛ يعنى؟ لأ ياسيدى إحنا عندنا قاعدة وليسمعها كل واحد: لايوصف الرأى بأنه رأى ولا الكلام بأنه مدرسة إلا إذا كان له حد أدنى عند أصحاب العقول، وقديما قيل: وليس كل كلام جاء معتبراً، إلا كلام له

حظ من النظر. إذن لو لم يكن له أى حظ أعتبره ظلما وخلطا للأوراق.

والقضية الثانية : قضية أسباب النزول، لاينبغى لأحد أن يخوض فيها الآن وأنا بأقول الاستحلال العلمى لأنى لاأستطيع أن أخوض فى مسألة إلا إذا أحكمت منهجها وصناعتها العلمية. علم الكلام غير علم التشريع وأصول الفقه، ونيجى لقضية العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. وأنا أرجو أن المشاهدين يكونون معنا فى هذا الأمر. إن الآيات القرآنية أحياناً تتنزل بمناسبة معينة. أيهما أكثر جموداً وتقييداً: إنى أنا أحصر الأمر فى هذه المناسبة وأحجره وأجمده فيها، أم أطبقه تطبيقا عاما؟ إذن المسألة هى فى التطبيق العام بشرط أن أملك أدوات وآلات حسب فهم النص كمعرفة سبب النزول، كما لدينا فى القانون وأنا رجل قانون نرجع لما يسمى الأعمال التحضيرية علشان نرى هذا النص ونرجع إليه وعالج إيه دون أن نقيده بالمناسبة اللى وضع بسببها، يعنى إحنا عندنا نص: انهارت عمارة فى مصر الجديدة فصدر أمر عسكرى يقيد، أقول إن هذا الأمر يطبق فقط على عمارة مصر الجديدة التى بمناسبتها ظهر القانون؟ هذا كلام لايقول به عاقل.

ولعل الجزء الصواب فى حديث الأخ الدكتور سيد أن معرفة أسباب النزول يقتدى بها فى فهم النص، وهذا من أدوات الاجتهاد التى قال بها علماؤنا قديما وحديثا وليس هناك جديد فى هذا أبداً.

مقدم البرنامج : الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك.

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أما إنى أنا أنكر القاعدة، فأنا لست مع الدكتور سيد فى هذا.

مقدم البرنامج : حضرتك خليك معانا.. و..

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أنا عندى كلام كتير لكن مش عايز أحتكر البرنامج.

مقدم البرنامج : يشرفنا أن حضرتك تكون معانا بإذن الله حول هذا الموضوع وبلاش تسافر لأن القضية أهم من السفر.

د. أبوالمجد : إن شاء الله.

مقدم البرنامج : الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك فى دقيقتين.

سيد القمنى : الأستاذ الدكتور أبوالمجد أهلا بك تحياتى.

د. أبوالمجد : مرحبا.

سيد القمنى : ياسيدى الكريم أن يبحث مسلم عما يطمئن له فؤاده فيما يتعلق بالنصوص المقدسة، مادامت لديه القدرة على البحث ويملك منهجا علميا فى التفكير، ويوجد آخر يمكن أن يقوّم أو يرد أو يناقش، لا أتصور أن هذا لون من الخبط وخبط العشواء، والدكتور نصر حامد أبوزيد فى نقاشه لمسألة نصيب الذكر والأنثى فى المواريث، سأغض الان النظر عن اجتهاده هو، فأنت أثرت هذه القضية الآن، اسمح لى ان اقول إنى رجل أعيش هذا الزمن، وأعتقد أن المرأة تكد مثلى وتتعب مثلى وتشقى مثلى وتصبح مهندسة ومحامية وطبيبة ، وأظن فيما قرأت أن الأساس فى توريث المرأة نصف حظ الذكر، أنه يقوم عليها، ويدفع مهرها ويرعاها ويرعى أطفاله ومسئول تماما عنها، فماذا يحدث اليوم ولدينا اليوم المرأة فى كل ميدان وكل مجال، وأصبحت ظروف حياتنا الاقتصادية تستدعى بالضرورة أن تعمل .. و..

مقدم البرنامج : د. سيد، د. عبدالصبور، د. كمال حضرتك خليك معانا على الخط، بعد الاستراحة سنواصل هذا الحوار، لو سمحتم جميعا كونوا معنا بعد الاستراحة لمناقشة هذا الموضوع الذى يزداد إلتهابا وتفجراً ثانية بعد الأخرى، وفى انتظار مشاركة المشاهدين وأهلا بكم.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : نعود لمناقشة حدود الاجتهاد فى الإسلام وفى النص القرآنى، معنا فى الأستوديو د. سيد القمنى ود. عبدالصبور مرزوق، ومعنا على الخط المفكر الإسلامى د. أحمد كمال أبوالمجد. كان الدكتور سيد يرد على كلام الدكتور كمال أبوالمجد، والدكتور كمال منتظر.

د. كمال : أنا عندى تعقيب

مقدم البرنامج : الدكتور سيد لم يكمل كلامه

د. كمال : أنا أحترم حقه حتى فى المخالفة.

مقدم البرنامج : اتفضل يادكتور سيد

سيد القمنى : أهلا بيك يـا أستاذ. نحن نعلم مما قرأنـاه فى كتاب الله الكريـم وما لحقه من علوم نستطيـع أن نستعين بها فى هـذه القراءة حتى يكون فهمنـا فهما سليما، أما مسـألة المواريث فقد تغيرت حسب المتغيرات زمن الدعوة. زمن وجود وحياة الرسول ثلاث مرات: المرة الأولـى «الإرث لذوى الأرحـام» دون تحديـد كما تعلمون سيـادتكم، ثـم نسخت بـآية الوصية، ثـم نسخت بـ﴿**يوصيكم اللـه فى أولادكم للذكر مثـل حظ الأنثيين**﴾. ونعلم أن ابن الخطاب كان من المجتهدين والذين اجتهدوا مـع وجود نصوص صريحة واضحة لاتقل فى قطعيتها عـن هذا الـذى بين أيدينـا الآن، ومع ذلك إطـلاقا لـم يحاكم الـرجل إنمـا اجتهد وأضاف رصيداً لنا ولـلإسلام وللفكر الإسلامى، فهلا إذا حاولنـا أن نفهم أو نتساءل أو يتساءل الدكتـور نصر أبوزيد.. يـا أخى لنرد عليه، لنناقشه، لنفتح كل النـوافذ لكن لانرجمـه ونتهمه بالكفر.

مقدم البرنامج : د. أحمد كمال اتفضل

د. كمال أبوالمجد : أنا يعنى، أنـا، أنا أتوسل، أنا أتـوسل للدكتور سيد أن يحـافظ على الدقة المنهجيـة وألا يدخل القضايا بعضها فـى بعض. ليه، لماذا؟ لأن هناك أمـورا أنا متفق معه فيها وأنـا لـم أقل أبداً أننا نحجر علـى الدكتور نصر فى أن يجتهـد وأن يخطىء، والأستاذ الدكتور عبدالصبور مرزوق قال هذا، ويقوله كـل العلماء، ونحن نعرف حاجة الأمة الإسلامية إلى فتح النوافذ و إلى تعدد الآراء و إلى الاجتهاد و إلـى الخطأ المصاحب للاجتهاد. هذا أمر لاناقشه إنمـا القضايا الفقهية أدق من أن يـدلى فيها بالـرأى العابر، وفرق هائل بيـن مافعله عمر بن الخطاب وبين أن آتى إلى نص قطعى.. ويمكن يـادكتور سيد إنك ما أخدتش بالك من كلام جيد قاله الدكتور نصر فى مفهوم كلمة النص

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : كلمة النص دى كلمة تكنيكية.

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : عند علماء الأصول.

سيد القمنى : مفهوم يا أستاذ.

د. أبوالمجد : هى نوع من دلالات الألفاظ على المعانى

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : وأنا أخشى أن إدخال المستمعين عموما فى جدل فقهى يكون هو القضية. بينما القضية التى بين أيدينا هى حدود الاجتهاد، والأصل هو الاجتهاد وفتح نوافذه ولكننا لانحارب هذا أبداً، حاشا لله، وإذا حاربناه حجرنا على الأمة وقطعنا عليها طريق المستقبل. إنما الذى نحاول أن نمنعه هو أنه تحت شعار الاجتهاد وهى كلمة محببة، وتحت كلمة الحرية وهى كلمة مقدسة، أن تختلط الأوراق وأن تدخل الأهواء.

وحضرتك تفضلت فى أول الحديث وقلت كلاما أدهشنى لأنه ما دخل قضية المنتفعين والإنتهازيين وهم على الموائد كلها وفى الساحات كلها وفى المدارس كلها ، بقضية حدود الاجتهاد. كأن حديثك يفهم منه أن كل من حاول وضع حد على الانطلاق فى الاجتهاد يكون إما منتفع أو انتهازى. لأياأخى، والحق معك، وسآخذك بكلامك وبكلام الدكتور نصر. نعم قلت أنت قولة حق وأنا معك فيها مائة فى المائة، لكن فرق بين أنى أنا أحاكم أو أناقش فكر الدكتورنصر أو فكر الدكتورسيد أو فكر الدكتورعبدالصبور فهو كلام بشر يؤخذ بكلامه ويترك، وبين أنى أتعامل مع نص مقدس إلاأنه لايكفى أنى أقول بهذه التفرقة، ثم أتجاهلها فى العمل. يعنى إذا كنت أقف بين يدى كلام الله وأومن إيمانا صادقا بأنه وحى يوحى فيجب أن ألتزم مزيدا من الحذرالمنهجى، وأنا أتعامل مع هذه النصوص، وياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كقول بعضكم لبعض. فلابد من الحذرالمنهجى.

سيد القمنى : هذا ما قلته أنا منذ برهة.

د. أبوالمجد : وأنا معك فى فتح النوافذ لكن الحرية لها حدود و إلا وقعنا فى نقيضها.

سيد القمنى : سيدى الدكتورالآن حضرتك تحدثت عن نصر أبوزيد وعن بعض أفكاره وأخطائه وقلت رأيك واضحا الآن، وأيضاً المحكمة قالت كلمتها فى حق نصر أبوزيد، ولكن وأنا أتابع ماتكتب حضرتك لأن حضرتك أستاذ كبير .

د. أبوالمجد : أنا لم أكفر نصر ولاغيره حاشالله .

سيد القمنى : هذا الموقف الآن وما قلت حضرتك بشأن نصر حامد أبوزيد لنعتبر معنى كلامك أن هناك نوعا من الاجتراء لأن الخبط قد يكون اجتراء وعدم فهم أو إلى آخره.

د. أبوالمجد : فى رأيى ليس أكثر.

سيد القمنى : فى رأيك، ولكن ألم تخبط المحكمة فى حيثياتها يادكتور، وتستحق منك رداً على نفس الدرجة من الأصولية ومن الدفاع عن الحق؟ فى نصوص حيثيات المحكمة تقول: يعتبر كافراً من استخف بالقرآن الكريم، ونحن معها فى ذلك ــ أو السنة النبوية باستهزاء بهما أو جحدهما أو كذبهما أو أثبت أو نفى.. الخ» حتى يصل إلى «أو تشكك فى شىء من ذلك» ونحن نعلم أن الشك..

د. أبو المجد (مقاطعا) : الشك هذا من الإيمان.

سيد القمنى : أى نعم فلماذا لم ترد.

د. أبو المجد : لأأنا رديت وكتبت فى المصور.

سيد القمنى : وهناك أيضاً فى الحيثيات «ومن ادعى أنه مسلم» ياأخى والله أنا أقول إنى مسلم وليس لأحد على الإطلاق أن يسألنى هذا السؤال: هل أنت مسلم أم لا، لأن الذى يملك هذا السؤال واحد أحد لاشريك له، هو الذى يسألنى عن عقيدتى .. و..

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أنا معك يادكتورعلشان برضه إحنا مما تعلمناه فى علوم أمتنا علم يسمى أدب المناظرة وهو لايكتفى بالآداب الأخلاقية واللياقة إنما يضع قواعد منهجية وفى مقدمة هذه القواعد المنهجية التى أعرف بمقدار علمك أنك تعرفها مايسمى تحرير الخلاف. بمعنى أن نحدد المساحة التى نريد أن نتحاور حولها، فقد نكون متفقين فى مساحة أخرى نوفر على المشاهدين والسامعين الحديث حولها، أما حين يتعلق الحكم بالقضاء فقد تجنبت الخوض لأن أنا رجل قانون والمسألة بها مسائل فنية يطول الحديث فيها، ومحكمة النقض التى أجلها وأحترمها وأوقرها إنما كانت تنظر فى أوجه الطعن فى صحيفة الطعن التى أخذت مآخذ معينة على حكم محكمة الاستئناف ولم تكن تحاكم نصر أبوزيد ولاتصدر حكما فى موضوع الدعوى لأن النقض ليس درجة من درجات التقاضى فى الموضوع، لذلك أنا لاأريد أن أشغل المشاهدين..

مقدم البـرنامـج (مقاطعـا) : يـادكتور كمـال نحن نـناقـش حدود الاجتهـاد وهى أجـدر من.....)

د. أبوالمجد : من محكمـة النقض، وقضية الاجتهاد واضحـة جداً، الأصل هـو الاجتهاد ،لكن الاجتهاد ممن يملـك آلته، ومن آلات الاجتهاد معرفة اللغـة العربية معرفة تامـة ومعرفة كتاب الله ـ دى علـوم موثقة ما أقدرش أخوض فيهـا بغير علم ـ ومعرفة السنـة رواية ودراية، ومعرفة الفقـه فروعا وأصولا ، معـرفة شيء من العقائد ومـا جاء فيها كتابـة وردا، وبغير إحكام هذه الآلة لايمكن أن يكون الرأى اجتهاداً بالمعنى العلمى.

مقدم البرنامج : يادكتور كمال سؤال أخير: هل أغلق باب الاجتهاد؟

د. أبوالمجد : سيدى هذه قضية نظرية أرجو أن نمسك عـن القول فيها لأنه لم يقل أحد بإغلاقـه وهو لم يغلق، **بل إنـى أضيف من عندياتـى إذا جاز هذا التعبير: إننا لـم نكن أحوج** إلى الاجتهاد منـا فى هذا العصر، وعلماؤنا فـى كتبهم باب يسمى «باب فـى اختلاف الفتوى باختـلاف الأزمنة والأمكنة والأحـوال» لأن الحكم الشـرعى هو معـرفة الحق ومعـرفة الـواقع وتنزيل أحدهما على الآخر. فإذا اختلفت الـواقعة الاجتماعية اختلفت النتيجة النهائية، شرط أن يتم كل هذا بنية حسنة والتزام منهجى صارم وأدب عف و إيمان بالحرية.

مقدم البرنامج : شكراً وأرجو أن نراك قريباً لمتابعة المنـاقشة فى هذه القضية.. مين معانا على الخط؟ الأستاذ أوزجان بشار.. اتفضل.

المشاهد (أوزجان): بالنسبة لقضية الـدكتور نصر أبوزيد لاأعرف ماهـو سبب تكفيره ولم أقرأ له أو أعـرفه، ولـم أعلم بالأمـر حتى الأمس عندما شـاهدت الحوار مع الدكتـور نصر، وأنا كأى إنسان مسلـم أرى أن الرجل خلال حديثه سـألته: هل هناك مسألة شخصيـة بينه وبين أحد الأشخاص، وأن هذا الشخص هو الذى أخرج القضيـة من إطار بحث علمى وترقيه إلى ساحـات المحاكم، والمحكمـة لها قـوانينها الوضعيـة وهى التى حكمـت بتطليق الـدكتور أبوزيد، ولها قوانينها الوضعية وليست محكمة شـرعية مائة بالمائة، ولنكن متفقين على هذه النقطة. ما أردت أن أسأله عنـه هل توجد هيئة من كبار المفكرين، هيئـة تمييز، لكى تميز بين الاجتهاد والإلحاد؟ هل تم استدعاء الدكتور أبوزيد لمناقشة آرائه؟

مقدم البرنامج : لا لـم، يتم دى مش وجهة نظر ده الواقع. لـم تتم مناقشته واستتابته.

المشـاهد (أورجـان) : إذن مـن الممكـن أن تقام هيئـة مـن كبـار العلماء والمفكـريـن لمناقشة الدكتور حامد أبوزيد.

مقدم البرنامج : الدكتور عبدالصبور هل هذا ممكن؟

د. عبدالصبور مرزوق : لم لا؟

المشاهـد (أحمد) : سلام عليكـم، فيه نقطة أحـب أستوضحهـا، فى مصر هنـاك ثلاث مؤسسـات كبيرة وهـى جامعة الأزهـر الشريـف ودار الإفتاء، والمؤسسـة القبطية، والمـؤسسة القبطية تختار مرشدها أو البابا أو كما يسمـونه، أليس من العار أن الأزهر الشريف ودار الإفتاء ينتظران رئيس الجمهورية كى يعين المفتى أو شيـخ الأزهر، وكأن هذه المؤسسات لاتستطيع أن تختار شيخها أو مفتيها؟

مقدم البرنامج : أنا سأقول ما أعـرفه وبعد ذلك حضراتكم تجيبون بما تعـرفون، ما أعرفه أن رئيس الجمهـورية يمـارس هذا الحـق كولى أمـر وفق الـدستور والقـانون العـام، والقيمة ليست فيمن يختـار شيخ الأزهر ولكن القيمة بمـا يضيفه هذا الشيخ أو علمـاؤه الأجلاء، وقد سبق وحظينـا بشيوخ أفاضل نكـن لهم كل احترام، منـذ الشيخ مخلوف للشيخ عبـدالحليم محمود للشيخ جاد الحق لشيخ الأزهر الحالى الدكتور سيد طنطاوى.

د. عبدالصبور مرزوق : فى فترات سابقـة كانت هيئة كبار العلماء تختـار أو تنتخب شيخ الأزهر، وسؤال الأخ دعوة نادى بها الكثيرون، ولكـن يحل محل هيئة كبار العلماء الآن مجمع البحوث الإسلامية، وعندمـا خلا مقعد شيخ الأزهر السابق رحمة اللـه عليه، عرضت أسماء كثيرة على رئاسة الجمهورية واختار منها وهو اختيار فى تقديرى موفق لشيخ الأزهر الحالى.

مقدم البرنـامج : نحن أجبنـا رغم أن السـؤال خارج مـوضوع هـذه الحلقة حتـى لايظن المشاهد أننا نتهرب مـن الإجابة عن أى سؤال، ومعانا على الخـط الآن الأستاذ مهنى فودة.. اتفضل.

المشاهد (مهنى) : مساء الخير يا أستاذ عماد، الحاجة الـوحيدة اللى أنا عايز أسأل عنها سؤال من لـه حق الاجتهاد، إحنا بنقول اللى اجتهـد وأصاب له حسنتان واللى لـم يصب فله حسنة. من له حق الاجتهاد هل يجينى واحـد دارس تاريخ وغزوات وأخليه يفتى فى الميراث زى الحلقة بتـاعة إمبارح أو الأستاذ بتـاع النهاردة، والا ها نفتـح كده الباب النهاردة لكـل من

هب ودب علشـان يفتى فى مسـائل بهذا الشكل، الإفتـاء مثلا أثير حـول إفتاء الدكتـور سيد طنطـاوى بخصوص الفـوائد وحسم الخـلاف لأنه صـادر من عـالم يعمـل بهذا المجـال، وبعديـن النهاردة فيه مجـال فقهى فى الميـراث، مجال فقهى فـى الجواز، مجال فقهـى فى الاقتصاد، لكن إن أنـا أجيب واحد كوافيـر والآ أى واحد يفتى فى الميـراث والآ يطلع كتاب. يعنى من له حق الاجتهـاد هنا؟ دى حاجة، لكن فيه حاجة خارج هذا البـرنامج. أعيب على قناة أوربت الشـانية فى لقاء مع إحـدى الراقصات بلبنان، أنـا باتفرج على الرقـص وباشوف الرقص فـى التليفزيون، إنما كون إن أحد الصحفييـن فى مجلات ينسب الرقص لأنـه يرجع للدين، فهذا ما لايقبله أحد وشكراً يا أستاذ عماد.

مقدم البرنامج : قضية الرقص ليس لدينا أى معلومـات عنها وهى أبعد ما تكون عن هذا البرنامج وعـن موضوعنا الآن، لكن النقطة المهمـة التى أثارها المشاهد هـى: هل أى كوافير يقدر يكتب عن الإسلام؟ هل حضرتك يادكتور سيد مؤهل كى تكتب عن الإسلام؟

د. عبدالصبور : لأ.. عفواً السؤال قال يفتى، وأظن أن هناك كلاما فى الحتة دى.

مقدم البرنامج : أنا طالب الإجابة من الدكتور سيد لأنـه ناله من الحظ جانب من تعقيب المشاهد الكريم.

سيد القمنى : سيدى الكريـم مسألة الفتوى فـى أمر يتعلق بالـدين من داخله فـى قضية تتناول التفاصيل مثل متى يؤخر الصلاة أو يقـدمها أو ماهى مبطلات الوضوء أو الصوم.. إلخ هذه أمور لهـا متخصصون، ولها أرباب يقـومون على هذا الأمـر يفتون فيه، وأنا لسـت بداعية ولست بمفتـى. فقط أنا رجل يشغلـه مصير هذا الوطـن، فدرست وتعلمت المنهـج العلمى، وأن أقرأ بتدقيق وأن أصل إلى نتائج أعرضها على الناس فمن شاء وافق ومن شاء ناقش ومن شاء رفض، لا أفرض رأيى أبداً على الآخر، وفى المقـابل أيضاً أتمنى من الآخر ألا يفعل ذلك معى.

المشاهدة (إلهام الدجانى) : (وتتحدث بانفعال شديد) السـلام عليكم. أنا لى رأى فى موضوع حلقة إمبارح وحلقة اليوم كمان، المفروض أننا لمـا نناقش الدكتور أبوزيد بالأمس أو الأستاذ اليوم لازم نجيـب بعض النصوص من كتبهم ونقـول له فى فقرة كذا إنـت قلت كده، علشان امبارح أنـت لما قلت للدكتور أبوزيـد إن أنت تشكك فى قداسة النصـوص قالك لأ

أنا قصدى أقول فى قداسة المفسرين للنصوص، فأرجو يا أستاذ عماد أنك أنت لما تناقش مثل هؤلاء وحتى لايغيروا بالكلام، لأن شبابنا بعد سبع سنين وعشر سنين أولادنا وأحفادنا سيقرأون هذه الكتب، وهاتصير هناك فيه بلبلة فى تفكيرهم، ومش هايشوفوا الأوربت وإنه كان قصده كده وكده، هايقروا الكتاب ويـاخدوه أمر مسلم بيه، فأرجوك لما تناقش هذه الكتب يكون فيه خط تحت المكتوب وتقول له إنت قلت فى صفحة كذا هذا الكلام ولازم يجاوب عليه بحيث لايجد فرصة ويغير الكلام.

مقدم البرنامج : أنا متشكر طبعا لنصيحة حضرتك، لكن أنا عندى إشكالية فى هذا البرنامج، إن هو حوار مباشر، وهناك لدينا برامج متخصصة فى الكتب أو المناظرات الفكرية، وممكن فى برنامجنا نعمل مناظرة فنلجأ لهذا الأسلوب، والغرض كان من حلقة أمس هو استيضاح الموقف بالنسبة لحالة تهم الرأى العام، وعلى اتفاق على أن تتم مواصلتها وحلقة اليوم جزء منها، وهناك حلقات أخرى سنستمر فيها وأرجو من السادة المشاهدين أنهم يحكمون فى نهاية الحلقات علينا، وحضرتك بعد سلسلة الحوارات تقدرى تجيبى علينا، هل الموضوع أشفى غليلك وغطى كل النقاط، لأننا هانرجع تانى للدكتور نصر بإذن الله فى هذه المناقشات وهو وافق على فكرة المناظرة، لأنك لاتستطيعى أن تفرضى على أحد مناظرته فى أفكاره إن لم يوافق على ذلك. **المشاهدة (إلهام)**: ياأستاذ أنت قدامك الآن واحد من الجماعة اللى بيمشوا فى نفس التيار وذات الاتجاه. أنت قلت له أنه قال عن سيدنا محمد كذا كذا كذا، قالك لأ.. أنتم فسرتوها بكلام غير ما أقصده، وهو موجود أمامك الآن وكتابه موجود، افتح الصفحة وقول له أنت قلت كذا كذا، لأنه جاوب بطريقة غير المفروض أن يجاوب بها، وبرر موقفه بأنه مش قصده، يا أستاذ عماد إحنا لما شبابنا يقرأوا شيئا يكون فيه الكلام مش قصده أو قصده.

مقدم البرنامج: هذه قضية تستغرق وقتا طويلا، وإحنا هاناخد حلقة تانية مع الدكتور سيد والدكتور عبدالصبور مرزوق وهما وافقا من حيث المبدأ، لأن الموضوع محتاج تمسكى فقرة من هذا الكتاب وتقرئينها، فيرد ويقول لك أنا قلت فى صفحة ١٠٢ كذا كذا، تقولى له فى صفحة ١٩ كذا يقولك توضيحها فى صفحة ٨٢، وهذا هو المنهج اللى هانلجأ له فى الحلقات المقبلة، حضرتك كونى معانا وتحكمى علينا فى نهاية الحلقات واعتبرى حلقة أمس واليوم فاتحة لملف القضية وهو مالايمكن تغطيته فى حلقة أو حلقتين أو ثلاث لأن

الموضوع أعقد كثيراً وشاكر لنصيحة حضرتك.

المشاهد (شريف ديلاور): مساء الخير يا أستاذ عماد. الموضوع زى ما أنت قلت معقد وشائك جداً، وبالتالى فإن الفكر لاحدود له وبالتالى يقف الإيمان ـ لاشك ـ حائلا أمام حرية الفكر يعنى لازم نعرف إن فيه إيمان لايمكن التحدث معه بمنطق أو بفكر، وديكارت قال أنا أفكر إذن أنا موجود، ولاحدود للفكر الإنسانى حتى لو فى حالة أن يعترض على الدين نفسه أو على الرسالة نفسها لأن حرية الفكر مطلقة فلما تيجى تتكلم فى الدين يبقى بنتوقف عند حدود معينة لافكر فيها ولا اجتهاد لأن هناك إيمانا نقف عنده.

مقدم البرنامج: أنت تتحدث إذن عن الخطوط الحمراء.

المشاهد (شريف): فيه خطوط حمراء. الخطوط الحمراء دى هى حدود الاجتهاد النهاردة لانتكلم فى هذا، إحنا بنحاول نحط حرية فكر مطلق مع الدين وده لايمكن ومحاولة التوفيق دى مستحيلة ولم تقدر عليها أية أديان أو أية أفكار قبل كده، وبالتالى فالمحاولة فى حد ذاتها فيها صعوبة كبيرة جداً وشائكة وبالغة التعقيد.

مقدم البرنامج: نحن نحاول أن نطرح ملف قضية حدود الاجتهاد ووجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع. نحاول أن ندعو إلى إعمال العقل لكن فى نفس الوقت هناك الخطوط الحمراء، والخطوط الحمراء هى سؤالى للدكتور سيد القمنى: هل هناك خطوط حمراء، نعم أم لا؟

سيد القمنى : نعم.

مقدم البرنامج : هناك خطوط حمراء نتوقف أمامها.

سيد القمنى: أنا فهمت الأمر كالتالى: إن هناك خطوطا حمراء موضوعة سلفا ممنوع تجاوزها، هذا ما وصلنى.

مقدم البرنامج: أنت فى عقلك هل هناك نقاط تقف أمامها.

سيد القمنى: أعتقد أن كل أمر قابل للبحث والفهم والمناقشة والبحث العلمى.

مقدم البرنامج : رأيك يادكتور عبدالصبور.

د.عبدالصبور مرزوق: إن كل أمر قابل للبحث والمناقشة والبحث العلمى إلا ما يتصل

بالثوابت التى يقرها الدين والتى نحن بها مسلمون. يعنى أنا ما أقدرش أبتدى النهاردة أتكلم إنه فيه غيب أومافيش غيب، وما أقدرش أتكلم أنه فيه بعث أو مافيش بعث، لأن إنكار مثل هذه الثوابت يجعلنى أقول لابد من التوقف هنا وإلا فسنجد أنفسنا كما تفضل الإخوة المعلقون أمام تيار مناقض جداً للدين من ناحية ومناقض لحقيقة الحرية من ناحية ثانية. نحن فى مجتمع اتفق على أننا دولة وحكومة لها دين معين تعتقده، ولايجوز بحال من الأحوال أن يكون الكلام عن الحرية وسيلة أو سبب لتخطى هذه الحواجز.

المشاهد (صالح المهندى): مساء الخير يا أستاذ عماد. هناك نقطتان هاتكلم فيهما بسرعة: النقطة الأولى أعتقد أننا الآن فى أمس الحاجة إلى رد المحكمة على قضية الاستتابة، هذا أولا. الشىء الثانى والمهم جداً ولحد الآن للأسف ما أحد تطرق له ولا أحد تكلم فيه هو طبقات المجتهدين وهو شىء معروف فى كتب أصول الفقه وموجود فيها جميعاً. الاجتهاد يا أستاذ عماد ينقسم إلى خمس طبقات وفيه بعض العلماء يقسمونه إلى ثلاث طبقات. هذه الطبقات تحصر وظيفة كل مجتهد حسب إمكانياته العلمية. أضرب لك أمثلة سريعة من المذاهب الأربعة، مذهب الإمام أبو حنيفة عنده تلامذة كبار لو وزنتهم اليوم يزنون كل العلماء. مثال أبو يوسف على رغم جلالة قدره لايستطيع أن يخرج عن أصول مذهب أبى حنيفة وفى المذهب المالكى ابن القاسم رغم جلالة قدره لايستطيع أن يخرج عن أصول مذهب مالك، ولايستطيع أن يفتى فى مذهب ثانى. فى المذهب الشافعى نجد النووى، وهو من هو النووى، معروف، يصنفونه مجتهد فتيا، أدنى درجات الاجتهاد. يعنى يحفظ مسائل المذهب وينقلها للناس فقط. إحنا اليوم مع الأسف الشديد لما نقارن أنفسنا بهؤلاء الأجلاء لانجد أنفسنا شيئا أمام هؤلاء، ومع ذلك نتجرأ أكثر جرأة على النصوص. ونتغافل عن كل هذه المسائل العلمية المحسومة ولا أحد يتكلم عنها وكأنها غير موجودة، رغم أنها تتصدر باب الاجتهاد والذى هو مأساتنا اليوم. اليوم إحنا مع الأسف، والمنهج الجديد اللى جعل الفقه الإسلامى شيئا تافها، نجد علماء أجلاء وكبار نراهم فى الإعلام لما نقرأ تاريخهم لانجدهم درسوا الدراسة السليمة التى درسها الإمام مالك ولا اللى درسها الإمام أحمد ولا اللى درسها الإمام الشافعى. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها ونقف عندها. أما إذا كانت هناك مسألة معاصرة شائكة فهناك مجامع فقهية ممكن تفتى فيها برأى جماعى، لكن مسألة مثل العرش والملائكة لايترتب عليها أثر، يأتى



واحد لانعرف من هو ويتكلم فيها كلاما لايقبله رجل الشارع فهذا شي مؤسف.

المشاهد (طلال): مساء الخير ياأستاذ عماد، اللى قاله الأستاذ أبو زيد عن التشريع والدخول فى كتاب الله وحظ الذكر والأنثى، أول حاجة هذا كتاب قدسى لايمكن أن أيصل إليه أحد أبداً، ويجيلى واحد يقول أنا بأفكر، طيب ما هو الفرق بين المفكر والعالم؟!، طالما المفكر بيفتى وبيدخل فى الإرث وبيدخل فى كذا، إيش فايدة العالم؟ العالم إيش يعمل؟ جيب لنا مناظرة بين العالم والمفكر.

مقدم البرنامج : ده حايحصل.

المشاهد (طلال): كى نعرف الفرق بينهما، لأن القرآن لو كل واحد بدأ يفتى فيه، هذه تبقى مشكلة للعالم الثالث كله، أنت إذا دخلت الحرم إنهرت روحيا لقدسية الحرم فما بالك بكتاب الله لايأتيه الباطل أبداً. واحد يقولك والله الذكر، والله ما أدرى إيش.

مقدم البرنامج : شكراً ياسيدى. مين معانا على الخط.

مشاهد (نهاد أبو رفاعة): أيوه ياأستاذ عماد لو سمحت أبغى أسأل الدكتور سيد لأن هو توّه بيقول إنى أنا مسلم ولاأحد يسألنى عن الإسلام لأنه بينه وبين الله سبحانه وتعالى وهذا كلام صحيح وهو معاه حق فى هذا الموضوع. لكن أنا باسأله إذا أنا شخص حرفت لفظ من القرآن أو غيرت فى حديث نبوى أعتقد أنه من حق أى مسلم أن يسأله.

سيد القمنى: طبعا بالتأكيد.

المشاهد (نهاد): بالنسبة للدكتور نصر والدكتور اللى بيقول هذا الكلام، لما هو يغير شيئا فى كتاب الله أو يدعى إنه بيقول كلام وإحنا فهمناه غلط، هو غير فى كتاب الله، ويصبح من حق أى محكمة بل أى مسلم أن يسأله عن الكلام هذا.

مقدم البرنامج: طيب ممكن يجاوب حضرتك.

سيد القمنى: ياسيدى الكريم مسألة إن نصر أبوزيد أو أنا أو أيا من كتب، غير أو بدل فى كتاب الله، فهذا أمر لايحدث إطلاقا، لأنك لو قرأت ما جاء بحيثيات محاكمة نصر أبوزيد والحكم عليه، ستجد أنه وقف مع بسائط وفسيفساء صغيرة، حاول الرجل أن يقدم فيها فهما، هو لم يقل أنا أغير أو إنى أقرر أو أصدر بذلك فرمانا، هو يحاول أن يطرح فهما جديدا

للمسألـة إما أن نقبله، أو نقـول له أخطـات ياهذا وأدلتنـا على خطئك هـى كذا وكـذا وكذا. ويا أخـى هذا الإسلام هو دينـى كما هو دينك ولـى حق التعاطى معـه كما لك حق التعـاطى معه، وليس فى الإسلام كهنـوت وبالمناسبة ـ تعقيبا على ماقيل منذ قليـل ـ ليس فى الإسلام أزهر، الإسلام حقك فى العلاقة بالله، وأن تقـول، فإن أخطأت، ردك من هو أعلم منك، وهذا أمر بسيط متفق عليه إسلاميا وإنسانيا.

مقدم البرنامج: تعقيبك يادكتور عبدالصبور.

د.عبد الصبور مرزوق: أنا عايز أتكلم فى نقطتين، الأولى فيمـا تكلم فيه الدكتور سيد أنه لاكهانـة فى الإسـلام وهذا صحيح، لكـن ليس فـى الإسلام أزهر، وأنـا لاأدافع عـن الأزهر، وإنما أتحدث عن وجود مـؤسسة دينية تكون مهمتها جمع أهل الذكـر الذين يلجأ إليهم أى مفكر فـى هذا المقام: وقضيـة للذكر مثـل حظ الأنثييـن هى قضيـة محســومـة نهـائيــا فى القرآن الكريــم، وفى ختام هـذه الآية ﴿.. **وتلك حـدود الله ومن يتعـد حدود الله فقـد ظلم نفسه**﴾ فالقرآن جعلها قضية محسومة.

مقدم البرنـامج: نعدكـم أننا هـانخصص حلقة أخـرى بموافقتكم طبعـاً لمناقشـة هذا الأمر.. فنحن مستمرون فـى فتح ملف الاجتهاد فى الإسلام.. ودائما نناقـش بكل حرية ودون رقابة.

انتهى وقت البرنامج


١٣
حدود الاجتهاد
(مناظرة
تليفزيونية) - ٢

مناظرة تمت بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٩٦ على شبكة تليفزيون أوربت بين سيد القمنى وبين د. أحمد كمال أبو المجد والبرنامج تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يقدم على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونيا

حدود الاجتهاد

(مناظرة تليفزيونية) - ٢

مقدم البرنامج : هناك العديد من الحلقات التى طلب السادة المشاهدون مشاهدتها ونجيب على العديد من التساؤلات.. وهناك قضايا عديدة قاربت على الاستكمال.. طبعا لاتوجد قضية استكملت من جميع جوانبها بل إن كل قضية بها نوع من الديمومة فتستمر دائما فى حالة تفاعل لكن على الأقل نحاول أننا نقترب من بعض وسائل العرض التى تكون شاملة أو تشفى غليل بعض السادة المشاهدين.. كان عندنا يوم الأربعاء حلقة تدور حول قضية الاجتهاد فى النص القرآنى، أو مع النص مثلما يحب البعض أن يناقشها.. وبعض الناس أمثال أحد ضيوفنا اليوم يعتقد أن القضية لاينبغى أن نطرحها بمفهوم هل أغلق باب الاجتهاد أم لا.. لكن مازالت القضية مطروحة مازالت تفاعلاتها موجودة واليوم هو استمرار لمناقشتها.. كنا قد عرضنا كما طلبت إحدى المشاهدات الكريمات قمنا بعرض أجزاء من بعض الكتب التى أثارت ضجة فى الآونة الأخيرة، وتفضل الدكتور محمد عمارة صاحب كتاب حول هذا الموضوع خاص بالدكتور نصر حامد أبو زيد، وكان الكتاب كله مخصص للرد على أفكاره، وكان موجودا فى نفس الندوة الأستاذ فهمى هويدى المفكر المعروف.. وقام الإثنان بمناقشة هذه القضية.. اليوم مازال النقاش مستمرا حول هذا الموضوع..

حلقة اليوم بها ضيفان ممتازان ضيفنا الأول أستاذى أنا شخصيا أستاذنا د. كمال أبو المجد وزير الإعلام المصرى الأسبق وأستاذ القانون بجامعة القاهرة وعضو مجمع البحوث الإسلامية ورجل دائما يتصدى للعديد من القضايا التى تهم العصر فيما يختص بمدى ملاءمتها للفكر والعقيدة.. أيضا معنا فى الأستوديو. سيد القمنى باحث فى تاريخ الأديان وصاحب مجموعة من الكتب أكثرها إثارة الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية وقد قام بعشرة أعمال، طبعا هناك كتاب آخر هو الأسطورة والتراث أعتقد أنه كتاب هام جدا.

وأعتقد أن العشرة كتب هى نوع من التعليق والرؤية والتحليل للعديد من الثوابت التى قد يعتقد البعض أنها غير قابلة للنقاش. اليوم توجد بالأستوديو مدرستان ــ إذا جاز التعبير ـ من التفكير نرجو أننا من خلال طرح القضية من خلال وجهات النظر المتعددة أن نستطيع أن نقترب إلى تصور حول طبيعة القضية.

أستاذنا الأستاذ كمال أبو المجد. أهلا بك وأهلا بالدكتور سيد و د. كمال إذا سمحت حضرتك أذكر فى الحلقة التى كنت بها مشكورا تتحدث معنا على الهاتف، حينما ذكرت عبارة (هل باب الاجتهاد أغلق) وجدت فى صوتك نبرة من الحماس ممزوجة بالغضب وتقول (ياسيدى) بطريقتك هذه (ياسيدى هذه القضية أصلا لايجب أن تطرح بهذه الشاكلة).

د. كمال أبو المجد : سأعرض كلمات موجزة ولكن أرجو أن تكون واضحة..وأنا قادم إلى هذا اللقاء سألت نفسى ماذا نفعل؟ لماذا نحن هنا؟ ومن نخاطب؟ وماذا نريد؟ هناك شيء لابد أن يكون وشيء لاينبغى أن يكون. أصحاب القضايا فى أمور متخصصة فيها خلافات رأى بين المتخصصين قد لايكون هذا أنسب المجالات لطرح القضايا المتخصصة، لأنها قد يساء فهمها وقد لايفهم مرما ها وقد يسيء طرحها إلينا، إنما القضية التى لاينبغى أن تغيب أبدا أننا ننتمى إلى أمة، فإذا كنا نتحدث عن الاجتهاد فى الإسلام فالقضية ليست الإسلام. القضية هنا أن الأمة فى عثرة وأن الأمة تحتاج إلينا، فنحن نبحث هموم أمة على أول طريق النهضة، وبالتالى قضية الاجتهاد لابد أن توضع فى هذا الموضع : هل يمكن لهذه الأمة أن تنهض وهى تعيش تماما على التقليد والسلف؟ لذلك لابد من اجتهاد وماهو نوع هذا الاجتهاد؟ ماهو موضوعه؟ ماهى مساحته؟ ماهى أدواته؟ ماهى شروطه؟ ماهى آفاقه؟ ثم نضع حدودا فالذى أتصوره أن الأمة إذا لم تجتهد فى الأمور العملية والتشريعية وفى المنطق العقلى بصفة عامة، يصبح ليس من حقها أن تتفاءل وليس من حقها أن تتوقع نصر الله لأن الله تعالى يقول ﴿**إن تنصروا الله ينصركم**﴾، ونصر الله فى أمور كثيرة ليس فى أمور الأدعية فقط وهى أمور جليلة، إنما الأخذ بالأسباب لأن الله ليس بينه وبين أحد حجاب من أخذ بالأسباب وصل ولم يمنعه شيء ومن لم يأخذ بالأسباب لن يصل. فالأمة الآن وقد عطل أمرها وجمد حالها تريد أن تنطلق لابد لهذا الانطلاق من

شروط، من هذه الشـروط : أن نتجاوب مع الواقع وأن نتعامل معـه، وأن تجد الأمة نفسها وأن تغير أمرهـا، وكيف يتأتى هذا بغير اجتهـاد؟ لقد نعى القرآن الكريم بعبـارات واضحة تعطيل العقل ﴿قالوا هذا ماألفينا عليه آباءنا﴾ فهذا موقف منكور مذكور بـالإدانة فى القرآن الكريم، ثم من قال أن باب الاجتهاد أغلق؟ هذه مقولة جرت بها أقلام دون تحقيق. حتى فى العصور التى قيل فيهـا بهذا امتلأت الساحة ولاتزال بمجتهـدين فى المذاهب، بمجتهـدين مطلقين بمجتهدين فى التفسير، بمجتهـدين فى الأحاديث، بمجتهدين فى الفقـه، وأنا أريد القول أن الذى نحتـاج إليه ليـس خلاف العمـلاء المتخصصين فـى مسألـة تاريخيـة النص أو عـدم تاريخية النص أو طـريقة فهمه هذه خلافات علميـة وطرحها على العامة قـد يضر. إنما لابد أن يعرفه الجميـع أن لكل عصر فقهه وأن الاجتهاد.. واستفـراغ الجهل هذا له معنـى وهذا له معنى والدكتور سيد يعلم هذا جيدا للوصـول إلى حكم عملى، وإلا ماكان النبى ﷺ يستعيذ باللـه من علـم لاينفع. الأمـة الآن عينها علـى الواقـع وعلى نفسهـا تعرف أن هنـاك أساسـا ينبغى.. فلانريد أن نبتعـد بها عن هذا الطريق، العالم متواصل، العـالم تتسارع وخطاه، هذه الأمة إذا اشتغلت عما ينفع بما لاينفع أظن أن أمرها يصير فرطا.

ـ مقدم البرنامج: د. سيد حضرتك ذكرت فى الحلقة الماضيـة أن هناك نوعا من الكوابح أو أن هنـاك أمورا تمنـع الاجتهاد، ودللـت علـى ذلك بعـدة أمثلـة بسيطة ولكنـك لـم تشـرح بالضبط وجهة نظرك كاملة.

د. سيد القمنـى أى نعم.. الـدكتور أبـو المجد أوضـح الآن أن الأمة فـى عثرة، وأنهـا فى حاجة إلى نهضة وفى حاجة إلى الاجتهـاد المستمر الدائم، وأن نأخذ بالأسباب، ولكن ما أود أن أوضحه قبل الإجابـة عن سؤالك بالتحديـد، هو لون من ألوان الالتباس. ربمـا أنا وصلنى الأمر ملتبسا بعض الشىء، وأستعيـن هنا ببعض ماتكلم به الدكتور أبـو المجد معنا فى حلقة ٣ نوفمبـر الأحد السـالف. والمـلاحظ عمـوما فـى الخطاب الإسـلامى علـى درجاتـه سواء المتشدد أو المعتـدل أو مايـوصفه بـأنه مستنيـر، فيه لـون من التعـالى الشـديد الـذى يستند بالضرورة إلى مايدعم إلى هذا التعالى، وأظنه وأتصوره امتلاك الحقيقة المطلقة فى نصوص دينه لايأتيهـا الباطل من بين أيديهـا ولاخلفها، ولكن أنا حتى أفهم، وحتـى نستطيع أن نجد مساحـات مشتركـة للتفاهم كمـا قال الأستـاذ أبو المجـد المرة الماضيـة نسأل كيـف يتفق

امتلاك الحقيقة المطلقة هذه التى لايدخلها الباطل إطلاقا وبين القول بالتفكير العلمى الذى لايعرف شيئا اسمه الحقيقة المطلقة، ثم نقول أننا نأخذبقواعد التفكير العلمى؟! وأنا الحقيقة مسجل عندى بعض الكلمات الطيبة والجميلة من الأستاذ الدكتور أبوالمجد كقوله على الهاتف بالحلقة الماضية (يزعجنى ويزعج كل عاقل الحجر على حرية الفكر باسم أى شيء ولو كان الدين) هذا كلام جميل ورائع جدا لكن هذا كلام التفكير العلمى والمنج العلمى فى التفكير. لكن فى المقابل فإن سيادته قد أشار إلى أنه منزعج أيضا جدا، ووصف هذا البرنامج بأنه كارثة، وأن فتح الحديث عن الاجتهاد أو السؤال هل باب الاجتهاد مفتوح أم لا، هذا كارثة أيضا. الحقيقة أنا فى تصورى أننا فى كارثة حقيقية كبرى، وفى نفس الوقت قال د. أبو المجد يزعجنى انتشار مدرسة أسميتها مدرسة الاستحلال العلمى، وأن هذه المدرسة تحت راية الاجتهاد وتحت راية الحرية تخبط خبطا عشواء وتقول كلاما لا يليق بالعقلاء كيف أستطيع أن أوفق بين المعنى الأول والمعنى الثانى فى كلام د. أبو المجد. المعنى الأول نحن مع الحريات وفتح باب الاجتهاد، لكن فى نفس الوقت نجد الخطاب الإسلامى يقدم نموذجا كما فى الكلام الذى قاله د. أبو المجد فى الحلقة الماضية بشأن نصر حامد أبو زيد، كان فيه إنكار لما يقول وتخطىء بل أنا كنت معه فى مسألة خبط العشواء، كيف يتفق هذا مع ذاك؟ هل نفتح باب الاجتهاد؟ هل باب الاجتهاد مفتوح ونحن نؤمن بالحريات فعلا؟ أم أن باب الاجتهاد مغلق ونحن بحاجة إلى اجتهاد. هل يعنى هذا الكلام مخالفة (أبسط القوانين العقلية قانون الهوية وعدم التناقض) كيف أكون ضد محاولة نصر فى طرح مايريد أن يوصله للناس محاول لاأقول اجتهادا بالمعنى الفقهى لأن أنا شخصيا لاأجتهد بالمعنى الفقهى لكن محاولة فهم طرح أسئلة صعبة فرضها الواقع والمستجدات. هل أقبل هذا التناقض الذى يتعارض مع القوانين العقلية؟ وهذا التناقض رأيته أيضا فى كتاب أهداه لى الأستاذ الدكتور أبو المجد (رؤية إسلامية معاصرة) ملىء بالبنود الهايلة عن الحرية والديمقراطية لكنى أجد بندا فى الكتاب ص ٥٧ المادة ١٢ فى طبعته الثانية.

مقدم البرنامج : ممكن قراءة اسم الكتاب مرة أخرى

سيد القمنى : رؤية إسلامية معاصرة، إعلان مبادىء.

فى الترتيب ثانيا «حق تقرير الأمور لـلأغلبية وتظل حقوق الأقلية مصانة ومحفوظة» وبناء على هذا يتـم تطبيق مبادىء الشريعـة الإسلامية وفق هـذا التقديم.. طيب فـى مجتمع مثل المجتمع المصـرى أو اللبنانى، المجتمـع الذى يشمل أكثـر من طـائفة دينية. كيـف يمكن التحدث عن أغلبيـة وأقلية فى جانـب وعن ديمقراطية فـى جانب آخر؟ أى ديمقـراطية التى قبل أن تبدأ نقـول أن فيها أغلبية وفيها أقليـة؟ ثم هذه الأغلبية الطـائفية كيف نحددهـا ومن سيحددهـا؟ أنا مسلم والـدكتور مسلم ولكنـى أخالفـه الرأى ، فأنـا .. هل سأقـف عنصرا منفردا لامـع الأقلية ولا الأغلبية. إن مفهـوم الأغلبية سياسيـا له شـرطان : أن الأغلبية ؟ قـابلة للتغير ممكن أن تكون أقلية وهذا لاينطبق على الظرف والتكوين الطائفى.

مقدم البرنامج: حضرتك بتفتح العديد من المواضيع.

سيد القمنى : أنا لازلت فى مسألة أنى أريد أن أفهم هذا التناقض مابين الديمقراطية و..

مقدم البرنامج : نسمح للدكتور كمال الرد على ماقلت ثم تستكمل ماقلت.

ـ **سيد القمنى** : أنا لـم أجب عن السؤال الأول على أية حـال أنا كل مافى الأمر كنت أقوم بمحاولـة الفهم : كيف يمكنا أن نفهـم يعنى واحد طالـب فى كلية الحقوق مسيحـى حصل على تقدير امتياز لايعين وكيل نيابة؟! وأى وكيل نيابة سيكون قاضيا!

مقدم البرنامج : حضرتك فجرت حزمة من الموضوعات

ـ **سيد القمنى** : كلها حول مسألة التناقض..

ـ **مقدم البرنامج**: بعد أن يرد عليك الأستاذ أبو المجد حضـرتك تعود مرة **أخرى** د. كمال أبو المجـد : أنا لاأرى أى تنـاقض. دعنى أكـون أكثر صـراحة. هناك فـى الحوار الـدائم فى مجتمعنا المصرى والمجتمـع العربى والإسلامـى مخاوف متبادلة، بعضهـا مشروع وبعضها غير مشروع، المشروع منها فـى رأيى هو أن يخاف أحد الفرقاء أن يغيب احتـرام حرية التعبير عند الفريـق الآخر، وبالتعبير القانـونى مع مايتـرتب على ذلك من آثـار التضييق والمصادرة والامتهان والحجر والإبعاد والإدانة. وأنا ماقلت يوما ماشفاهة أو كتابة أنى أبيح الحجر، أو أن يصادر رأى كائنـا ماكانت المخالفة. لكـن هذا لايمنعنى من التخطئة فى مقـام الحوار، وأنا أعتـرف أحيانـا بالخطـأ، من حسـن الحـوار أن يكون هنـاك استعداد لتغييـر الرأى والاقتنـاع

والإقناع. أنا لاأرى أى تناقض فى أن أخطىء منهج معين إن الأمـة تعيش حربا أهلية يرتادها ويقودها مثقفوها وهى حرب أهلية وليست حـوارا والطاقة المستهلكة فى هذه الحرب ينبغى أن توفر وأن تدخر، بـأن نقوم بما أشرت إليه فى الحديث الهاتفـى نحرر الخلاف، أنا أرى أننا مختلفون حـول قضية واحدة لكنهـا أساسية، وهـى من القضايـا التى لاأحب أن أشغـل بها المشاهدين، لكنها فى الواقع تتعلق بمعنى تـاريخية النص، لأن أنا اليوم حتى أخاطب الأمة وأكسب ثقتها وأدعـوها إلى النهضة، وأن تستجيب لابـد إن أنا وهى فى أرضيـة مفترضة و إن كانـت لى خلافـات، لأننى أعتـز بها وأواظب عليهـا، الأرضية هذه عنـد الأمة هـى الإيمان، والإيمان عند الأمة شـىء بسيط جدا ويسعها بعد ذلك أن تقبل كـل أنواع الخلاف. د. سيد يعرف وأنا أعرف وأنت تعـرف المنازعات بين الأشاعرة والمعتزلة، وأنـه قد نشب خلاف بين أصحاب المـذاهب، وأنا أشـرت فى إحدى مقـالاتى إلى خـلاف حاد بين إمـام دار الهجرة مالـك بن أنس، و إمـام مصر الليـث بن سعد وتبـادلا الخطابات روعـة فى وضـوح الخلاف وأدب الحوار. أنا لاأتهـم أنا أكلمك بكل صراحة (يـرفع كتب سيد القمنى مشيـرا إليها)، أنا استمتعت بهذه القراءة وخرجت متعلما منها.

مقدم البرنامج: استراحة ثلاث دقائق. بعد الاستراحة نستكمل.

مقدم البرنامج : نتابع مناقشـة قضية الاجتهاد الأستاذ كمال كان يتحـدث قبل الاستراحة تفضل يادكتور.

د. كمال أبو المجد أنا فى كلمات واضحة جدا أقول أن نقطة الخلاف ولست متأكدا أنه خـلاف بينى وبيـن د. سيد القمنـى، إنما أتحـدث عن منهجيـة لأنى وجـدت فى كتـاباتـه مايشككنـى فى وجـود هذا الخلاف.. كيـف؟ المنهج الأول منهج إيمـانى، يـرى أن النص القرآنى نص الوحى منزل، أى أنه داخل على السياق لكن كونه داخلا فى السياق ليس معناه أنه يلغى تاريخ الإنسانية إنما القضية أنه ليس من صنع الواقع، إنما المسلم أو المؤمن كتابه يهودى مسيحى أو مسلم يؤمن أن الله يوحى إلي نبيه وهو نزل..

مقدم البرنامج : أى ليس صناعة بشرية.

د. **كمال** : بالتالـى قضية الوحى قضية محوريـة ولكن ليس معنى القول أن الـوحى ليس نصا تـاريخيا أنه يلغـى تاريخ الإنسـانية، أنا حيـن أقرأ للدكتـور سيد القمنى عـن الأسطورة

استمتعت، وأنا قارىء من قبل فى تاريخ الأمم البائدة حصل تسلسل تاريخى لكن فى لحظة تاريخية معينة جاء الوحى..

مقدم البرنامج : وحضرتك هل ترى خطأ عند د.سيد أو تختلف معه؟

ـ د. كمال : إن بعض عباراته تلتبس علىّ لأنها قد توحى أن النص ليس مفارقا إنما هو جزء من واقع الأحداث يعنى فى كلامه عن الأساطير كلما ذكره صحيح وموثق وهو عالم محقق ومدقق واعتمد الآثار من الكتب المعتمدة عند أهل الملة وأهل الأمة :ابن الأثير وابن كثير والطبرى المسعودى وغيرهم، كذلك فى العرب البائدة وفى الأساطير، كل هذا صحيح إنما يبقى أنه لاأستطيع القول بأن النص امتداد لهذه الأساطير. الأسطورة تعبير عقلى وفيض وجدانى عن أمور وهموم وتطلعات وأشواق تعبر عن واقع ليس لها سند معلوم وليس لها مصدر معلوم وهو يعلم ذلك أكثر منى،. فحين يأتى الإسلام ويقول أن بعض هذه الأساطير حقائق كقصة الكعبة وزمزم و إبراهيم وقصة الصفا والمروة على أن أوقن معنى هذا أن بعض الأساطير القديمة لم يكن لها أثر، وإنما صنع خيال ولكن ليس هناك تاريخى ماينفى أن لها أصل وأضيفت إليه أشياء حين يأتى النص القرآنى المنزل، ويقول إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ثم يتكلم عن إبراهيم وإسماعيل والذبح أنا كمسلم أصدق. لأن هذا هو الفيصل بين الإيمان واللاإيمان.

ـ مقدم البرنامج : (متوجها إلى سيد القمنى) : هل أنت مصدق أم غير مصدق؟

د. كمال : كيف أناقشه فى هذا؟ أنا أجاوبك عنه، هوه مصدق.

سيد القمنى : سيدى الكريم على أية حال هذه المنطقة أحاول دائما أن أنأى بأصدقائى أن يسألونى فيها . هذا أمر قلبى وعلاقة جوانية بالمقدس. الخ

مقدم البرنامج : قلت أنك تعتقد أنه ليس صناعة بشرية؟

سيد القمنى : أنا حين أتحدث أحاول ألا أكون مجتهدا بالمعنى الفقهى لأن هذا له أربابه وله أهله، وأنا قلت ذلك المرة السابقة، أما مساحة اجتهادى فى الجانب الإنسانى، لهذا أتحدث فى الجوانب الإنسانية فى المجتمع فى الاقتصاد فى السياسة، صياغة الفكرة فى فرز المجتمع وهو يخرج ويفرز بنية علوية و..

مقدم البرنامج : فى بدء كلامك فى هذه الحلقة كنت تتكلم عن بعض سلبيات الخطاب الإسلامى، هنا أريـد أن أسألك سؤالا.. إذا كان الآخر يمثل الخطاب الإسـلامى فأى خطاب تمثل أنت؟

ـ **سيد القمنى :** ياسيدى الكريـم أنا أمثل خطابا علميا بمعنى أن قـواعد العلم يجب أن تشمل كـل موضـوعات المعرفـة، والديـن أيضا بنصوصـه معرفـة نتعامل معهـا وفى قـراءتها بالمنهج العلمى.

مقدم البرنامج : هل تقصد وضع العلم فى مواجهة الدين؟

ـ **سيد القمنى :** لاإطلاقا

عماد : لكن تحت مظلة الدين يمكن تتكلم.

سيد القمنى : هناك قضايا يجب الحديث فيهـا على نفس الأرض، وهناك قضايا كقضية الحريـات يجب أن يحدث التمـاس فيها من الخارج وليـس من على نفـس الأرض، فقضية الحريات أضيـف إليها رصيدا كبيرا جـدا منذ زمن الوحى كـل مافى الأمر أننـا نطرح السؤال ونترك لأربـاب الاجتهاد إنما يقـدموا فيه إجابـة أن نفتح النوافـذ، أن نسأل، أن نثير الـدهشة، يعنى فى المسـألة التى تحدث فيها د. كمـال عن قراءتى لـلأساطير وأن الوحى قـد يبدو مع التبـاس بعض العبـارات امتـدادا لهذه الأسـاطيـر. بالإمكـان القـول وهو مـاقلتـه فى كتـاب الأسطورة والتراث أن الوحى الإسـلامى من لم يأت دفعه.. واحدة إنما أتى متـدرجا فى ثلاثة وعشرين عاما هى عمر الوحى وتواصل السماء مع الأرض، هنا تفاعل مع الواقع ومع المأثور ومع الأسطورة ومـع قصص الحضارات، ثم شكل لهـا امتداد هنا الحكم مسألـة الإيمان من الدرس الموضوعات التى تتعلق بمسائل الغيب والإله هذه محل إيمان وليست محل درس، إما أن تؤمن بهـا أولا تؤمن بها، لكن هناك أمـورا نتعرض لها هى محل الدرس وهـى مايتعلق بمعاشنا وبمصالحنا وبوطننا ومستقبلنا.

مقدم البرنامج : السؤال موجه إلى حضراتكم.

ما الفارق بين إعمال العقل وبين التجرؤ على النص؟

د. كمال : الحقيقة أنا أرى أن نوضح الأمر توضيحا ليس بعده توضيح..

القضية أن الـذى يؤمـن بالوحـى يؤمن أن النـص كما جـاء هو كما جـاء وأنه حـق، لكن النصـوص مع ذلـك ليست سـواء فى دلالاتهـا على معنـاها، وأنـا هنا أتكلـم عن الأحكـام العملية لأنه ليس هناك تدرج فى الأحكـام العقائدية منذ بدء أول آية ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق**﴾ التوحيد واضح والألوهية واضحـة هذا لايحتاج إلى تدريج الذى يحتاج إلى تـدريج فى الواقع التاريخى والمجتمعى والاقتصـادى هو الإحكام العملية لأنك تـأخذ النـاس على شـىء وتنتزعهـم من شـىء، ومن هنـا احتاج الأمـر إلى تـدرج فى التشريع والذى يتطور هو تطور التشريع لمـلاقاة حاجات الناس المتجددة.. أما الحقائق فلا تدرج فيها، والإسـلام فى عقيدته واضـح كان فيه الشعراء والأنبيـاء وجاء القرآن الكريـم أقر العقائد الصحيحة وأنكـر العقائد التى اعتبرها فـاسدة، فهنا لايوجد اجتهـاد. الاجتهاد الذى نتحدث عنه ينبغى أن يكون فى الأمور العملية وأنا أتفـق مع كل المجتهدين فى أن النص قد يكون حمـال أوجه، ونحن لـدينا رسالة جليلـة لابن تيمية الحنبلـى (رفع الملام عـن الأئمة الأعلام) وأبو حنيفـة يقول : علمنا هذا رأى وهو أحسن مـاقدرنا عليه) بل فـى فهم النصوص فـى أمور أخـرى مما نقـول : القرآن القـديم قـديـم أم محدث؟ تكلـم فيها العلمـاء، الرمـز والحقيقة تكلم فيها خـاصة المتكلمين. إنما أنا أريد اليوم أن نشغل أنفسنـا بالاجتهاد الذى يتعلق بحـرية النـاس، فى أن تتعـدد آراؤهم فـى المسائل الاجتمـاعية والسيـاسية والعمليـة والاقتصادية، لأن النـاس تنتقل من التوحيد فى قضـايا العقيدة إلى الإصرار على الـوحدة فى قضايـا المجتمعات ، وهذا مستحيـل وبالتـالى أقول جـوابا لاغموض فيـه : إن الذى يـؤمن بـالوحـى ينبغى أن يفرق بين نص الوحى وأى نص آخر، ويمكن كلام الدكتور سيد عن الخطاب الإسلامى كأنه يريد أن يقول خطاب الناس فى فهم النص.

مقدم البرنامج : ننقل الموضوع علـى الأرضية.. نجد أبحاثا واختلافـا كبيرا حول اختمار اللبن وإن اختمر هل يسكر أم لا ؟.

د. كمال : كلام على العين والرأس.

مقدم البرنـامج: على الـرأس لكن أتكلم عن اختمـار اللبن ولاأتكلم عن فسـاد الأنظمة السياسية؟

د. كمال : ـ هـذا أمر لاأشغـل نفسى به لأنـه سقم فـى الفكر وعوج فـى الرأى، وكـم من

الناس يـزعجهم أن الـواحد لايـرسل لحيتـه ولايزعجهـم أن تغيب الشـورى ويضيع العـدل ويتأخر المسلمون ويتبعـون المشرق والمغرب والشمال والجنوب. هذا خلل فـى الرؤية ـ إن الأمة تريد أمرين : تريد أن تعيش هذه الدنيا ، وأن يكون لها شأن بين الأمم.

مقدم البرنامج : تفضل يادكتور سيد.

ـ سيد القمنى : الأمة الإسلامية جاء عليهـا زمن كانت امبراطورية قويـة، هذه القوة جعلت القائمين على هذه الأمة لايخشون على النظـام ولاعلى الفكر ولاعلى عقيدة الأمة، وفتحت كل الأبواب علـى كل الثقافات. فتـرجمت العلوم الهنـدية والفلسفة اليـونانية، بل انفتحـت على ديانـات مغايرة للإسـلام تعد ديانـات وثنية، بل وكتـب فلاسفتنا الكبار الـذين نعتز بهـم اليوم كتابات مـزجت بين تلك النظريـات القديمة التى تعـد وثنية وبين الإسلام مثل الفـارابى وابن سينا فى نظرية الفيض مثلا ولم يتورعوا عـن مناقشة أكثر الأمور حساسية حتى وصلوا إلى ذات الله وناقشـوها وجعلوها مـوضوعا للمناقشـة والمعرفة وتساءلـوا عن علاقة ذات اللـه بصفاته، وهل صفاته حقيقية أم مجازية؟ وانقسموا فى ذلـك مدارس هذا كان فى عصر القوة زمن الثقة، عندما أنجبت الأمـة كوكبة من العلماء نفخر بهـم ساهموا فى تأسيس العلـم البشرى الموجود اليوم. لكن فـى ذات الوقت قبلت الأمـة ضريبة أخرى هـى حرية الفكر، فقبلـت أن يكون من رجالاتها الطبيـب الرازى هذا الطبيب كـان رجلا متميزا كعالـم طبيب وملحد ـ إبـن الراوندى الذى عاش حوالى مـائة سنة وخمسة لم يرم عليه حجر، وكتب حـوالى أكثر من ٩٣ مصنفا أو أكثر من ٨٣ بـأسماء الجواهر والأحجار الكـريمة الزمردة والياقـوتة والمرجانة كلهـا فيما يقول مخاريـق الأنبياء أى دحض الـرسالات. ومـع ذلك لم يتعـرض له أحد، الأمـة قويـة والإسلام لايخشى علـى نفسه ومـؤسسات الـدولة لاتخشـى على نفسهـا. وحين أغلقـت كل الأبـواب بمجىء الخليفة المتـوكل بعد المعتصم وهذا مانعـرفه تاريخيا، بدأ عصـر الانحلال ووضعت الشروط على الاجتهـاد، رغم أن هذه الشروط لـم تكن موجودة زمـن المعتزلة الذيـن أعلوا من شأن العقل ، بحيث أنـه لو اختلف مع نص قرآنى، نأخـذ بما قاله العقل. هذا ماقـاله المعتزلة فى زمنهم. أما مسألة ماالذى يكبح الحريات الآن، هـذه الكوابح التى سألت عنها فى البداية سيدى الكريم الدين فى حد ذاته ليس مع تقدم أو تخلف هو كيف نتعامل مع نص الدين؛ أما أن نجعله معينا للتقـدم أو نجعله كابحا لـه مساعدا على التخلـف حسب قراءة كل منـا لهذه

النصوص الدينيـة، ولا أقول أنى أجتهد بالمعنـى الفقهى أكرر أنا أحاول أن أفهـم وأطرح أسئلة قد تبدو حرجة وقد تبدو حدية بعض الشىء ولماذا تطرحها الآن؟ لأن الكارثة التى نعيشها أكبر من الصمت على أسئلة محرجة.

مقدم البرنامج : نبدأ فى أخذ الأسئلة.. ونرجو من المشاهدين تلخيص الأسئلة فى ٣ دقائق.

أول اتصال (د. إلهام الدجانى)

المشاهدة **إلهام الدجانى**.. السلام عليكم

جزاك الله خيرا عن المجهود العلمى الذى بذلته الأسبـوع الماضى فكانت فاصلة قاطعة على كل مـاقد يعتقده أى شاب مـن الشباب أو قارىء فى كتـابىَ أبو زيد والعشمـاوى، كما حكم عليهـم محمد عمارة ولسـت أنا.. بالنسبة للـدكتور أبو المجـد يقول إنه عجبـه بعض الأشياء فى كتاب د. سيد وهناك مالم يعجبه. ممكـن يوضحه حتى نعرف لأننا فى المستقبل إذا قرأنا الكتاب فالأستـاذ عالم ودكتور نستفيد منه . عجبنى أبو المجـد حين فرق فى التدرج فى التشريع وبين التطـاول على الأحكام ورأيى أن هناك فرقا بين الاجتهـاد وبين حرية الفكر التى تكـون اجتماعية سيـاسية اقتصاديـة ثقافية، أمـا الاجتهاد فيكون فـى أمور الفقه ونتـركها للمتخصصين للدخول فـى أشياء مستجدة علينا فى القرن الـ٢١ مثـل قضية زراعة الأعضاء هذه مشتبه فيها.. د. سيد يقول أن الإسلام انفتح عـل الحضارات السابقة طبعا شىء طبيعى ولكن فيمـا يتفق مع الكتـاب والسنة ، وليس مـع مايختلـف مع تعاليـم ديننا وحريـة الفكر ليست فـى الكتاب ولاشخصيـة سيدنا محمـدا وماورد فـى سيرة ابن هشـام كذلـك الخلفاء الراشديـن هذه، أشاء تترك للمتخصصيـن فى علم التاريـخ ويجب أن يكون عندهـم حاسة إسلامية، إنه يبحث فى التاريخ الإسلامى فإن لـم تكن لديه الحاسة الإسلامية أنه يبحث فى التاريخ الإسلامى صعب أن يقرأ فيها.

استراحة ثلاث دقائق.

مقدم البرنامج : مازال فتح القضية مستمرا.

الدكتور إلهام الـدجانى أثارت عدة نقاط هـامة د. كمال ماهى ملاحظـاتك السلبية على كتب د. سيد

د. كمال : د.سيد أشار فى كلامه معاتبا بموضوع الاستحلال العلمى.. إننا نطرح قضايا للأمة، ولابد أن نصطلح على منهج ـ المنهج الإسلامى فى المعرفة يقوم على ساقين : ساق عقل وساق نقل.. فلا أتصور أن يكون المنهج العلمى فى الإسلام إلا قائم على هذين الساقين.. ولا أقول إنه منهج عقلى خالص فأطوع الوحى وأهون أمر الوحى وأنا حين أقرأ كتاب د. سيد أنا لاخطر علىَّ منها حين يتدرج فى الأسطورة فى الذبح والقرابين عند اليهود والبابليين والآشوريين والفراعنة واليهود والمسيحيين كأنى وأنا فى القربان والحجر الأسود والحج الذى هو حك فى اللغة، كأنى أنتقل من أسطورة إلى أسطورة، وكأن الوحى فى السياق التاريخى أحد المراحل العابرة. أنا أعتقد أن القارىء غير المتخصص قد يصيبه هذا الضرر. النقطة الثانية مسألة تاريخية النص أيضا والإصرار عليها يكاد.. لولا أنى متخصص والعبارة أكبر من الدلالة بالإشارة، فقد جاء الدكتور سيد فى آخر كتابه (الأسطورة والتراث) وقال عن القرآن الكريم : «فالكتاب متكامل بذاته مستغن عن الدفاع عنه بنفسه، فقد وصل الإسلام تكامله واستقراره فى حياة صاحب الدعوة ﷺ وهو الأمر الذى لايخشى معه عرض مسألة.. الخ» هذا كلام متخصصين ونحن لسنا مضطرين أن نوقع القارىء فى مثل هذا الشك وهذه الشبهة، ونحن ندافع عن قضية هامة وغير صحيح ماقاله الدكتور سيد وآسف أن أقول ذلك.. أن الإسلام انفتح على الحضارات ولكنه لم يذب فيها، وأنا قارىء للتراث الإسلامى وأعرف المتكلمين أين تأثروا بالفرس والهند وكذلك الصوفية من الحسن البصرى حتى هذا الزمان، أعرفهم كما أعرف كف يدى لكن كل مذهب وله هوية.. هل أنا يمكن أن أقول أن الماركسية هى أى شىء وأغير وأقول ليست هناك دكتاتورية بروليتاريا مفيش تفسير اقتصادى للتاريخ، مفيش مادية جدلية ولكنها مع ذلك تعد ماركسية، إن الإسلام يظل له كيان رئيسى، أمور لاوجود للخلاف فيها وأمور كثيرة لابد من الخلاف فيها، الذى أريد قوله أن الإسلام انفتح على الحضارات لأنه بعد أن يصل الإسلام إلى الناس هم بشر يتعامل بعضهم مع بعض يأخذون وينتفعون وحتى فى الأعراف الموجودة فى الهند غير هنا .تبقى جزئية خطيرة جدا هى المسيحيين فى المشرق موقفى أنا وأخوة آخرون واضح أن الإسلام اتخذ موقفا واضحا من النصارى المسيحيين بشكل جاد، وأن حريتهم فى عباداتهم أمر أساسى، والأمر الثانى أنهم يتمتعون بكل مالنا ويؤدون كل ماعلينا، وكلمة الذمى : إن الذمة من العهد ونقول أهل الذمة أى أهل العهد. وكانت تعبيرا عن الأداة القانونية التى التزمت من خلالها الدولة

المسلمة بحماية و إعطاء الحقوق لغير المسلمين، لكن مضمون هذا العرض هو الحرية الكاملة والمساواة الكاملة، وقد حل مكانه الدستور، فحين يقول د. سيد : وكيل نيابة مسيحى على عينى وراسى ولو تقدم لوظيفة يستحقها وحرم منها، أنا كمحام ممارس أرفع له قضية، أما حرية الأغلبية فى أى قضية من القضايا إذا تكونت أغلبية، خاصة فى قضية تطبيق الشريعة الإسلامية رغم دقتها وعدم تحديد مفهومها وضمانات القائمين عليها.. إذا اتخذت أغلبية الناس مسيحيين وبعض المسلمين أو مسلمين وبعض المسيحيين بتطبيق الشريعة الإسلامية فهل آخذ برأى الأقلية.. أين المنطق فى هذا؟ المهم أن الحقوق والحريات تخرج مطلقةو أن الشعائر الدينية تؤدى.

سيد القمنى : أنا لم أقل أن الأمة الإسلامية ذابت فى علوم الآخرين وحضاراتهم إنما قلت تحديدا انفتحت ولم تخف ولم تخش منها وتعاطت معها وتجادلت وأخذت فلسفات من الآخرين بل وقلت مانصه : وأخذت عقائد قديمة ومزجتها بعقائد إسلامية فيما يسمى نظرية الفيض عن الفارابى وابن سينا وهؤلاء نفتخر بهم ونعتبرهم من كواكب سماء التاريخ الإسلامى والعربى أيضا. أما عن نظرية الأغلبية أنا أقول أن الأغلبية مفهوم سياسى يعنى أن الأغلبية قد تكبر أو تصغر وتصبح أقلية، وهى مفتوحة لمن يخرج ويدخل إليها . أنا أحاول طرح التساؤلات: أنت عندما تفرض شريعة الأغلبية فإن هذا الفرض ليس فرضا لشريعة بل فرضا للأغلبية نفسها، لأن هذه هى قوانين الأغلبية، ويقال إننا متسامحون، ولكن هناك سؤالا من أعطانا الحق للتسامح أو عدم التسامح مع مواطنين مثلنا؟

د. كمال : أسأل سؤالا يادكتور.. هل تستطيع سيادتك فى أمريكا الشمالية أن تعدد الزوجات؟ ولماذا؟ لأنه القانون الذى تأخذ به الأغلبية. فإذا جاءت الأغلبية هنا ورأت أن مصدرها فى التشريع الإسلامى ننزعج؟ هل تستطيع أن تعيب على الأنجلوسكون أنهم لايأخذون بتشريع نابليون؟ كل أمة تختار شريعتها وهى جزء من تراثها أنا مندهش أين الغرابة فى ذلك؟ ولاتنس ياسيدى وأنت تعرف التاريخ أن الشريعة كانت مطبقة حتى جاء الأجانب وقالوا نطبق أحكاما قنصلية، ثم اشترطوا للدخول إليها تغيير الشريعة. ثم إن القوانين الموجودة ٩٠٪ منها لاتتعارض مع الشريعة الإسلامية، لذلك فقضية الشريعة لاتشغلنى، ولكن يشغلنى أن يقال إذا رأت الأغلبية صلاحها فى الشريعة أقول لها لأ.. لماذا

لاأقول للأغلبية الأمريكية لاتطبقوا القانون الامريكى وأريد تطبيق شريعتى الإسلامية مع العلم بأن احنا هنا نحترم عقائد الآخرين فى الأحوال الشخصية.

سيد القمنى : الأمثلة التى ضربتها يا د. أبو المجد حول الشعوب الأخرى ونظمها وقوانينها، هذه فى النهاية قوانين إنسانية أى أن الذى يحكم باسمها لايقول أن كلامى مطلقا وحكمى نهائيا وأنه لايدخلها الباطل، هنا أستطيع أن أدحض ماقاله وأضع صوتى بالرفض أو التأييد فى صندوق الانتخابات وأغير.. الخ، أما فى حالة الشرائع الدينية ومن ستكون مهمته القيام على تنفيذ تلك الشرائع؟وهل هو وحده الذى يلتقى تفسيره ورأيه مع المقصد الإلهى؟ أم أنه سيعطى فهمه هو لنصوص الشريعة، وهنا سأختلف معه و إذا خالفته كفرنى، ونعود إلى مشكلة الحكم بالحق الإلهى.

د. كمال : ليس فى الإسلام السنى على الأقل رجال دين ينطقون باسم الحق المطلق. ياد. سيد أنت تتكلم عن مشاكل حقيقية ومشروعة ولايوجد متحدث واحد باسم الحقيقة وليس هناك اجتهاد فردى بل اجتهاد جماعى.

المشاهد محمد شريف : أطرح السؤال للسادة الأفاضل عن ثلاث عبارات وردت فى كتابات نصر حامد أبو زيد، إذا ردوا عليها أوضحوا لنا حدود الاجتهاد وهى :

١ ـ أن إعجاز القرآن ليس إلا فى تغلبه على الشعر وسجع الكهان ولكنه ليس معجزا فى ذاته.

٢ ـ إن القرآن منذ نزل على سيدنا محمد أصبح وجودا بشريا منفصلا عن الوجود الإلهى.

٣ ـ التصورات الأسطورية المرتبطة بوجود أزلى قديم للنص القرآن فى اللوح المحفوظ فى اللغة العربية مازال فى ثقافتنا.

السؤال هو رأى كل منكم؟ وهل هذا الكلام يدخل فى إطار الاجتهاد أم لا؟

د. كمال : الإجابة عن السؤال الأول أنا أخالف ذلك فإعجاز القرآن ليس فقط فى أنه تفوق على الشعر وسجع الكهان. ومن أحسن ماقيل : إن كلام العرب ثلاث : شعر ونثر وقرآن. إنما ليس هنا قضية الإعجاز، سيدى هى قضية قرآن نزل فى ٢٣ سنة يعالج مسائل

الحرب والسلام والزواج والطلاق والأسرة والبيع ويجمع هذا كله ولايكذب ـ ومن أحسن ماقرأت أكثر أشياء إعجاز فى القرآن شريعة القرآن . محمد ﷺ حل مشكلته أنه كان يوحى إليه إنما هذا القرآن إن كان من عنده لكانت المشكلة أكبر ولعبده الناس ـ السؤال الثانى ـ إن النص إذا وصل إلى الناس انفصل عن مصدره لاياسيدى لأن مصدره إلهى إنما متى يصبح إنسانيا بمعنيين : معنى بعيد ومعنى قريب هو إنسانيا بمعنى أنه يخاطب الإنسانية ويصير إنسانيا بمعنى أن خطاب الناس المتعلق به يصير إنسانيا ، وقال أبو حنيفة علمنا هذا رأى وسؤل هل هذا الرأى هو الصواب الذى لاشك فيه قال بل لعله الخطأ الذى لاشك فيه. واليوم حين أقرأ شعر شوقى يظل شعر شوقى هو شعر شوقى ومن عنده مذاق الشعر يشعر ويحس فيقول : لايقول ذلك هذا الكلام ليس كلام طه حسين العبارة هذه ليست عبارة المتنبى. أنا أعترض على ذلك.

مقدم البرنامج : استراحة ٣ دقائق

د. كمال : فيما يتعلق بالجزئية الثالثة أخالفه أيضا لما قيل (فى لوح محفوظ) وأريد أن أقول كلمة أخوية للدكتور نصر، ود. سيد : نحن شركاء فى القضية فتعالوا لانفسد ذلك، وأن نركز المناقشة على حرية التعبير والحريات السياسية والمدنية، ولاندخل فى القضايا الشائكة، وأقول عن ذلك أنه أساطير ـ فأشككهم فى دينهم..

ـ المشاهد أوزجان يشار : أنا أريد أسأل د. كمال عن كتابات د.نصر أبو زيد أليس إعجاز القرآن فى نصه؟ لكل دين ولكل نبى كانت هناك معجزة، فمثلا سيدنا عيسى استطاع أن يحيى الموتى،موسى كان هناك سحرة فكانت عصاه أقوى وأبلغ، كذلك الرسول كان فى مكة شعراء فطاحلة، فكان يجب أن يأتى هذا القرآن معجزا بنصه.. هناك مناظرة حدثت بين الشافعى وابن حنبل فى قضية تارك الصلاة فقال الشافعى يا أحمد أتقول أنه يكفر؟ فقال : نعم، فقال الشافعى : فبماذا يسلم؟ قال : يقول أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقال الشافعى : الرجل مستجيب لهذا القول لم يتركه، فقال ابن حنبل: يسلم بأن يصلى فقال الشافعى : صلاة الكافر لاتصح؟ فسكت الإمام أحمد. واليوم نأتى لنكفر د. نصر حامد أبو زيد ونحن لانعرف من كفر الرجل؟ وكيف اجتهد؟ ومن الذى وضع تلك المحاكمة له؟ وهل تركت له سبل الاستتابة؟ نحن لانفهم ماذا حدث..



نريد من د. كمال لأننا نثق به وبعلمه أن يعقب على هاتين النقطتين.

د. **كمال** : لأمانة العلم أقول أنى قرأت كتب د. سيد محمود القمنى ولم أقرأ سوى كتاب واحد للدكتور نصر أبو زيد وأنا ماكفرته بل يجب الإفساح للناس ليقولوا ونخطىء هؤلاء ونرد عليهم، كما أعلم أن د. عمارة رد، ولاأقول لمن يقول : أنا مسلم : أنت لست مسلم، على أضعف الإيمان نمنحه فرصة كافية ليدافع عن نفسه ويعرض رأيه. إنما أنا سأرد على عبارة أوردها الأستاذ عماد أخذا من كتابه، أنا لاأوافقه على العبارة وليس لى شأن بالدكتور نصر أكثر من ذلك..

فالإعجاز القرآنى كان طبيعياً بعد بلوغ البشرية نضجها، فكانت مشكلة عقلية فيما جاء فيه وفيما لفت إليه من آثار، أما السنة الكونية فهى دليل على قدرة الله فى كل لحظة لذلك تذكير القرآن بالسنن الكونية أكثر من تذكيره بالمعجزات وحين سألوا الرسول ﷺ أنه يعمل كذا وكذا قال سبحان الله ماكنت إلا بشراً، فبشريته ونبوته حاضرتان ودعوته عقلية ومنهجه ليس غيبيا. وحين سلك الناس مسلكا غيبيا وقالوا : الشمس خسفت بموت إبراهيم ابنه قال ياأيها الناس أربعوا على أنفسكم إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتخسفان بموت أحد أو حياة أحد ، المنهج عقلى فى إطار الإيمان بالوحى المنزل.

سيد القمنى: مطلوب منى التعقيب على محمد شريف فى ثلاث عبارات للدكتور نصر : بالنسبة العبارة الأولى لاأتصورها قالها كما وردت الآن عند المشاهد الكريم والكتاب ليس أمامى للتأكد، لكن إعجاز فى القرآن الكريم من وجهة نظرى فى تفاعله مع الواقع وأخذه وعطائه معه واستجاباته لمتغيرات الواقع خلال عمر الوحى الذى وصل إلى ٢٣ عاما ، ولم ينزل دفعة واحدة كتلة واحدة. وهو بذلك يعطى درسا للمؤمنين به أنه مع تغير الأحوال.. أنتم خلافة الله فى الأرض والنبى المصطفى صاحب الدعوة هو آخر النبوات وختامها وأنه لن يكون هناك تدخل بشكل مباشر بأنبياء أخر مرة أخرى، فقد بدأ عصر العقل، عصر الإنسان حتى تستحق البشرية الخلافة وتبدأ فى الاجتهاد.

د. **كمال** : أنا أوافق على هذا الكلام الذى قاله الآن د. سيد ..

ـ **سيد القمنى** : الأمر الثانى مسألة أن النص القرآنى أصبح له وجود بشرى بمجرد ماتمثل فى الواقع، حقيقة أنا فهمت عند الأستاذ نصر حامد وأنا أقرأ له ذلك وربما أكون

مصيبا أو مخطئا لكن هـذا فهمى أن هذا الخطاب القرآنى قـد نُطق فسيولوجيا بآلـة إنسانية، بمعنى أن هذه الآلة التى هى اللسان وهى السمـع وهى الأحبال الصوتية وهى الحنجرة. هذه أجهزة إنسانية بشرية نقل نص اللفظ القرآنـى القدس على لسان المصطفى صاحب الدعوة عليه الصلاة والسـلام إلى المسلمين بلسانه ثـانيا، ثم إنه تفـاعل بلغة بشرية مـع واقع أيضا كان بشريا، مثل تفاعلـه مع الحضارات مع الفرعون مع جالوت مع طـالوت مع النبى صالح هذه كلهـا أحداث أرضيـة. أظن أن الدكتـور نصر أبـو زيد يقصد هذا المعنى أنه قد تأنسن أى أصبح نصاً إنسانيـاً يمكنا التعامل معه باحترام لكـن بلا رهبة لاتجعلنا فى موقـع التعامل العلمى الصادق معه.

النقطة الثالثة ـــ وسأترك د. كمال يعقب ـ التصورات عـن اللوح المحفوظ أو التصورات أن القرآن الكريم فى لوح أزلى.. أظـن د. نصر وضع يده علـى مسألة محوريـة لسبب بسيط كيف يمكـن الجمع ـ وهـذا التناقض التـأسيسى الـذى أشير إليه طـول الوقت كيـف يمكن الجمع ما بيـن القول إن هذا القرآن الكـريم كان كتابـاً فى اللوح المحفوظ مـن الأزل هكذا، وبين أنه جاء مفرقـا ومنجما ليقرأ على الناس على مهل وعلى مكـث حسبما تتطلب حالات المتغيرات الاجتماعيـة والسياسية والاقتصاديـة فى الواقع، أو كيـف أفهم أنه كان فـى اللوح المحفوظ وهناك خطاب يقول **(ولما قضى زيد منها وطرا زوجناكها)** هذا حدث آنى، حدث زمن صاحب الدعوة، فكيف يكون أزليا؟

د. كمال : الإلهيات الخوض فيهـا فى ندوة أنا غير مستـريح إليها ، ولكن يـاسيدى أنت تعلم أن مقتضـى كمال العلـم أن يحيط اللـه بالأمر والـزمان الـوجودى الحـاضر والمـاضى والمستقبل. هـذا حد من حدود المعـرفة الإنسانية ،أمـا فى كمال اللـه فالحاضر والمـاضى والمستقبل على خـط أفقى ومقتضى كمال العلم وإلا لـوصلنا إلى قولـه تعالى **(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا)** يعنى أنه لم يكن عالما بهـذا الضعف من قبل؟! هذه أمور يغذيها ولايبتديها، إنما كمال العلم أنه كامل كله فى العلم الإلهى.

مقدم البرنامج : تعتقد أن هناك خطأ فى أن يتعامل المفكـر أو الباحث مع النص على أن واضع هذا النص هو مفكر مثله بنفس قدراته العقلية.

د. كمال : لـم أقصـد أن الدكتور سيـد يقول هذا إنمـا هو يتحدث عـن قدسية النـص وهو

فيصل بين الإيمان ومتروكه، إن هذا القرآن كلام الله.

مقدم البرنامج : أريد أن أسألكم سؤالاً بسيطاً.

إذا لم تكن قضية التفريق قد حدثت لدكتور نصر يمكن لم يكن أحد عرف شيئا عن كتب د. نصر السؤال هل هذه قضية شارع إسلامى أو شارع عربى؟

د. كمال : جزء منها قضية شارع إسلامى أشار إليه د. سيد.

وكما قلت فى أول حديثى الأمة هى القضية وليس مثقفيها.. النقطة التى عرض لها د. سيد ونريد مناقشتها بهدوء وهى مسألة لااجتهاد مع نص، فإنه فعلا بعض الناس فهم النص على أنه الدليل الجزئى هذا الجانب العلمى فلو أخذنا المقولة هذه على إطلاقها.. التفسير الغى، التأويلى الغى، الفقه الغى وكى يكون المشاهدون معنا. نابليون بونابرت سنة ١٨٠٤ وضع القانون نابليون فيما لايزيد على هذا الكتاب (يشير إلى كتاب صغير) ولم تمض سنوات إلا وكبار الفقهاء للقانون الفرنسى ألفوا كتباً بالعشرين والخمسة وعشرين جزءا. إخواننا المالكية فى العالم الإسلامى يعلمون أن متن خليل لايزيد على هذا (يشير إلى نفس الكتاب) ولكن لنرى شرح الدرديرى على متن خليل وحجمه ليرى المهذب الشيرازى على المجموع للنووى. إذا العلم واسع.. وأنا أقول استحلال علمى لماذا؟ أنا لاأمارس الطب أو القانون إلا إذا كانت معى شهادة تقر ذلك.. اليوم كى أجتهد فى الفقه لابد من معرفة أصول الفقه.. كلمة النص عند الأصوليين تشير إلى النص الذى لها عبارات لاتحتمل التأويل الواضح الدلالة بشكل قطعى.. هذا هو الذى لااجتهاد معه والمساحة كبرى بعد ذلك للاجتهاد . نحن نعيش فى ظل دستور ولكن الدستور هو مانقرر نحن أنه كذلك، ونفسر كبشر أصنافاً من عصره ومن فقهه وأضاف من مزاجه ومن ضيق صدره أو اتساعه إنما أنت بعد النص وليس معه.

مقدم البرنامج : من الذى على الخط الدكتور عمر الفاروق من قطر.. اتفضل

المشاهد عمر الفاروق : اسمح لى أن أقول نقاطا سريعة وأذيلها بسؤال:

١ ـ قضية الاجتهاد لاأعتقد أنها عويصة إلى هذا الحد بقدر ماهى واضحة ومحددة ومقدورة من قبل الله سبحانه وتعالى إن الله حدد الحدود التى لاينبغى أن نتعداها ثم أطلق

حرية الاجتهاد المحسوبة فى غير ذلك، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قال **﴿وماأوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** ونعطى لك مثالا على الاجتهاد المشروع فى أول آيات القرآن الكريم.. بسم الله الرحمن الرحيم **﴿الـم ذلك الكتاب لاريب فيه﴾** وأنا لدى كتاب فى هذا الشأن.. يقول (ألم) أيها الإنسان أنت مقدور الفكر لأنك لاتستطيع أن تفسر هذه الحروف الثلاثة، إذا إياك أن تشك فى كل القادم. يعنى الإنسان على إطلاقه ياأستاذ عماد لايصل إلى القناعة إلا إذا جرب الشيء، فربنا أطلق تجريب الأشياء إلا القرآن الكريم إلا فى حدود ماأباح الله.

٢ ـ إن بعض الذين بلغوا درجات علمية عالية ظنوا أنهم كبار وبدأوا يتشككون فى بعض قضايا الدين.

٣ ـ يوجد البعض ممن يعتبرون التدين تخلفا فى العصر الحالى.

٤ ـ من أهم شروط المجتهد موجبية الاتجاه، والقدرة على التفكير، ولا أقول التفكير، لأن الكل يفكر والله سبحانه وتعالى خص أولى الألباب بهذا التفكر فى القرآن الكريم.

٥ ـ لايصح أن نجعل من بعض الخارجين على حدود الله مدرسة فكرية مناهضة أو مقابلة للإرث الفكرى كله، وأعتقد أنى أتفق فى ذلك مع د. كمال أبو المجد.

٦ ـ لو كان الإسلام قد منع الاجتهاد فكيف كان أبرز العلماء هم الفقهاء فى نفس الوقت؟

٧ ـ كيف نسى الخارجون على حدود الله أنهم أنفسهم محدودى القدرة وكيف يجترئون على من منحهم نعمة العقل.

٨ ـ صلاحية القرآن لكل عصر وزمان ليس معناها توظيف النص القرآنى كما نهوى ولكن معناها أن خصائص البشر العامة هى هى على مر العصور والمثل الرومانى يقول (لاجديد تحت الشمس) بهذا المعنى.

٩ ـ قد يكون هناك خلط بين الاجتهاد فى النص والرغبة فى الأخذ بأسباب العلم بهدف التطاول لدى البعض واسمح لى أقول تنظير بسيط لهؤلاء ـ يجب النظر إلى العلم والدين فى أمور ثلاثة الكنهة والتوجهه .. و..

سؤالى إلى الدكتور أبو المجد والدكتور سيد هو:

هل يجب أن نناقش الخارجين من وجهة نظرنا على حدود الله تحت مايسمى بحرية إطلاق الفكر؟ نشكركم ونتمنى التوفيق لكم جميعا..

مقدم البرنامج : هو هنا بس فكرة الخارجين على حدود الله هنا حكم مسبق لكن حتى حكم الشرع فيما يخرج عن حدود الله؟

أريد سؤالك هذا السؤال حتى إذا وصلنا إلى السقف الذى وصل إليه الأستاذ عمر الفاروق.

ـ **د. كمال** : نحن أمامنا فى العالم الإسلامى خطران خطر الجمود وخطر الانفلات، وأنا لايشغلنى الانفلات بقدر مايشغلنى الجمود فالجمود يقتل حتى فرصة التصحيح.

ـ **سيد القمنى** : الحقيقة أن الكلام الذى يقوله الأستاذ أبو المجد هو أمر عظيم، أن نجد اليوم فى ظل مايسمى مدرسة تقليدية هذا النزوع إلى الحريات لأن أزمتنا بالفعل أزمة الحريات لأن العلم والتقدم لايتزعزع ولا ينمو إلا فى بيئة حرة تماما، وهذا ماجرنا إلى موضوع الاجتهاد لأنه بدون وجود اجتهاد حقيقى مستمر فهذا يؤثر على حريتنا.

وكنت أتحدث فيما قال الأستاذ عمر الفاروق، هل يجب أن نناقش الخارجين على حدود الله وأنا لاأناقش ذلك لسبب بسيط أنه من سيحدد من هم الخارجون على حدود الله؟ ومن سيقول كلمته فى هذا الأمر؟ هذا أمر لايناقش، أنا عندى استعداد أناقش الجميع لكن فقط. ماتوقفت معه أنه يقول إن المناهضين، لايصح وضعهم تحت مسمى مدرسة ، هم ليسوا مناهضين أنا رجل أطرح تساؤلات وأحاول أن أصل إلى إجابة شافية ترضى ضميرى الإيمانى وتريح علاقتى بالواقع المتحرك المتغير، وكيف يمكن أن أؤدى دورى فيه بنجاح، بالتالى هذه دعوة تذكرنا بقول الجاهلين **(هذا ماوجدنا عليه آباءنا)** وطالما هناك ناس، والأمة كلها قالت، فمن أنت؟ ونحن سمعنا بهذا المعنى مكالمات تليفونية فى الحلقة الماضية يوم ٣ وكان فيه ناس محتجة فقط على (أنت من؟) أنت ماهى مؤهلاتك.. مؤهلاته أنه مسلم وأنه يريد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، وأن يطرح أسئلة بدون تحرج،، فمادام فى الأمة رجال.. و..

مقدم البرنامج : أريد من حضرتك الإجابة عن سؤالى : (إذا اجتهد وأخطأ فى اجتهاده؟،

سيد القمنى : فليجتهد وليخطىء.

مقدم البرنـامج : ماهـو الرد على هذا الخطـأ.. هل هناك عقـاب له.. يادكتور أبـو المجد كيفية التعلل مع من يجتهد ويخطىء؟

د. كمال : الأمة فى حيـرة والقضايا كثيرة وأريد المنـاقشة فى القضايـا العملية والاجتهاد حيـن يكون إيجـابياً يكـون علميـاً، ولابد أداتـه تتجمع كيـف يكـون الاجتهاد دون تـوفر آلـة الاجتهاد فى خصـوصية معرفة الـواقع، وبالتالى نحتـاج إلى اجتهاد، إنما حيـن نتعرض إلى قضية نقل الأعضـاء لايستطيع فقيه لوحده الإفتاء فيهـا. إنما يحتاج الأمر إلى مجـامع علمية حين ذاك يـؤخذ رأيها مأخـذ الجد ـ الإمام الشـافعى كان له مـذهب فى العراق وحيـن جاء مصر غيـر فى مذهبـه مع أن أصوله لـم تتغير، وأدوات الاجتهاد هـى ثلاث وصفها ابـن القيم الجوزى بـأنها معـرفة الحق ويعـرف تفسيرهـا والناسـخ والمنسوخ والواقـع ، وكى تتـم هذه العمليـة نـريد اجتهـاداً جمـاعيـاً لتطمئن الأمـة ، ويجـب علـى المجتهـد العلم بـأوضـاع المسلمين وأوضاع الطبقات الاجتماعية وحاجات الناس.

مقدم البرنـامج : كى أكون صـريحاً معك.. الأسبوع الـذى تلى مذبحة الأقصـى الأخيرة ودخول القـوات الإسرائيليـة داخل الأقصـى، كانت خطبـة فى مسجـد ما منقـولة بـالأقمار الصناعية رآها العـالم كله، كانت عن المـرأة الحائض والحيض ، أتريد القول لـى حضرتك أن هذا هو متابعة العصر؟

د.كمال : هذا سخف فى الاختيار وخلل فى التفكيـر وانصراف عما يشغل الأمة ويسىء إلى وجه الإسـلام ، ويؤكد أنه لا فقه بغير فقهـاء، ولافقهاء بغير مؤسسات، ولامـؤسسات بغير برامـج تعليمية متقدمة، لأن العلمـاء ياسيدى يحتـاجون إلى علـم، لابد من أن نأخـذ الأمر مأخذ الجد. هذا الذى يجرى نوعاً من الهزل.

مقدم البرنامج : معنا مشاهد من القاهرة يتفضل..

المشاهد : أنا متابع للبرنامج لكن لاأعتقد أن أحـداً لايقف أمام حرية الاجتهاد أو حرية الرأى إلا فى شىء محـرم نهائيا الجدل فيه وهى الـرسالة والأشياء الثابتة، والجـدل فى الأمور الـدنيويـة ولاأعتقـد أن المشكلة هى تطليق زوجة د. نصر منه هذه ليست المشكلة ـ المشكلة

فى التعدى كما قال الأساتذة ـ مشكلة التعدى علـى كتاب الله . الرسالة لاجدال بها والله قال فى كتابه ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾.

د. كمال : ﴿قالت الأعراب آمناقل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾.

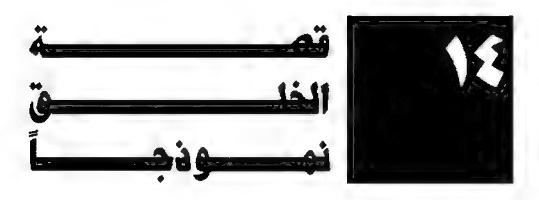
المشاهد: الاجتهاد فيماهو دنيوى وأعتقد أن كثيرين تكلمـوا وأنا آخذ على الدكتور سيد تبسطه الشديد؟ وهو أعلم منى فى هذه الأمور.

د. كمال : لاتعقيب .. هـى القضية ليست قضية نصـر، بل قضية حدود الاجتهـاد، وأنا معك فى أن كتاب اللـه ينبغى أن يكون لنا منه موقف مختلـف دون أن يعنى ذلك ألا نخوض فى التفسيـر ـ من أحسن مـاسمعته من (إن مثـل الذين يقـرأون القرآن وهم لايعرفـون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا فتـداخلتهم روعه وهم لايدرون مافى الكتاب، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصبـاح فقرأوا مافى الكتاب). فتفسير العلماء مبنى على أسبـاب النزول وقواعد اللغـة بغض النظرعن عمـوم اللفظ. والناسخ والمنسـوخ والفقه إلخ من أدوات الاجتهاد، وتلقى أضواء كثيرة دون أن يمس بـالقرآن الكريـم إنما يضيف إلى قدسيته قدسية، وكـان ابن تيمية يبحث عن التفسير حين مات مسجـون فى قلعة دمشق كان فى هذه الفترة مشتغل فى التفسير وكان يتقلب على جنبيه ويقول يامعلم إبراهيم علمنى.

سيد القمنى : أريد التعقيب على نقطة صغيرة هى ـ الحـرام والحلال هذه قضية بينها نترجرج كالزئبق طول الوقت، لاأحد يمكنه الإمساك بنا ولانحن نستطيع الإمساك بحقيقة : أتصور أن نقل الأمر إلى مستوى الصـواب والخطأ العقلى والعملى فيما يتعلق بمصالح البـلاد والعباد يكون هو الأجدى، وبذلك ننتقـل من حالة الخلاف فى الـرأى الدينى الفقهى عندما نحـول مادة المقدس للدرس، ليـس بمنطق الحـلال والحرام بـل الصواب والخطـأ ممكن أن ينقلنـا هذا إلـى مستوى العلم، والعلم لايختلف حوله إنما الرأى هو مايختلف بشأنه..

مقدم البرنـامج : دكتور كمـال أشكرك علـى علمك وعلى وقتـك ود. سيد أشكـرك على جهدك ووقتك.

(إنتهى وقت البرنامج)


١٤
قصة
الخلق
نموذجاً

● أسطورية الدم ●
قراءة للوضع المجتمعى للمرأة فى عقائد الشرق الأوسط

قصة الخلق نموذجا*

توطئة :

لأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى المرجو، اللائق بكرامة الإنسان بحسبانه الكائن الأرقى فى الكون جميعا. فإن الظرف الاجتماعى لم يزل حتى الآن يسوغ القسمة العنصرية بين الناس، وأبرز نماذج تلك القسمة التى تشكل وصمة عار كبرى فى جبين الإنسانية، ذلك الذى حدث عندما استولى الذكور على مقدرات المجتمع، وتمت إزاحة الأنثى من البؤرة إلى الهامش. وتأسس المجتمع الذكورى الأمثل الذى أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجسد الواحد، فقسمته نوعين رجلا وامرأة، وفرقت بين طرفى حياة لا تكتمل دون التقائهما إنسانيا قبل التقائهما جسديا .

وفى مجتمعات الشرق الأوسط حيث نشأت ثقافات وتطورت أخرى وتلاقحت ثالثة حتى وقفت عند الثقافة الإسلامية، تتعزى المرأة كل يوم بالصبر والسلوان الفقهى، وتبلسم جراحها بخطب منبرية تؤكد لها أنها فى مكان الصدارة والتكريم بين نساء العالمين. تتعزى صبراً فى عالم الأرض وصبراً فى عالم السماء، فى الدنيا الفانية وفى الآخرة الباقية .

وإن أحسنت المرأة المسلمة إيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت سيدها الذكر وأطاعته، دخلت يوم الدينونة إلى عالم الخلد خالدة أبداً، لكن فى خدمة السيد الذكر مرة أخرى ومن أجل متعته، وضمن حريمه فى جنة رضوان اللائى يصل عددهن إلى المئات وربما الألوف فى أحاديث منسوبة لنبى الإسلام.

وإن تلك المنحة الخالدة لا تتم إلا بإيمان، رأسه وقمته طاعة الرجل الكاملة والخضوع له والتسليم لسيادته فى الدنيا الفانية، لتضمن لنفسها بذلك مكانا بين حريم الجنة فى الآخرة الباقية.

* نص ورقة بحثية ومحاضرة

وحتى نصل إلى هذه المرحلة علينا العودة نحو المبتدأ، إلى المجتمع البشرى وهو يصوغ أول تشكيلاتـه الابتدائية، نحـاول أن نمارس قراءة معدولـة لثقافة مقلـوبة، قراءة غيـر معتادة لأوضاع معتادة بل ومقدسة وثابتة لاتقبل تبديلا فيما يرى سدنتها المنتفعون ببقائها.

١ ـ التجمعات الصحراوية والتجمعات النهرية :

فى فنون العصر الحجرى القديم يمكنك أن تـلاحظ أن تماثيل النساء وبقية النقوش التى تحمل دلالات أنثـوية أكثربما لايقـاس بالنسبة إلى الفنـون التى تحمل دلالات ذكريـة، أما قبل ذلك، وفى فجر حقـب البلايستوسين الأول فلن تجد مهما بحثت سـوى تماثيل للإناث ولا وجود تقريبا لأية فنون ذات دلالة ذكورية.

وحول تلك الحقبـة الزمنية نقرأ الأنثـروبولوجية الأمـريكية (جيكيتاهوكس) وهى تؤكد أن أقدم التماثيـل التى شكلها الإنسان للتعبد أمامهـا، تلك التى تمثل إناثا مـن البشر ضخمت فيهن الأعضـاء المثيرة جنسيـا، كالأثداء والأرداف والفـروج، وأطلقت (هـوكس) علـى تلك التماثيل اصطـلاح «فينوس الولاّدة»، أى (التى تلـد) ـ وصيفتها الأولى هـى (الولادة). وترى (هوكس) أنـه قد تلى هذا العصـر مرحلة متوسطة قصيـرة الأمد بدأت تظهر فيهـا رسوم تتسم بالذكورة فى تناثر لم يخل بالانتشار الهـائل للتماثيل الأنثوية. وبعد تلك المرحلة المتوسطة تمت العودة الكـاسحة مرة أخرى إلـى تفرد تماثيل الربـات الولاّدات بالمساحـة كلها، وهو الزمن الذى ترافق مع اكتشاف الزراعة فـى العصر الحجرى الحديث، هذا مع العلـم أن أقدم تماثيل الإلهات الولاّدات التـى عثرنا عليها يعود إلى ما قبل خمسـة عشر ألف عام من الآن. وتم افتـراض أنها أول تمثيـل تخيلى لـلألوهـة بحسبان الـدلالات التى كـانت تحيـط بتلك التماثيل كـالزهور والثمار اليابسة والمحـروقة أحيانا التى تشيـر إلى قرابين نباتية كـانت تقدم لتلك الإلهات على محاريبها[١].

وعلينا أن نلاحظ أن زمن أقدم تلك التماثيل (خمسـة عشر ألف عام) قد جاء بعد تراجع عصـر الجليـد بعشـرة آلاف عـام أخـرى، وخـلال تلك الخمسة وعشرين ألف عام حدثت تحولات كبـرى فى البيئـة الطبيعية ألقـت بظلال متغيـراتها علـى المجتمع الإنسـانى وهـو يتشكل، وهـى المرحلـة التى تحتـاج إلى وقفة قصيـرة نلاحـظ خلالهـا نتائج الجـدل الذى

حدث بين متغيرات الطبيعة والإنسان، وأثر ذلك فى تشكيل نماذجه الاجتماعية الأولى وتطورها مع تلك المتغيرات.

والمعلوم أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير تقاسمت الأرض حالتان طبيعيتان : الأولى يمكن تمييزها فى تجمع شرايين الماء فى أنهار بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية، والثانية وضحت فى تصحّر مطرد فى مناطق أخرى أدى إلى خفوت صوت الحياة ونبضها تدريجيا، مع تناثر بقايا تلك الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة. ومع التصحر المتزايد وجدت الجماعة المشاعية الأولى ـ ذات النظام الأمومى ـ نفسها بإزاء متغير طبيعى قاس شحيح بمطالب الحياة. وهو الأمر الذى أدى بالضرورة إلى تفكيك بنية ذلك المشاع تبعا للتفكيك الحادث فى الطبيعة، وهو ما أدى بالتجمعات البشرية إلى وحدات اجتماعية أصغر وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، لأن التجمع الكبير كان يعنى الهلاك جوعا، أو الهلاك قتلا بافتراض أنه لابد قد صاحب شح الطبيعة صراع عظيم على بقاياها الهزيلة، وهو الصراع الذى أكمل إغلاق الدائرة بمزيد من التفكيك والانتشار المتباعد للتجمعات البشرية فى أشكال قبلية أولى.

وإعمالا لهذه الرؤية التأملية وجد الإنسان نفسه فى بيئته المتصحرة أمام أحد خيارين : إما الموت جوعا، أو تدجين الحيوانات التى عاشت بدورها بجواره، بجوار الماء. ومن هنا حتمت البيئة على البدوى اعتماداً شبه كامل على الحيوان ومنتجاته لمعاشه، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه ويلبس صوفه ومن ذات الصوف يحيك خيامه وعليه يحمل أسفاره عند الانتقال من موضع ناضب إلى موضع أكثر فيئا.

وتتابعت سلسلة النتائج المترتبة على المقدمات، حين وجدت الجماعة المتبدية نفسها وهى تتحرك بحاجة إلى ما يحفظ لها تماسكها وقوتها وقدرتها على الاستمرار، فارتبطت بروابط الدم وبالحيوان المدجن المعتمد لحياتها، وبدأت الطواطم تعبر عن تلك الرابطة كحاجة ضرورية لتنظيم يضمن للقبيلة الأمان من الشرود أو النفوق أو الموت، وكانت المصلحة مشتركة، لأن الحيوان وجد أمانه فى الالتحام بالقبيلة لتأمين حياته من الضوارى ومن الجوع، وأصبح الحيوان الطوطم رمزاً للعلاقة المتينة بين أعضاء القبيلة فأصبح أبا للجميع بمعنى السلف الرمزى، فى زمن لم يكن يعرف دور الرجال فى عملية الولادة.

وفى مجتمع قاس بليد تكون الحاجة أشد إلى القوة العضلية التى توافرت للرجال، وكان ظرف المرأة والحمل والولادة لايضعها فى موضع الحاجة العضلية والمجهود الشاق الذى قام به الرجال، ومن هنا كان ضروريا أن يتحول المجتمع الذى عاش زمناً حياة المشاع قبل انحسار الجليد، من مجتمع أمومى النظام إلى مجتمع ذكورى، وساعد على هذا التطور الجديد امتلاك الذكور للأساس الاقتصادى المتمثل فى ترويض الحيوان أو مصارعته، فى مجتمع لايعرف سوى منطق القوة الغشوم، وهى مفتاح ومفصل المسافة بين الحياة والموت. كما أن الصراع الذى نشب لاشك بين القبائل البشرية حول مواطن الحياة فى الصحارى، قد ساعد على تثبيت مركز الذكور السيادى بما يملكونه من مهارات عضلية. وانهار وضع المرأة الابتدائى وفقدت قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة الصحراوى، واقتصرت وظيفتها على إنجاب المزيد من الذكور، وأصبح إنجاب الإناث عبئا يضاف لكاهل الجماعة فهى تحتاج للحماية والطعام، وحدثنا التاريخ القريب عن حل هذه المشكلة عشية الإسلام بوأد البنات أحياء.

وتدنت فى المجتمع البدوى مستويات الإنتاج إلى حد كاد فيه المجتمع البدوى يعتمد اعتماداً شبه كامل على الطبيعة، بالسعى الدائب وراء الكلأ وآبار المياه والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى، أو تطفله الدائم على منتوج العمل عند الطرف الآخر فى المناطق الخصيبة النهرية، التى اتخذت خط تطور آخر وأشكالا اجتماعية أخرى.

وعلى مستوى العقائد فإن الطبيعة المتصحرة الشحيحة الضنينة بأشكال الحياة، جعلت البدوى أحادى النظرة وأحادى الاعتقاد والنظام. فقبيلته كلٌّ فى واحد يتماهى مع الطوطم الأب السلف الأول، وعادة ما تمثل الطوطم فى الحيوانات النافعة، لذلك غالبا ما قدس البدوى مختلف أنواع الشياة والسوائم ذات القرون. لذلك كان السلف المقدس ذا قرنين دوما وهو رب القبيلة الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن لأنه مع الانتقال الرعوى لايوجد وطن، لذلك يتحدث البدوى عن الحمى وليس عن الوطن، ذلك السور الوهمى الاعتقادى الذى يحيط بالقبيلة ويتحرك معها أينما تحركت أو حلّت أو ارتحلت.

ومن هنا لم تسمح الظروف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة فظلت على

شتاتها وتشرذمها، مع تعبّد كل قبيلة لإله خـاص هو الوطن وهو النسب وهو الجد البعيد وهو الحمى، وهو واحد فقط وليس أكثر ولا يمكن أن يتعدد، لأنه الضامن الوحيد لتماسك القبيلة اللزج ومصدر أمنهـا بانصهارها فيـه، وكان طبيعيا أن يكون هـذا السيد الرب ذكراً، لتعبر الفكرة عن قمة سيادة ذكـورية أحادية، لكن الناظـر من بعيد سيرى عدداً هائلا مـن الأرباب تتعدد بتعدد أسلاف وطواطم مختلف القبائل.

هـذا بينما على الطرف الآخـر مـع انزيـاح عصر الجليـد الأخيـر، فى منـاطق الخصـب النهرية، كـان استقرار الأنهار فى مجـاريها بشكل نهائى قـد استغرق زمنا غير قصيـر، وسمح بوجـود بيئة شبيهة بحـال ما قبـل انحسار الجليد، فـامتد الشكل المجتمعـى القديـم، (من النظام الأمـومى) مـدة أطول فـى المجتمعات النهريـة، فقد استمـر انتشار الأحـراش والبرك والمستنقعات والغابـات مما أطال عمر المشـاع الأول عن رفيقه على الجـانـب الصحراوى. وكان استمـرار الأوضاع الطبيعية دون تغييـر كبير ضمانـا لاستمرار مـواز لوضع المـرأة المتميز الذى أكـدته تماثيـل الإلهات الولاّدة، حيـث من الصعـب تصور جماعـة بشرية كـل آلهتها نساء، وسادة الجماعة فيها من الذكور، ويرتبـط بما نقول هنا السؤال الذى طرحه (داروين) : أيهما كان أولا: النظـام الذكورى أم النظام الأمـومى؟ وأجاب داروين عبـر المقارنة مع عـالـم الحيوان، فقال إن السيادة المطلقة كانت للذكـر منذ البدء.. وأكمل (آتكسون) الإجابة فقال أنه قد حدثت ثـورة من الأبناء على الأب القاسى المتوحش المتسلـط، فقتلوا الأب وافترسوه سويا. ويتابع (روبرتسون سميث) رسم سينـاريو الأحداث لإضاءة المشهد التاريخى فيؤكد أن النظام الأمـومى ظهر إبـان تلك الحقبة تحـديداً. لينهى (فـرويد) استكمال المشهـد بناء على ما سبق فيقول وعـادت الأوضاع إلى ما كانت عليه أولا، وساد الـذكر مرة أخرى[٢]. هذا بينما كان هناك اقتراح آخر قوى الأسانيد يـرى أن النظام الاجتماعى الأول كان أموميا بلا أدنى شك، كما نرى مثلا عند (إنجلس)[٣].

وكان موقف كاتب هذه الورقة هـو رفض السؤال نفسه : (أيهما كان أولا النظام الأمومى أم الأبوى؟) بحسبـان الخطأ فى السؤال نفسه ومن هنا كـانت التوطئـة بالحديث عـن شكلى المجتمع الذى تركتـه انسحابات عصر الجليد الأخير : شكل بدوى وشكـل خصبى، فانتهى الحدث الطبيعى إلى تمييز بيئتين، وبالتالـى تمييز شكلين للتجمع البشرى عن بعضهما رغم

تزامنهما فـى الظاهر كناتج انحسار الجليـد، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمـانيا، وهو الزعـم الذى يحتاج إلـى تأييده بقـرائن، ستأتى على متـن شرح موضـوع الورقة المعلـن فى عنوانها.

٢ ـ الزمن الأمومى[٤] الأول :

إذن انتهى عصـر الجليد ليترك مجتمعـا بدويـاً يسرع بالانتقـال من العصر الأمومى الأول إلى الأبوى الذكرى، بينما استمر وضع شبيه بالوضع المشاعى فى وديان الأنهار الخصيبة.

وعندما لم تكن هناك قوانين مكتـوبة أو حتى متفق عليها، كان المجتمع الابتدائى الأول يعيش بساطة الطبيعة، يتناغم معها ويضبط إيقاعه مع حركاتها، فعاش حالة المشاع الأولى إبان مرحلة جمع الثمار والصيد، دون حاجة إلـى تنظيم اجتماعى صارم، وانحصرت حاجاته فى تأمين القوت والأمان من غوائل الطبيعة وضواريها.

وكان الـرجال بحكم التكويـن الفسيولوجى هـم فى الأغلب القـادرون على ممارسة مخـاطر الحصول على الطعـام البروتينى زمن الصيـد، بمطاردة الحيوانات المـلائمة واصطيادها إضـافة إلى جمع الثمـار، بينما كانت المرأة التى تنجـب مبكراً جداً مضطرة إلى الاستقرار بجـوار أطفالها تحميهم وترعاهم، وعندما يعود الرجال من الصيد يكون كل الرجال لكل النساء.

ومـن هنا وبقـوانين البسـاطـة الطبيعية أمكـن للمرأة أن تحقـق وضعـا اجتماعيـا متفوقـا لأسباب معلومة. وقد أهلها لهذا الامتياز قدرتهـا على الولادة والإنجاب، ومنح حياة جديدة. تلك الظاهرة التى لاشـك أبهرت الرجل وجعلته يشعر أن هذا الكائن الـذى يبدو أضعف منه بدنيا، يملك إمكانات سحـرية عالية. لقد كانت ظاهرة الحمل والـولادة مع التناغم الكامل للبشر مع الطبيعة مدعاة لفكرة أولى بسيطة، وهـى أن المرأة جزء من ظاهرة الخصب الكونية الولاّدة، كالأرض التى تنبت المحاصيل والثمار والأنهار. بـل إنها الظاهرة الأكثر وضوحاً وقوة لحظة دفع الوليد من البطن إلى الدنيا.

وهكذا تـأسست علاقة المـرأة بالقوى الطبيعيـة الخارقة المعطاءة، فحـازت أول فروض التقديس والرهبـة والاحترام، وحققت وضعا اجتماعيا أكثر تميزاً من الرجل، أهّلها لـه تناغم

تكوينها وظروفها البيولوجية مع الحاجات الطبيعية للبشر آنذاك، والذين كانوا بحاجة إلى تكاثر أعلى لتحقيق كثرة مجتمعية قادرة على مواجهة غوائل الطبيعة المفاجئة ووحوشها الضارية وفوضاها الدائمة.

وبالتدريج تمكنت المرأة من دعم هذا الوضع المتميز وتنميته، حيث كان بإمكانها وهى مستقرة مع أطفالها أن تلاحظ سقوط الثمار على الأرض ثم عودتها للصحو والإنبات والإثمار مرة أخرى، فأعادت المرأة التجربة فنجحت فى اكتشاف الزراعة، تلك الخطوة الأولى التأسيسية نحو قيام مجتمعات إنسانية حقيقية مستقرة.

وعندما عاد الرجال من غيبتهم فى صيد الطرائد فاجأتهم المرأة بهذه القدرة الجديدة، وبذلك لم تعد فقط جزءاً من الخصب الكونى القدسى، بل يبدو أنها قادرة على ترويض الطبيعة وجعلها تلد بإرادتها كما تلد هى. ومن هنا أخذت تتحول إلى إلهة كبرى ليست ككل الإلهات والآلهة، لأنها أصبحت ربة الخير والخصب والعطاء والولادة والنور.

وفى ذلك الزمان لم يكن بإمكان الذكر إدراك دور فى عملية الحمل والميلاد، فتصور تلك قدرة أنثوية بحتة، فما كان لعينه وهو على مدارج بدائيته يحبو، أن يربط بين الفعل الجنسى وبين فعل الولادة، لأنه أولا كان الجميع يمارسون الجنس مع الجميع، وهو ما يجعل المرأة يتناوبها أكثر من رجل، وبالتالى ما كان بالإمكان لأحدهم أن يدرك علاقته بالمولود، هذا إضافة إلى المدة الطويلة التى يستغرقها الحمل ما بين فعل الجنس وفعل الولادة، التى لا ريب ساهمت فى عدم إدراك الذكر لدوره. كما كان الأطفال يمارسون فى تلك الحقب الفعل الجنسى بشكل اعتيادى، ولم يكن ينتج عنه حمل ولا ولادة. وهى جميعا الأمور الذى أدت بالذكور إلى اليقين أن فعل الولادة اختصاص أنثوى بحت ليس للذكر دور فيه.

وقد عزز هذا الرصيد للأنثى ملاحظة الإنسان لدم الحيض وهو ينزل شهريا فى مواقيت محددة، ثم يختفى مع الحمل ولا يعود إلا مع الولادة، فوضع تصوراً أوليا وهو أن الدم هو مادة الحياة الأولى، وأنه يختفى داخل البطن لأن منه يتشكل الوليد الآتى، بفعل خاص من المرأة وحدها. ودعم الفكرة ملاحظته أن الجروح النازفة عادة ما تؤدى إلى الموت فى بيئة كان فيها الجرح هو ذلك المتكرر الدائم، وكان الموت بالنزف يعنى لديه خروج سائل الحياة

(الدم) من الجسد مما يؤدى إلى خموده وفنائه.

وأدت محاولات حفظ الطعام بالمرأة إلى تطوير الأشياء من حولها، وتأملها والتدخل فيها لتؤدى وظائف جديدة فى عمليات تطويع وخلق.. أليست إلهة؛ كانت بداية الحفظ فى وسائل الطبيعة الجاهزة مثل شق ثمرة جوز الهند لتصبح وعاءين، لكن أولى أوانى عثر عليها الباحثون تأخذ شكل الاختراع، كانت تتسم بالطابع الأنثوى الواضح، لأنها جميعا كانت متكورة كالثدى أو البطن. ومعنى ذلك أن المرأة كانت أول مخترع، بعمل الأوانى الفخارية. وعندما تعرض الطعام المحفوظ للتخمر (وعادة كانت حنطة)، وعاد الرجال من ارتحالات صيدهم ليتناولوا حنطة مخمرة تدور بها الرؤوس، لتنحنى إجلالا لهذا السحر الذى أدى للتأثير المباشر فى الأجساد بمزيد من النشوة الأنثوية.

وإذا كانت (ميد MEAD) قد استنتجت ذات الاستنتاجات وانتهت إلى أن مسألة الولادة تحديداً قد أدت إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة، فإنها وضعت يدها على اللحظة المفصلية لبدء انحدار وضع المرأة المجتمعى وصعود الرجل، وهى لحظة اكتشاف الزراعة، التى أدت إلى استقرار الذكور بجوار النساء انتظاراً لنضوج المحصول، ومع هذا الاستقرار كانت بداية الانزلاق السريع لوضع المرأة[٥].

كان الانتظار والاستقرار ظرف المرأة الملازم لها انتظاراً للحمل حتى نهايته، ومع اكتشاف الزرع واستقرار الذكر ينتظر بدوره، أدى إلى تدريب الذكر على الملاحظة. وقد لاحظت (هوكس) أن سيادة الذكور النهائية قد اقترنت بقيام القرى الأولى المستقرة، منذ حوالى خمسة آلاف عام من الآن.

وهكذا استبطن الأساس الاقتصادى لوضع المرأة المتميز اجتماعيا بذور سقوطها عن عرش سيادتها، ومتضمنا فى بذور اكتشافها لدورة بذور النبات. فكان استقرار الذكور الذى تواكب مع قطع الغابات والتحقيل وما احتاجه ذلك العمل الجبار من قوى عضلية طورت الكشف التأملى للمرأة، كذلك ما احتاجته الأعمال الجديدة من تدجين لأنواع قوية من حيوانات يمكنها جر الأشجار المقطوعة وحراثة مساحات واسعة وحمل المحصول إلى مخازنه، وهو جميعه ما احتاج دوما للعضلات فصعد نجم الذكر، الأمر الذى انتهى بتبادل المواضع السيادية. وقد عجل بهذا التبادل هبوط الموجات البدوية المهاجرة المعروفة

بالهجرات السامية على الهلال الخصيب، فى ذات الزمن الذى حددته «هوكس» لقيام القرى المستقرى الكبيرة، فقد بدأت تلك الهجرات قبل حوالى ثلاثة آلاف عام من الميلاد.

٣ ـ فلسفة الدم (وضع المرأة فى المجتمع الذكورى الأول) :

الملحوظة الجديرة بالاهتمام بصدد الهجرات السامية، إنه بعد هبوطها على الهلال الخصيب (وهو نموذجنا هنا) تلى ذلك توحيد المدن الدول فى أقاليم كبرى ثم فى دولة مركزية واحدة، كان أول مؤسسيها (سرجون الأول الأكادى)، دولة ذكورية كاملة ونموذجية، استمرت الإلهات الإناث فى عالم العقائد بكثافة، لكن بعد دخول عالم الآلهة آلهة ذكور أهمها إله الدولة الحاكمة.

والنقوش التى تركتها لنا فنون الهلال الخصيب تصور الإلهة الأنثى عادة تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة أو تصور الحنطة كنقش على ثوبها. ولنلحظ أن الحنطة هى أول نبات تم تدجينه وافتتح به عصر الزراعة، مما يفسر لنا تاك النقوش، فالمرأة كانت أول من دجن الحنطة، وأحيانا كان يتم استبدال الحنطة بعرجون البلح والنخلة. ونظن أن كلمة تمر (ثمار النخلة) بدورها تشكل أحفورة لغوية تشير للبدايات الأولى، فالكلمة تمر ـ فيما نظن كانت الأصل اللغوى الذى تم تعميمه على جميع الثمار من بعد.

وحتى اليوم يعد البلح من الثمار المباركة التى تعالج كثيراً من الأوجاع فى تقارير منظومة المنطقة القدسية، فهذا الثمر كذلك فى الإسلام، وفى رؤية الإسلام للمسيحية، فقد أولد الإسلام مريم تحت جذع النخلة، ولا يخفى **﴿وهزى إليك بجذع النخلة﴾** ما فى فعل (الهز) من رمزية واضحة، ترتبط بالثمرة الأولى المقدسة.

ومع الاستقرار لاحظ الرجل دوره فى عملية الحمل والميلاد، واكتشف دوره الذى لا يقل أهمية عن دور الأنهار أو الأمطار للأرض كى تلد، واكتشف أن منيه الذكورى هو ماء الحياة وبدونه لا يمكن الميلاد، فشعر بدوره المتعاظم وكان لابد أن يرقى سلم الألوهية بدوره، ومن هناك قام يسلب الإلهات الإناث أدوارهن تدريجيا حتى يسود مملكة السماء أيضاً.

والتساؤل عن مزيد من تبرير سر قدسية حبة الحنطة والتمر وارتباطه بالأنثى، نحيله إلى شكل حبة الحنطة ونواة التمر، إنها فرج صغير يكاد يطابق فرج الأنثى من حيث الشكل، وأنه

كما يروى فرج المرأة بماء الذكر تُروى حبة الحنطة ونواة التمر بالماء فتنفلق عن حياة جديدة.

إذن لاحظ الذكر وهو يتأمل أهمية الدم الحيضى حتى اعتبره المادة الخام للحياة وسرها، فتعبد إلى إفروديت الولادة وتعبّد إلى تماثيل فى هيئة قضبان ذكرية وفروج أنثوية، عثر عليها أيضا فى تلك الحقب، كذلك كان لابد أن يقدس ويعظم ويبجل مادة الحياة الأولى والأكثر طهارة من كل المواد (دم الحيض) تحديداً.

ونتذكر أن أول قصة خلق كانت بسيطة ببساطة البدايات الأولى، لقد ولدت الإلهة الأم الكبرى كل الكائنات الحية جميعا كما تلد الأنثى البشرية مواليدها. وقد بقى عن تلك القصة ذكريات تمثلها أسطورة (الشعير والنعجة) السومرية، وتقول الأسطورة: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والدود وبقية صنوف الحياة (ولا تفوت عين مدققة دلالات عنوان الأسطورة، فالنعجة هى رمز أنثى الإنسان الأشهر/ مثلا قصة داود والتسع وتسعين نعجة / أما الشعير فهو حنطة الأنثى واكتشافها الأول).

لكن بعد الهجرات السامية الكبرى، وقيام دول ذات حكومات تسارعت خطى التحول نحو سيادة الذكر نهائيا فى عالم السماء كما فى عالم الأرض، ونموذجاً لذلك أسطورة من بلاد الرافدين تمت صياغتها مرتين، المرة الأولى زمن الحضارة السومرية القريبة من أيام سيادة الأنثى، لذلك اتسمت بملامح سيادية نسوية واضحة، أما الصياغة الثانية لذات الأسطورة فقد تمت مع قيام أول مملكة كبرى فى الرافدين السامى هى مملكة الأكاديين، ومع الصياغة الجديدة اختفى دور المرأة من عملية الخلق تماما.

تقول الأسطورة فى صياغتها السومرية أن الإلهة (إينانا) واسمها يعنى (E أى بيت + AN لفظ سيادة = سيدة البيت) كانت تهبط إلى عالم الموتى فى باطن الأرض بشكل دورى كل عام، بتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجدب بغيابها، وهى فى الأسطورة الإلهة الأم الولّادة مانحة الحياة، ثم تعود الإلهة إلى سطح الأرض مع الاعتدال الربيعى «فيعود الخروف إلى شاته والثور إلى بقرته والزوج الغاضب إلى بيته»، فعودتها كانت عودة الخصب وتفتح الأزاهير، عودة عملية الإخصاب والتوليد والخلق.

ومع دخول البدو الأكاديين وقيام دولة كبرى، تم إدخال تعديلات جوهرية على الأسطورة، فاستبدل اسم (إينانا) ، باسم(عشتار) من العشرة والمعاشرة والتعشير (أى

الجماع). لكنها لاتصبح السيدة المسئولة عن الخصب حيث يظهر سيد جديد ذكر كان فى الأسطورة السومرية مجرد ذكر خامل الذكر ضمن عديد من عشاق (إينانا) تذكرة بالزمن الأمومى الأول، وتعلو مكانة هذا الذكر (تموز)، ويصبح هو المسئول عن الخصب والحياة، ويحوز لقب (تموز راعى الخراف الطيب)، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجدب ويهبط إلى عالم الموتى عند المنقلب الخريفى، ويعود حيا عند المنقلب الربيعى فتعود بعودته الحياة الأولى للأرض، بل وتبدأ الأنثى تتسم بالشرية لأن الأسطورة الأكدية جعلتها (المرأة أو عشتار) هى التى تسلمه لزبانية الجحيم فيهبطون بالراعى الطيب إلى عالم الأموات. لقد بدأت من هذه اللحظة سلسلة التبخيسات التى لحقت بالمرأة.

لكن المرأة ظلت تتشبث بعالم السماء ولم تتخل عنه بسهولة، عملا بقاعدة استمرار بقاء واستمرار المأثور التقليدى مدة أطول من مدة التغير فى الحضارة المادية. بقيت المرأة تتشبث عالم الألوهية حتى زمن (مريم) فى المسيحية. لكن الملاحظ دوما هو تواريها التدريجي خلف البطل الذكرى، فأصبح الدور الأول فى الأساطير المصرية للإله الذكر (أوزيريس) رب المياه، خاصة أنه قد أصبح أيضاً رباً للزرع والخضرة وهما اختصاص الإلهة (إيزيس)، التى كانت صاحبة الصدارة فى الأصل الأول لأسطورة الزرع المصرية، وفى كنعان أيضا توارت الإلهة (عنات)، وأخذ دورها فى الهبوط إلى عالم الموتى والعودة ذكرها وسيدها (بعل) الذى أصبح ربا للخصب بدلا من (عنات).

وضمن ما بقى من تأثيرات الزمن الأمومى ووصلنا عبر آثار الممالك فى المنطقة، طقس توعز قراءته أنه يعود إلى زمن أمومى خالص، وظل يمارس حتى زمن قيام الدول الكبرى، كان هذا الطقس احتفالية جنسية عمومية هائلة ينسى فيها الجميع أى قرابات بينهم، فى حفل نزوى عظيم يلتقى فيه جميع الرجال بجميع النساء بشكل عشوائى، وكان يمارس فى أيام محددة حول معبد الإلهة عشتار. وكان أشرف الأعمال فى سومر القديمة هو التضحية بالبكارة فى هيكل الربة الأم الولود المخصبة الشبقة مانحة الحياة تذكرة بتلك الأيام الخوالى، أيام كان كل الرجال لكل النساء فى مجتمع أمومى خالص.

وإذا بدأ ذلك الحفل العربيد ممجوجا وفق أذواقنا الأخلاقية اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى تلك الأزمنة، بل كان واجبا دينيا وفريضة تقدمها المرأة للربة كى يفشو الخير وتأتى



السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية فى الطبيعة تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه. وليس أدل على جلال هذا الطقس وشرحه من تلك اللوحة التى عثر عليها فى طرالس بليديا، منقوشة على عمود مرمرى يعلن أن الشريفة (أورليا آماليا) قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة، وما فعلته كان شرفا معلوما فى أسرتها خلفا عن سلف، فقدمت أمها وجدتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك.

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، لأن (مريم)تعتبر أم المسيح الإله الابن من الإله الأب رب السماء، وتستوجب احتفالية خاصة بها تقدسها، لذلك اختصت دون الأقانيم الثلاثة بصوم العذراء، الذى يصوم فيه المسيحى عن كل ما هو حيوانى ويقتصر فى طعامه على النبات وحده، تذكرة لالبس فيها بالمجتمع الأمومى الأول فى البيئة النهرية عندما كان يستغنى عن اللحم معتمدا على الوفرة النباتية، فى منظومة قدسية تسودها أم إلهية مخصبة. ولا ننسى التبادل بين الكلمات نبات وبنات. (نبت وبنت/ بنى: فى العربية فعل يعنى : يمارس الفعل الجنسى).

واللغة عادة تحمل دلالات إحفورية تحمل الخبرة القديمة وما تركته من مفاهيم، فالكلمة قديسة، وتوصف بها السيدة (مريم)، هى فى اللغة العبرية (قديشا) وفى الأكادية (قاديشتو)، وكان لقب المرأة العشتارية، التى يتم اصطفاؤها من بين جموع النساء الحاشدة حول معبد (عشتار)، ليلة الحفل النزوى العظيم، لتقوم بدور الإلهة داخل المعبد فى هيكل عشتار، ويقوم الكاهن الأكبر وعادة ما يكون الملك بدور الإله الذكر، ويبدأ الحفل النزوى بإشارة هى بدء المضاجعة بين الملك والمرأة المصطفاه[(٧)].

أما بعض سعيدات الحظ فكان أهلوهن يقدمهن طائعات للمعبد لممارسة النزو القدسى عند الاحتفال الكبير، فإذا أنجبت نُسب الوليد إلى الإله، وتأخذ هى لقب (بتول) فى الاحتفالات الكنعانية، و(بتولتا) فى الحفل النزوى الأكادى، و(بتولا) فى العبرية وتعنى الأنثى غير المتزوجة، لكنها الخصيبة الولود فى آن معا[(٨)]. وغنى عن الذكر أن (مريم) كانت من المنذورات للمعبد اليهودى.

ولأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية (دم الحيض)، فإن

سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب وسيادة النظام الأبوى، كان لابد أن تعيد إنتاج القصة بما يتفق والشكل السيادى الجديد، ولأن مفهوم الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكورية إلى صياغة جديدة وحيلة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لايلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر احتاجوا إلى مادة الحياة (الدم) فقاموا بذبح إله يدعى (كنجو)، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان الأول، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية (إينوماإيليش) أو (فى العُلى عندما) [٩].

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطا آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى (تيامه) إلهة شريرة. أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة (مردوخ) بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد. ثم قام (مردوخ) بشق (تيامه) كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم الأول العلوى وجعله سماء وترك النصف السفلى ليصبح أرضا [١٠].

٤ ـ وضع المرأة فى قصة الخلق التوراتية :

الكتاب المقدس/ العهد القديم منه تحديداً والمصطلح على تسميته باسم التوراة رغم أن التوراة تُطلق فقط على الأسفار الخمسة الأولى معه، كتاب تشكل فى ظل نظام ذكورى تماما، فهو لايذكر أو يتعرض للنساء إلالماما، ويستحسن فى الغالب عدم ذكرهن، حتى أن التعداد الرسمى لبنى إسرائيل فى أكثر من موضع كان لايضع النساء ضمن التعداد، ومع ذلك فقد بقيت فى المأثور التوارتى مجموعة إشارات تعود إلى ذكريات عن الأصول الأمومية الأولى.

لاحظنا فى التوراة مثلا أن المعرفة الكشفية ترتبط بالمرأة ارتباطا وثيقا، مما يؤكد اعتراف الذكور الابتدائى بالقدرة التأملية والمعرفية الكشفية للمرأة، قياساً على القدرة العضلية للرجل، والتوراة تربط بين المعرفة وبين الفعل الجنسى مع امرأة، فهذا الفعل يدعى لغة (معرفة) فالقول أن فلانا قد عرف فلانة نعنى أنه قد مارس معها الفعل الجنسى الكامل

المؤدى إلى الولادة ومجيىء حياة جديدة، والمصطلح واضح كما فى النصوص :

وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك «تكوين ٤/ ١٧»

وعرف آدم امرأته أيضا فولدت ابنا ودعت اسمه شيثا «تكوين٤/ ٢٥»

وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين «تكوين ٤/ ١»

وكانت معرفة آدم الأولى فى الجنة ناتج عصيانه الأمر الإلهى بعدم أكل ثمرة بعينها، لكن الحية أوعزت لحواء بأكل الثمرة المحرمة، وأوعزت حواء بدورها لزوجها آدم، فأكلاها، أو بالنص :

فأخذت من ثرها وأكلت وأعطت رجلها معها

فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاط

أوراق تين وصنعا لأنسهما مآزر «تكوين ٣/ ٦ , ٧»

وهذه الشجرة تسميها التوراة (شجرة المعرفة) والثمرة رمز المضاجعة التى تثمر بالولادة، وهو الفعل الذى أدى إلى معرفة آدم أنه عريان ولم يكن يعرف كذلك من قبل، فالقصة ترميز واضح للفعل الجنسى مع حواء ومعها عرف آدم وتعلم، والحية كما هو معلوم فى الأساطير ذات قيمة مزدوجة، فهى من جهة رمز القضيب الذكرى الذى أغوى حواء إبان حالة العرى الأولى، وهى من جانب آخر رمز الخلود، فقد رآها الإنسان الأول تنسلخ من جلودها كل عام فتصور أن ذلك موت ثم حياة جديدة، فهى خالدة بمعنى أنها تولد من جديد كل عام. وكانت ملاحظة تشنجات جسد الحية وهى تنسلخ من جلدها القديم تشبه تماما تشنجات الفرج الأنثوى إبان إنسلاخ الوليد منه لحظة الولادة، لذلك حملت الأنثى بالتشابه فى ظل السيادة الذكرية تلك القيمة الثنائية، فهى فى العبرية حواء، لكن الكلمة حواء حملت فى مفهومها جذر الحياة، ومن جانب آخر ارتبطت بالحية مصدر الأذى والشر. ولنلحظ الارتباط الجذرى بين حواء وحياة وحية و(حيا : أى فرج الأنثى)، لكن ليتم بعد ذلك إعادة تفسير ذلك المأثور لتبخيس المرأة وليس التذكير بوضعها المتميز، فتصبح هى التى أوعزت لآدم بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، ففقد الرجال بسببها الخلود، وبحيث تتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

ولنعد إلى نصوص التوراة نقرأ ما حدث.

تحكى التوراة أن الله قد خلق ذكراً أسماه آدم، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيداً لا يجد أنيساً يؤنس وحشته. وهنا قرر الرب تسلية آدم والترويح عنه بخلق كائن يقوم بهذه المهمة، الترويح عن الرجل فقط هذا كان سبب وجود المرأة (؟!!) وكان هذا الأنيس هو المرأة التى خلقها الله من أحد أضلاع آدم:

هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت. «تكوين ٢/ ٢٣»

النص هنا يجعل امرأة تأنيث من امرء وليس العكس، ليظل الرجل أولاً، رغم أن قوانين اللغة السليمة لا تقول كذلك، وتتبع المرأة الرجل فى الخلق فهى جزء من جسده، وفى المسمى اللغوى، لكن بالتوراة نفسها جينات موروثة تشير لأضواء باهتة لزمن قديم، فتعين لتلك المرأة اسماً آخر تعرف سببه وتفسره فتقول:

ودعاً آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى «تكوين ٣/ ٢»

وتفسر لنا العبرية تعبير (أم كل حى) بأنه (تلك السيدة التى تحييى) : (؟!)

إن قراءة الأساطير القديمة بحثا عن اسم (إمرأة) لا نجدها تابعة لامرء بل العكس تماما، فالميم للأمومة، ولا تجد إلهة قديمة كبرى يخلو لقبها من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلى (مى) والأم الإلهة تحمل أحد الألقاب (ما، أماه، ماما، مامى)[١١]، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط الشرقى حملن الألقاب (ميرها، ميريا، ميريام، ستيلاماريا، مريم)[١٢] والميرة هى الزاد، كمكتشفه أولى للزراعة، لأن الميرة عادة تطلق على مخزون الحنطة والبلح تحديداً. أما ميرها فهى شجرة المر المقدسة التى أنجبت الآلهة المذكور.

أما الكلمتان : أنثى وحواء فتضيؤها لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان كانت تعيش فيه الآلهة خالدة اسمه (ديلمون) ويعادل أوليمب اليونان. وهناك جاء إلى الوجود إله (آن ـ جى) بداية للبشرية على الأرض، رعيلاً أولاً يجمع اللاهوت مع الناسوت أو الألوهية مع البشرية، واسمه ملصق من مقطعين يشير إلى أنه أول من سكن الأرض فهو (آن = سيد + جى = الأرض - سيد الأرض).

وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى الكونية (ماما هورساج) هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثماراً بعينها فى ديلمون حرصا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى فأكل تلك الثمار، فأصيب بمرض شديد فى أحد أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرعت (ماما هورساج) بخلق إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع والعمل على شفائه، وكان اسم هذه الإلهة هو (آن ـ تى)، وهو اسم مركب من مقطعين (آن) وتعنى السيدة، و(آن) عندما تأتى بحسبانها اسما فهى تعنى السيدة، و(تى) عندما تأتى بحسبانها اسما فهى تعنى الضلع (آن تى= سيدة الضلع)، لكن (تى) عندما تأتى بحسبانها فعلا فإنها تعنى (أحيا) أى يصبح المعنى (السيدة التى تحيى)، أو كما فى التوراة (أم كل حى)[١٣]. ثم يلقى الاسم (أنتى) فى الأسطورة الرافدية الضوء على أصل الأسطورة التى حورت فيما نقله المأثور التوراتى عن الأصل الرافدى، لتكون حواء أو (أنتى) مخلوقة من ضلع آدم، أما (أنتى) فواضح تماما أنها أصل المصطلح (أُنثى).

٥ ـ آخر ملاحم التبخيس المقدس للمرأة :

عندما ظهر المسيح فى وسط يهودى مائة بالمائة لم يزعم أنه قد جاء بجديد، بل أكد أنه ما جاء لينقض الناموس بل جاء ليكمل، ومن هنا سلم بكل التوراة وضمنها قصة الخلق ووضع المرأة فى منظومتها. لكن مقاطعة الجليل التى ظهر فيها المسيح دون بقية المقاطعات الفلسطينية كانت تموج زمن ظهور بعقائد واردة من مصر وفارس تتحدث جميعا عن آلهة فدائية جاءت وعاشت وماتت وقامت من بعد الموت فى عيد للقيامة مجيد، آلهة أشهرها بعل وأوزيريس وتموز وأدونيس وميتهرا، كلها تعرضت للموت وقامت كما يقوم الريح، لذلك فإن المسيح قدم نفسه من خلال تلك الصيغة الزراعية لكن على أرضية كاملة البداوة عبرية تماما. ومن هنا حاول المسيح من البدء تأسيس مبادىء خصبية، لكن لم يمض على اختفائه عدد من العقود حتى تحولت المسيحية لتفترش خلفيتها البدوية الكاملة مرة أخرى.

لقد كانت الأصول الزراعية أساسا متينا لوجود مريم على رأس العقيدة المسيحية، مريم

الحكيمة البتول التى تصب منها النعم. نموذجا واضحا لبقايا السيادة الأنثوية العارفة المؤلهة. وحتى زمن القديس يوحنا فم الذهب كانت العلامة بالمرأة مصدراً للمعرفة، وأسطورته تحكى أنه كان طفلا متخلفا فى دراسته فذهب ووقف يصلى أمام تمثال العذراء لتساعده فدبت الحياة فى التمثال وخاطبته العذراء: «يوحنا تعال وقبل شفتى وسوف تحل عليك المعرفة، لاتخف». وبعدها أصبح يوحنا أحكم أهل زمانه حتى لقب بفم الذهب(١٤).

ورغم أن اليهودية كانت قد حظرت على النساء الصلاة داخل المعبد أو المشاركة فى أعمال الكهنوت، لأنها اقترفت الخطيئة الأولى وأخرجت الذكر من الجنة، ولأنها أصبحت مسئولة عن الشقاء وعن الموت. فإن المسيح قد حرص على إبراز مخالفته، لذلك فكان يحرص على الحديث مع النساء باعتبارهن كائنات بشرية كاملة، بل وأشركهن فى نشاطه التبشيرى «**على إثر ذلك كان يسير فى كل مدينة وقرية يكرز ويبشر بملكوت الله ومعه الإثنى عشر وبعض النساء.. مريم التى تدعى المجدلية.. ويوانا امرأة حوزى وكيل هيرودتس وسوسنة، وأُخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن / لوقا ٨/ ١ ـ ٤**».

لكن ما كان ممكنا العودة بعد كل هذا السلطان الذكورى الكامل، فتراجعت فكرة المساواة التى نادى بها الإنجيل، وتحول الأصل فى الحريات الجنسية وفق المنظومة الخصيبة إلى نقيضه تماما، وذلك بفضل (بولس الرسول) الذى شرع تغطية المسيحية لرأسها أثناء الصلاة، مع إعادة تأكيد موقف التوراة فى قوله لأهل كورنتوس : «**ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل / كورنتوس ١١/ ٩**».

وبالغ بولس فى التصويب على سيده المسيح، رغبة فى مزيد من تبخيس المرأة قدسيا فقام ينادى :

أيها النساء : تخضعن لرجالكم كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء».

(رسالة بولس إلى أفسس ٥/ ٢٢ـ٢٤.)

أما على مستوى المعرفة فقد جاء الأمر من رجل أصبح كلامه مقدسا فى قولة شهيرة تعلن أمراً إلزاميا :

لست آذن للمرأة أن تعلم (؟!!)

ولا تتسلط على الرجل، بل تكون فى سكوت«رسالة بولس لتيموثاوس ٢/ ١١»

ويأتى القديس ترتوليان ليعقب على موقف بولس من تجهيل المرأة لأنها بعلمها كانت تتسلط على الرجل، ويوجه الخطاب للمرأة المؤمنة فى زمنه يناديها مفسراً أسباب هذا الانقلاب التاريخى:

«لايجوز لك أن تخلعى عن جسمك ثياب الحداد، بل عليك أن ترتدى الأسمال وتغرقى في الحزن والندم كى تكفرى عن خطيئتك فى دفع الجنس البشرى إلى الهلاك.. إنك يا امرأة باب الشيطان، فأنت من لمس شجرة الشيطان ومن انتهك فى الأول الناموس الإلهى»(١٥).

وهكذا، وعلى أصول مغلوطة توراتية، لأصول سومرية أسطورية، صدر الحكم التاريخى ضد المرأة. وتتابع القديسون المصابون برهاب المرأة أو بالقصور عن التواصل معها، فيبالغ القديس (بيرونيموس) فى رفض العلاقة الجنسية إلى حد اعتبار أن الزواج هو عطية الخطيئة، وانتهى زمن المشاع واحتفالات الخصب النزوية إلى نقيض صارخ يمجد العذرية وعدم الزواج باعتبارها ذات المكان الأعلى فى الجنة المسيحية. يصدر (جراسيانوس) مرسوما فى ١١٤٠م يقول :

إن صورة الله ماثلة فى الرجل الذى خلق أوحداً، وجعل أصلا للكائنات البشرية قاطبة. وقد أعطى من الله السلطة لأن يحكم بوصفه نائبه لأنه صورة الإله الأوحد. ولهذا السبب لم تخلق المرأة على صورة الرب(١٦).

ولوجود مشكلة فقهية داخل مؤسسة الفكر الدينى المسيحى أدت إلى انقسامه حول طبيعة (مريم) وهل هى إلهة من الأصل حتى يمكن لبطنها حمل الله اللامحدود؟ أم هى إنسانة ومجرد وعاء. البعض تمذهب ذراعيا وألّه مريم، أما الآخرون فقد خلعوها من على كرسى الألوهية، حتى يمكنهم القول لنساء الأرض أن الرجل هو الذى يلعب الدور الكامل

وحده فى المواليد، أمـا المرأة فمجرد وعاء أو إنا مؤقت. لأن الله كان صـاحب الدور الكامل فى ميـلاد يسوع المسيـح، ولا وجود إلا لجنـس واحد كـامل هـو الذكـر، أما المـرأة فلو حتـى كرمناها لقلنا أنها ذكر ناقص، إضافة إلى كونها قد سقطت فى امتحان الجنة.

وطوال العصـر الوسيط كـانت الشروح علـى مرسـوم (جراسيانـوس) تستشهد بأفـلاطون الذى رفـض عقاب المرأة لأنها ليسـت كائنا يعقل كـالإنسان الذى هـو فقط الرجل بـل هى أقرب إلى البهائم. وبـالتاريخ الطبيعى لبلينى حيث يقول: «الحيـض يمنع الانتعاش ويقتل النبات ويصدأ الحديـد ويصيب الكلاب بالسعار». وتحولت المادة الأطهـر إلى أكثر المواد نجاسـة وسببا فى تبخيـس المرأة. واقترن تمجيد العـذراء بتنجيس جنسها جميعـه، حتى أن الكلمة (Femina/ إمرأة) مركبة من مقطعين (Fele Minus) أى (إيمان أقل).

وعندما جاء الإسلام كان الموقف من المرأة قـدتأسس قدسيا، فالذكر هو المخلوق الأول وهى الثانـى، وهى قطعة منه خلقـت من أجله، وتمت إعـادة حواء إلى زمن الخطيئـة الأولى الأسطورى ليمركـز الشر كله حولهـا، فهى شيطان غوايـة لأنها رفيقة إبليس، وهـى لا تتحكم بشهواتهـا، ولا تكون مـع رجل إلا وكـان الشيطان ثـالثهما، حتـى قصص الأنبيـاء تخبرنـا أن نساءهن قـد وقعن فى الخطيئة مثـل امرأة لوط وامرأة نـوح، وهاروت وماروت أغوتهمـا امرأة، وكانا ملائكة مكـرمين، وولدا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضـع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعـى أن تخون، فهى أحد أربعة خوانين، فى مـأثور يقول: «أربعة لا أمان لها : المال ولو كثر، الحـاكم ولو قرب منك، الدهر ولو صفا، المرأة ولـو طالت عشرتها»، خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهـادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الـرجل، «ولـو كنت آمراً أحـداً أن يسجد لغيـر الله لأمرت المـرأة أن تسجد لـزوجها» حديـث نبوى، و«الكهنة رسـل الشيطان والنساء مصـايده» حديـث نبوى، هى مجـرد جسد ومتاع للمتعة كـأى متاع، أصبح غير مطلوب منها أن تفكـر فهناك من يفكر بالنيابـة عنها. هى مجرد فرج لذلك هـى حرمة وحرام، صوتها عورة، ورضا زوجها عنهـا رضا من الرب والناس. والمـرأة النموذج هـى التى لا تعـرف عن نفسهـا سـوى كونهـا عورة وحـرم لا يجوز لمسـه إلا لصاحبـه المالك الأوحد، الأب ثـم الزوج. وهى ناقصـة دين لأنها نجسة وطبيعتهـا النجس والفعل الجنسى معها يؤدى إلى النجس كالموت، فكـلاهما يستوجب الاغتسال الكامل مع

بعض الدعوات المنجيات والآيات المطهرات، ودم الحيض يغطيها بالدنس، لذلك ترفع عنها أثناء فترة الحيض أو النفاس بعد الولادة كل التكاليف التعبدية، لا تصلى، لا تصوم. وبينما يحتسب ذلك بسبب نجاسة الدم، نظن من جانبنا أن ذلك إنما هو بقايا زمن قديم كان فيه الدم سر سيادة الأنثى وألوهيتها.

وتبقى أيام الحيض الخمسة الشهرية رصيداً لذكرى قدسية المرأة وشأنها فى التاريخ، كذلك يتقدس رقم خمسة ويصبح مانعا للسحر والمرض والحسد، ويصبح يوم الخميس اليوم المفضل لجماع أمثل، والخمسة تظل علامة رمزية على الفرج.

وفى عهد الجاهلية الأخير عشية الإسلام، كان الدم الحيضى لم يزل مقدسا، وكان نسوة العرب يطفن بالكعبة ويمسسن بدم الحيض حجرها الأسود تقديسا له، وتواصلا مع الذكر السماوى، لكن كتبنا التراثية تسجل لحظة التبخيس فتقول : «إن الحجر الأسود كان أبيض فأسود من مس الحيض فى الجاهلية»(١٧).

فهكذا كانت فى فجر الإنسانية وهكذا كان ضحاها، ولم تزل درجات السلم التطورى نحو رقى حقيقى وراء سجف زمان لم يأت بعد.

المصادر

١ ـ Jaqaetta Hawkes, Pre History New York, American Libeny, 1963, p35,, 357.

٢ ـ سيجموند فرويد : موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشى، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص ١٨٠، ١٨١.

٣ ـ نقصد (أصل العائلة) كتابه الأشهر.

٤ ـ إن الجمع على النسبة إلى أم هو أمنى وليس أميا، لكنا جرينا على الخطأ الدارج حتى لاتنصرف الدلالة إلى مقصود مخالف.

٥ ـ Mead, Male and Famale, New York, Morrow, 1949, pp 102-103.

٦ ـ جيمس فريزر: أدونيس أو نموز ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢. ص ٣٥.

٧ ـ فراس السواح : مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ط١، ص ٢٤٦.

٨ ـ يعقوب السيد بكر : هوامشه على ترجمته لكتاب موسكاتي : الحضارات السامية القديمة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٤٧.

٩ ـ أنيس فريحة : ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٩.

١٠ ـ نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، جـ٦، ص ٣٩٤.

١١ ـ جان بوتيرو : الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص ١١٠.

١٢ ـ نفسه ص ٣٨.

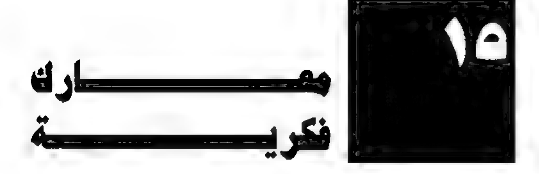
١٣ ـ صموئيل كريمر : من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد،١٩٧١، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

١٤ ـ ولدرير: الجينوفوبيا أو الخوف من النساء، باريس، ١٩٧٠، ص ٩٤.

١٥ ـ ترتوليان : الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص ٣٤٣.

١٦ ـ منشورات فريد برج : المجلد الأول، ص ١٢٥٤ و١٢٥٦.

١٧ ـ محمد حسني عبد الحميد : أبو الأنبياء، دار سعد، القاهرة، ص ٩٢.


١٥
معارك
فكرية

معــارك فكريــة

في صحيفـة أخبار الأدب نشرنـا فصلا واحدا من كتـابنا النبي مـوسى وآخر أيـام تل العمـارنة فكانـت معركـة فكرية منهـا النماذج التـالية:

تصحيح للمعلومات الواردة فى مقالات الدكتور سيد القمنى *

د. عبـد المنعـم عبـد الحـليم سـيد
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

تابعت المقالات المنشورة فى أخبار الأدب فى الأعداد الصادرة أيام ١ / ١٢ ، ٨/ ١٢ ، ١٥/ ١٢، ٢٢/ ١٢ وأولها بعنوان « رحلة النبي موسى » بلاد بونت ليست الصومال وثالثها بعنوان « الموقع الصحيح لبلاب بونت» وفى هذه المقالات كثير من الأخطاء التاريخية نتيجة اعتماد الكاتب على التشابه اللفظى وحده بين الأسماء التاريخية والجغرافية دون أن يرجع إلى الوثائق التاريخية والأثرية.

ورغم أن الكاتب رجع إلى أحد بحوثى فى موضوع تحديد موقع بونت (هامش رقم ٩ من عدد يوم ١ / ١٢) الا أنه لم ينتبه إلى ماوضحته من اختلاف المدلول الجغرافى لهذه الكلمة (بونت) باختلاف عصور التاريخ الفرعونى، كما أنه لم يطلع على أهم ما نشرته فى هذا الموضوع وهو التقرير الخاص بنتائج الحقائق التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر خلال عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ والتى تمكنت خلالها من الكشف عن موقع الميناء الذى كان المصريون يبحرون منه إلى بلاد بونت هذه، وقد قامت جامعة الاسكندرية بنشر هذا التقرير (مرفق نسخة) إن الباحث فى موضوع تحديد بونت يجب أن يميز بين ثلاثة مسميات أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد وهى :

١ ـ مصطلح عام هو « بونت» وكانوا يطلقون على المناطق التى يحصلون منها على البخور.

٢ ـ مصطلح خاص هو « بيا ـ بونت» بمعنى منجم بونت وكانوا يطلقونه على المناطق التى يحصلون منها على الذهب إلى جانب البخور.

---

* أخبار الأدب / عدد ١٢/ ١/ ١٩٩٧م

٣ ـ مصطلح خاص آخر هو « ختيو ـ عنتيو ـ نو ـ بونت » ومعناه « منطقة مدرجات البخور فى بونت » وقد أطلقوه على المنطقة التى حصلوا منها على أشجار البخور لاستزراعها فى مصر.

والمصطلح الأول أطلق فى البداية على المناطق الواقعة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر الغربية من جنوب مصر ثم امتد مدلوله على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر حتى شمل شمال شرق الصومال، وسبب هذا الامتداد يرجع إلى حصول المصريين التوغل جنوبا على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر للاقتراب قدر الإمكان من مناطق نمو أشجار البخور فى شمال الصومال لتقليل الوسطاء، وبالتالى ثمن السلعة (كما دلت على ذلك نصوص هيروغليفية من عصر الملكة حتشبسوت).

والمصطلح الثانى (بيا ـ بونت ـ أو منجم بونت) أطلقه المصريون القدماء على الجزء الجنوبى من صحراء العتباى الممتدة فى شرق السودان، حيث توجد مناجم الذهب وقد أثبت ذلك فى تقرير الحفائر التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر (ص ٥٦ ــ ٦٦ ـ من التقرير المرفق).

أما المصطلح الثالث وهو منطقة مدرجات البخور فى بونت فقد استخدمه المصريون لأول مرة فى عصر الملكة حتشبسوت فى النقوش التى تسجل بعثتها إلى بونت لجلب أشجار البخور لاستزراعها فى حديقة معبد هذه الملكة الدير البحرى بقرب الأقصر، وقد أثبت فى البحث الذى أشار إليه الدكتور القمنى (محاولة لتحديد موقع بونت) إن هذه المنطقة تقع فى شمال شرق الصومال وقد استخدمت فى ذلك الوثائق الهيروغليفية والأدلة الجغرافية والنباتية والحيوانية بالإضافة إلى رواية الكتاب اليونان والرومان.

وهكذا امتد المدلول الجغرافى للمصطلح «بونت» على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر من ساحل السودان فى عصر الدولتين القديمة والوسطى حتى ساحل الصومال فى عصر الدولة الحديثة ، وهذا ما تعارف عليه علماء الآثار المصرية ودلت عليه الآثار والنقوش التى اكتشفها فى موقع الميناء (التقرير المرفق) .

من هذا يتضح أن كل المناطق التى أطلقت عليها التسمية بونت ومشتقاتها فى النصوص المصرية يقع فى مناطق أفريقية وليست آسيوية وعلى ذلك فإن ما دفعت إليه الدكتور القمنى

بأن بونت تقع فى بلاد الأنباط فى شمال خليج العقبة يخالف هذه الوثائق التاريخية الأثرية.

وهناك وثيقة هيروغليفية ذات أهمية كبرى فى هذا الموضوع يبدو أن الدكتور القمنى لايعلم عنها شيئا وهى لوحة سجل عليها ما يفيد أن سقوط المطر على جبال بونت يؤدى إلى حدوث فيضان النيل، مما يدل على أن بونت تقع إلى الجنوب من مصر أى فى منطقة أفريقية وبطبيعة الحال لايمكن حدوث فيضان النيل إذا سقطت الأمطار على شمال خليج العقبة التى يحدد الدكتور القمنى موقع بونت فى نطاقه .

وبالإضافة إلى هذه المخالفة للحقائق التاريخية والأثرية عن موقع بونت.

فقد وقع الدكتور القمنى فى أخطاء أخرى نجملها فيما يلى .

١ ـ فى عدد يوم ١٥/ ١٢ العمود الأول ص ٢٩ يقول إن « البتراء» كان اسم العاصمة زمن الأنباط وهو غير صحيح لأن الاسم النبطى البتراء هو « قمو» ومعناها « البتراء» وقد أطلق الأنباط هذه التسمية على عاصمتهم بسبب تعدد ألوان صخورها وهو الاسم الذى تحور إلى «الرقيم» الوارد فى سورة الكهف، أما كلمة البتراء فهى من التسمية اليونانية **petra** ومعناها الصخرية أو الحجرية .

٢ ـ فى عدد يوم ١/ ١٢ ص ٨ العمود الثالث يقول الدكتور القمنى أن كلمة «بونت» لم ترد بها العلامة الأجنبية وهو خطأ أيضا إذا العكس هو بيا ـ **بونت ومنطقة مدرجات البخور فى بونت** كانت تلازمها هذه العلامة التى على شكل ثلاثه جبال (راجع التقرير المرفق شكل ٢٩) .

٣ ـ فى نفس العمود المذكور فى (٢) يقول أن الملك البونتى الذى دون اسمه «بارح» فى نقوش حتشبسوت يحمل لقب « عظيم عظماء إرم » وهو غير صحيح **لأن هذه العبارة مدونة فى رسوم حتشبسوت فى الصف الذى يعلو صف عظماء بونت وتخص شعبا آخر أطلق عليه المصريون الاسم «أرم».**

٤ ـ فى عدد ١/ ٢ ص ٨ العمود الأول يقول أن الفرعون أمنمحات الأول من ملوك الأسرة ١٢ أرسل ثلاثة آلاف جندى برئاسة القائد «حنو» وهو غير صحيح أيضا لأن الفرعون المقصود هو المسمى منتوحب ـ سعنخ كارع أحد ملوك الاسرة١١ .

٥ ـ فى نفس العمود المذكور فى رقم (٤) يقول أن لوحة النصر للملك **أمنمحات الثانى**

جاء فيها أن الملك قام بتوطيد سلطانه فى أرض الإلـه وهو خطأ لأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى.

٦ ـ فى عدد ٢ / ١٢ ص ٩ العمود الثانى يقول أن تقرير مسئول حكومى اسمه «خنوم ـ حتب » عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية جاءنا على حجر بلرمو موجزا يقول « إنه زار بلوس وبونت» وهو غير صحيح لأن هذا النص وارد فى مقبرة رجل يدعى خوى فى أسوان وليس على حجر بلرمو لأن هذا الحجر مدونة رسمية خاصة بالسلوك لا بالأفراد هذه بعض الأخطاء التى أكتفى بها حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى إلى الأعداد القادمة.

معــارك فكريــة

فى الأسبـوع الماضـى، رد الدكتور عبـد المنعم عبـد الحليم أستاذ التـاريخ بجـامعة الاسكندرية على الـدكتور سيد القمنى بمقال عنوانه تصحيح للمعلـومات الواردة فى مقالات الـدكتور سيد القمنـى ، والخاصـة بتحديد مـوقع بلاد بـونت ، وننشـر المقال التـالــى للـدكتـور سيــد القمنـى ردا علـى الـدكتــور عبـد المنعـم عبـد الحليم.

بلوغ الأرب *
فى أصول اللياقة والأدب

بعـدما ينـوف على العشـر سنوات مـن الجهد الكثـف والمضنى ــ مع التفـرغ الكامـل ـ أوشكت على الانتهاء من تـدبيج كتابى المعنون «النبى موسى وآخر أيـام تل العمارنة » . وقد اضطـرنى هـذا العمل إلـى سفرات شتـى سعيت خـلالها أدقـق وأنقب وراء كـل ما يتصـل بموضوعـى ، وكان أشدها قسوة سفرى فـى ظروف صحية صعبة إلى بوادى سينـاء ثم بوادى الشام ثم أقصـى شمالى العراق ثم الأردن ، حتى تمكنـت من إنجاز أكثر من ثـلاثين فصلا . نشرنا منها فقـط فصلا واحدا صغيرا بأخبار الأدب استغرق نشره سـت حلقات اشتملت كل حلقة على صفحتين من تلك الصحيفة، وهو فصل مـن الجزء الثانى لكتاب يتكون من ثلاثة أجـزاء، وهكذا يـرى قارئى أن تلـك الصفحـات المنشورة لاتعبـر إطـلاقا عـن كتاب بهـذا الحجم. يضيف كل فصل فيه قرائن وشواهد وأدلة تدعم أركانه التأسيسية.

وبين هذه الأركان جاء فرضـا أن بلاد بونت المذكورة بالوثائق المصريـة القديمة تقع على امتداد وادى عربـة وجبال سراة سعير بين خليج العقبـة جنوبا والبحر الميت شمـالا . وعندما وصلنـا إلى الفـروض التأ سيسيـة لعملنـا، وجمعنا لهـا المادة الـوثـائقية الـلازمة والقـرائن والشواهد الهائلة كما وكيفا وضمنها فرض بلاد بـونت ، بدأنا الكتابة ونحن نعلم حجم ردود الفعل التى سيلقاهـا عملنا هذا ، وهو أمر اعتدنـا عليه لأننا نخوض دوما فى منـاطق ملغومة وخـلافية . وقـد توقعنـا مع عملنـا هذا تحـديدا أننـا ستتعرض لهجمـات شرسـة سواء مـن أصحاب العقـائد الثابتة الجـامدة، أو من أصحـاب الأيديـولوجيات عمـوما، ثم مـن رجال التاريخ التقليديين خصوصا . هذا ناهيك عـن كون أى بحث فى فلسفة التاريخ أو فى علوم

* أخبار الأدب / عدد ١٩/ ١/ ١٩٩٧م

التاريخ الاجتماعى أو التاريخ الدينى عـادة ما تستفز ثائرة المؤرخ التقليدى الذى يرى هؤلاء ـ رغـم رسوخ أقدامهم ـ دخلاء على ميـدانه، وهو الأمـر الذى تعرض له فـى بلادنا أكثـر من باحث مثـل كمال الصليبى وفراس السواح ومحمد البهبيتـى، أو ما تعرض له فى غيـر بلادنا سيجموند فـرويد وجيمس فريـزر وفليكوفسكى وغيرهم كثيـر . لكن لو حاذر هـؤلاء مثل تلك المواقف السلفية المتوقعة لما حظينا بالثراء الذى أضافوه إلى ثروتنا المعرفية والمنهجية.

وأن مثل تلك العلوم التى تعمل معتمدة على المادة التـاريخية ليست أبدا تأريخا بالمعنى الدقيق للكلمة، فالباحث فيها تختلف مهمته ومنهجه اختلافا بينا عن المؤرخ ، حيث يعتمد على الوثـائق التى يقدمها له المؤرخ والمـادة العلمية الضرورية ، التى يعمل فيهـا مناهجه ـ وأدواته للـوصول إلى ما يبغيـه من إعادة تـرتيب تلك المـادة أو تحليلها ثم إعادة تـركيبها أو الاستنتاج منها أو الاستفادة بها فى كشوف جديدة .

لكن ما أن نشرنا هذا الفصـل منزوعا من سياقه، والذى لا تعبر مادته وقـرائنه عن مجموع ما حشد فى فصوله من دلائل وقرائن وبراهين سـوى بنسبة واحد إلى ثلاثين أو أقل من ذلك ، طالعنا الدكتور عبد المنعم عبد الحليم بالرد على أطروحتنا جميعها وبرمتها عبر هذا الفصل دون أن يتمهـل حتى يقـرأ العمـل كامـلا، ويبـدو أنـه لم يلتفـت إلـى الإشارات المتكـررة بالصحيفة إلى أن ما ينشـر نماذج من الكتاب ، وجاء ذلك الرد فى عـدد أخبار الأدب بتاريخ ١٢/١/٩٧.

ورغم عتـابنا الهـادىء على تسرع الـدكتور فإنـه قد سـاق رده بنبرة هادئة ليبلـغ أربه بلبـاقة ورصانة . وهو الأمر الذى يحتاج فى التعامل معه إلى قدر من اللياقة والأدب لنبلغ بدورنا الأرب.

والطريف أنى تـوقعت رد الدكتور عبد الحليم بـوجه خاص لأنى أعلم أنى قـد خضت فى منطقة عزيزة عليـه ، وأنه صاحب نظرية فيها قـد أعلنت خلافى معها. وأنه قـد كرس لها من وقته وعلمه، كما كرسنا وبحثنا فجاء عشقنا واحـدا ، ولأنى كنت أعلم أن ذلك سيزعجه فقد توقعت رده كأول رد وهو ما حدث بالفعل ، لكنه حدث مبكرا ومبكرا أكثر من اللازم .

نحن نعلم بعـد قراءتنا له فى بحثه عـن بلاد بونت أنه قد سـافر كما سافرنا، وكمـا اجتزنا فيافى وقفار ندقق الخـط الذى رأيناه صوابا ، سافر هو أيا ليدقـق خطأ آخر رآه هو الصواب . لكنه و إن أصـر على التمسك بـرأيه كحقيقة نهـائية فإننا مـن جانبنا نـؤكد (للسيد الـدكتور

ولقارئنا الذى نحترمه ونحتـرم وقفته لمطالعتنا أننا قدمنا فروضا جمعنا لهـا الوثائق التاريخية التى أنكرهـا علينا وقصر جهدنـا عند البحث اللغوى)، إننـا أبدا لانقطع بصدق كـل فروضنا المطلق ، ففى علوم البحـث فى التاريخ ليس هناك مجال للقطع واليقيـن ،بل إن مثل ذلك القطع يخـرجنا فورا مـن دائرة العلم إلى دائرة مـن يعتقدون أنهـم يمتلكون الحقيقة النهـائية والمطلقة.

لقد قرأت مـا قدمه الدكتور عبـد المنعم عبدالحليم بشـأن بلاد بونت ، كما قـرأت ما قدم آخرون ، حتى كدت أحفظ التعابير والأساليب ، وأعـرف تفاصيلها كما أعرف كف يدى . وقد اختلف هؤلاء اختلافا هائلا ومتباعدا بـل ومتنافرا وكلهم أصحاب أسماء ذات سمت عظيم فى علم التـاريخ ، ولا أظن أحدهـم قد قطع فى قـوله أو ظن أنه قـدم الإجابة النهائيـة . ومن جانبـى لايصل بى الظـن فى الدكتـور عبد الحليـم إلى اعتقاده أنـه قد وضع القـول النهائى والفصل فى هذا الأمر، فهو فى اعتقادنا رجل علـم رصيـن نترفع به عن مثل ذلك ، وحاشـانا أن نعتقد به ذلك .

وتأكيدا علـى أن هناك من لم يأخـذ نظريته مأخذ النظريـة القانون والنهائية ، إنـه بالأمس فقط ١٢/ ١/ ٩٧ وصلتنى مكالمة تليفونية من صـديق مهتم بسلطنة عمان يلفت نظرى إلى أستاذ بجامعة السلطان قـابوس هو الدكتور عاطف عوض وهو فيمـا علمنا رجل علم متمكن ورصين ، وأنه قـد وضع فرضا مخالفـا تماما لكلينا لمـوضع بلاد بونت . حيـث افترض أنها بلاد السـاحل العمانى ، حتـى أن السلطنة قد رأت فى كشفـه أمرا يستحق الاحتفاء بـه ، فتم تحديـد زمن افتـراضى لوصـول سفن الفـرعونـة حتشبسوت ، وأقيم بهـذه المناسبـة احتفال شعبى كـرنفالى تمثيلى يمثـل وصول البعثة المصـرية إلى بـلاد عمان التى افترض الـدكتور عـوض أنها بـلاد بونـت . وهكذا يـرى الدكتـور عبد الحليـم أن المساحـة لازالت وستظـل مفتوحة لكل من يمكنـه أن يدلى فيها بفروضه وأسانيده ، بغض النظر عمـا قدم الدكتور عبد الحليم، أو ما قـدم شخصى المتواضع ، وأنـه سيتكبد مشقة عظيمة إذا قـرر أن يقضى عمره فى تخطيء كـل من يقول بشأن بونـت قولا مخالفا لنظريتـه . ومن جانبنا نعود فنـؤكد أننا سنخطيء هنـا أو هناك وسط هذا الـرتل الهائل من المـادة العملية المتناقضة ، وعلـى يقين أننا سنرتكب زلـة صغيرة هنا أو كبيرة هناك، وأنه طـالما استمر دأبنا مناوشة المنـاطق الصعبة فسنظل نخطيء وجل من لايخطيء ياسيدى الدكتور.



ثم نقف الآن مع الدكتور عبد المنعم عبد الحليم وهو يعدد لنا ما زعم أنه أخطاء تاريخية وقعنا فيها، لنتساءل قبل ذلك : متى يمكن وصف معلومة يسوقها كاتب بأنها خاطئة ؟ أظن ذلك يكمن فى أحد ثلاث حالات : الأولى أن يكون الكاتب قد فهم المعلومة خطأ وقد فهمه وليس المعلومة باعتباره الصواب ، وهو مالم يحدث معنا ، والثانية أن يكون هذا الخطأ من ابتداعه الشخصى وهو أيضا مالم يحدث معنا ، والثالثة أن يكون الكاتب قد افتأت على الحقيقة ولوى عنق المعلومة لصالح رؤيته ولتوافق هواه ، وهو أيضا مالم يحدث معنا . فماذا حدث معنا؟

إن كل ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم ووصفه بالخطأ ، موثق لدينا ويعتمد على مصادر أصلية تمت الإشارة إليها فى مواضعها ، بنصها هو هو كما جاء فى مظانه المصدرية ، وهى مصادر دبجت بأقلام علماء أجلاء هم مصادرنا جميعا التى نتواضع أمامها احتراما ، وفى الفصل المنشور كانت مراجعنا تعود لأسماء جليلة القدر هى : جاردنر، ماربيت ، كيتشن ، وليم لانجر وفريقه البحثى ، كرال كاسيدوفسكى ، زيته ، طه باقر، جارستانج ، هاريس زاليج ، سليم حسن، أحمد بدوى .. فإذا لم نلجأ فى استقاء المعلومة الصحيحة إلى أصحاب تلك الأسماء فلمن نلجأ؟ واذا كان هؤلاء يقدمون لنا معلومات تاريخية خاطئة فماذا يبقى لدينا من حقائق فى علم التاريخ القديم ؟

والآن نقف تفصيلا مع ما قدمه السيد الدكتور من أخطاء معلوماتية رآها فى ذلك الفصل المنشور، فهو ينعى علينا عدم الإشارة إلى نص يتعلق ببلاد بونت يقول أنه عندما تسقط عليها الأمطار تفيض مياه النيل . أولا فى هذه الحالة لن تكون بونت هى الساحل الصومالى حسب نظريته إذا أخذنا النص بظاهره ، وثانيا لم يكن المصرى القديم على علم بمنابع النيل وكيف يفيض ووضعت فى ذلك تصورات أسطورية عديدة لامجال هنا لسردها ، فهو مرة دموع أحد الآلهة، ومرة نهرا ينبع من جبال السماء أو تحت الأرض، وقد ظلت تلك التصورات الأسطورية حتى عهد قريب فى حديث منسوب لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم (إن أهم أنهار المنطقة وضمنها النيل تنبع من السماء من تحت عرش الرحمن) حيث لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد . وإذا كانت تلك حجة تضع بونت جنوبا فكيف يفسر السيد الدكتور تكرار المصرى القديم أن بونت تقع فى الشرق حيث تطلع الشمس؟

ثم يبدأ سيادته بالترقيم تعديدا للأخطاء المعلوماتية من وجهة نظره ، فيقول إننا قلنا أن الاسم النبطى لعاصمة الأنباط هو البتراء وصححه بأنه (قمو) الذى تحور فى العربية إلى (الرقيم) وورد فى سورة الكهف . والصحيح أننا أبدا لم نقل أن البتراء هو الاسم النبطى إنما قلنا أنه الاسم الذى عرف به الرومان تلك المدينة زمن الأنباط بمعنى الصخرة أو الصخرية . ثم إننا نعلم ياسيدى أن اسمها كان (الرقيم) لكنا أجلناه لموضعه من البحث حيث سيؤدى فى مكانه دورا فى تأكيد مذهبنا ، ولا بأس إن ذكرنا لك هنا طرفا منه حتى تعلم أننا نعلم.

نقول فى الفصل الثالث والعشرين (حسب الترتيب الحالى) وفى ص ٦ من مخطوط الفصل : « ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو الرقيم ظهر قبلهم عند المؤرخ يوسفيوس اليهودى، وقد رجح الباحثون أنه التسمية العربية لمدينة البتراء أو مدينة الحجر أو لكليهما ـ تقع منطقة الحجر شمال غربى السعودية الآن ـ وقد أورد إحسان عباس رأيا يقول:

إن الرقيم هى المدينة التى وردت فى المصادر الصينية باسم (لى ـ قن) من (رى ـ قم) .. كذلك ورد اسم الرقيم فى رسالة سريانية تحدثت عن زلزال دمر الرقيم ، ونحن نعلم أن هناك زلزالا قد دمر الرقيم، ثم نحن نعلم أن هناك زلزالا قد دمر البتراء عام ٣٦٣ ميلادية .. إلى آخره» . وهكذا تعلم ياسيدى أن فى جعبتنا الكثير الذى عن الرقيم وغير الرقيم مما قام بدوره فى مكانه من بحثنا، فقط هى العجالة والتسرع يا أخى الكريم.

ثم يقول الأستاذ الدكتور أن كلمة (بيا ـ بونت) قد لازمتها العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية ، وهو عكس ما قلنا ، فما قلناه أن كلمة بونت وليس (بيا ـ بونت) قد وردت بدون تلك العلامة ، ولم نقل منجم بونت حتى لانربك القارىء وسط رتل المعلومات الهائل .

ثم يقدم الدكتور الخطأ الثالث فى قولنا أن الملك ألبونتى كان يحمل لقب عظيم عظماء إرم ، وهنا نحيله إلى واحد من مصادرنا بهذا الشأن كمثال واحد وهو سليم حسن فى الجزء الرابع من كتابه الموسوعى مصر القديمة طبعة هيئة الكتاب ص ٣٣١ حيث يقول :

« .. السياحة إلى الوطن والوصول بسلام :

إن السياحة إلى طيبة قد قام بها بقلب فرح جنود رب الأرضين ورؤساء هذه الأرض بونت

وخلفهم ، وقد أحضروا معهم أشياء لم يحضرها أى ملك من قبل. ويلى هذا مشاهدة رئيس إرم وإلم رئيسى تميو وهما قبيلتان غير معروفتين لنا من بلاد بونت يتبعهما رجالهما . وكلهم ركعوا أمام حتشبسوت مقدمين الهدايا ».

ثم يقول الدكتور عبد الحليم أننا أخطأنا بشأن تزمين حملة القائد (حنو) حيث قلنا أنها حدثت زمن الفرعون أمنمحات الأول، بينما هى قد حدثت زمن الفرعون سعنخ كارع ، وقد ورد ذلك سهوا حيث يأتى ترتيب أمنمحات الأول فى قوائم الملوك مباشرة بعد سعنخ كارع ، ويمكن للعين أن تقرأ سطرا أعلى أو أسفل، لكنه على أية حال خطأ يجب استدراكه ، لكن ألا يرى السيد الدكتور أن ذلك لاعلاقة له على الإطلاق بموضوعنا ولايشغله ولايؤثر فيه ولاعلى استنتاجتنا ولا على الأقيسة ولا على المنهج ولا على ما دته الفعالة ولا تترتب عليه أية نتائج إطلاقا، وهل سعى السيد الدكتور لتصيد زلات لاتؤثر من قريب أو من بعيد على الموضوع ، للتأثير على قارىء غير متخص تشكيكا فى كاتبه؟

ثم يخطئنا للمرة الخامسة فى قولنا بلوحة نصر تخص الملك (أمنمس الثانى / أمنمحات) جاء فيها أنه قام بتوطيد سلطانه فى بلاد بونت أرض الإله ويصححنا بأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى ، فهلا رجع السد الدكتور إلى العلامة جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة ، الذى ترجمه رجلا لايقل جلالا هو الدكتور نجيب ميخائيل وطبعته هيئة الكتاب ص ١٥٨ و ١٥٩ ليقرأ معنا جاردنر إذ يقول : « وصلت إلينا لوحة ترجع إلى العام الثامن والعشرين من حكم أمنمس الثانى تسجل قيام هذه البعثة .. ومعها الكلمات يوطد آثاره ـ أى الملك ـ فى أرض الإله».

ثم يخطئنا للمرة السادسة فى معلومة مصادرها لاتقل جلالا فهى تعود إلى العلامة زيتة والعلامة برستد حول الموظف المصرى الذى سافر إلى بيبلوس وبونت ، والمقصود هنا اقتران الموضعين ببعضهما لإثبات أن بونت تقع شرقا لاجنوبا ، وأن المعلومة ياسيدى سواء كانت من مقبرة خوى أوأى مقبرة أخرى أو حجر باليرمو أو أى حجر كان لاعلاقة لها بالعمل وسياقه وأهدافه . فهل جلس الأستاذ الدكتور يتصيد فقط لمجرد التشكيك ؟

نحن ياسيدى حتى الآن لم نخطىء ، فموضوعنا كما ترى موثق ، أما الحقائق والمادة التاريخية فليست من شأننا ولها أربابها وعنهم ننقل وبهم نقرأ وعليهم المعتمد . ومهمتنا

أبدا ليست تـدقيق معلومة يعطيها لنا علمـاء مثل جاردنر أو زيتة أو ماريـيـت أو سليم حسن مهمتنا هـى البحث و إعادة التصنيف ثـم المقارنة فالتحليـل والتركيب ، ثم فـرض الفروض واختبارها وجمـع الأدلة عليها ثم الاستناج، أما المعلـومات سواء كانت خطأ أم صـوابا فهى ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ وأنت أحدهم ياصديقى .

وختاما أقول للسيد الـدكتور أنى أحترم وقفته معى لمراجعتى ولا أظنـه قد فعل ذلك تعصبا لنظريته وتشكيكـا فيما ذهبت أنا إليـه فأنا أربأ بـه عن ذلك كما أعلـم أن فرضه لبلاد بـونت بالصومال عزيز عليه فهو محل اهتمامه فـى رسالة الماجستير ومجمل أبحاثه بعد ذلك ، لقد قال رأيه ونظريتـه وأدلته على وقوع بونت على السـاحل الصومالى ، كذلـك قلنا رأينا وأدلتنا على وقوعها عند العقبـة ، وللقارىء فى النهاية موقفه الخاص الـذى سيختاره ، لكنى أعلم أنك قد أضفت إلـى قرائى رصيدا من قرائك الذيـن سيثرون مساحتى ، لأنهم ـ لاشـك ـ قد تعلموا منك المنهج العلمى ، وعرفوا منك كيف يختلفون وكيف يتحاورون.

وبعدمـا ثبت الآن يا أخى خطـؤك فى تخطيئنا نقول لـك . هذا بعض هادىء مـن فيض ، ورذاذ لطيـف من غيـث ، وقطر كظيـم من سيـل ، فإن عـدتـم عدنـا وساعتهـا لا نعدك أبـدا بالإصرار على فضيلة بلوغ الأرب . وتمهل يا أخى فإن فـى العجلة الندامة ، وتأنى ففى التأنى حفـاظ على هيبـة المنصب الـرفيع ، واخفـض من صـوتـك وتواضـع فى قـولك ، وراجـع مصادرنا قبل أن تقول ، ولا تستفـز ثائرتنا يرحمكم الله فأنت البـادى ... اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد.

معــارك فكريــة

د. سيد القمنى والنبى موسى

رد على رد

البحث يعتمد الوثائق وليس البلاغة والإنشاء !*

د. عبـد المنعـم عبـد الحـليم سـيد
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

فى العـدد الصادريـوم ١٢/ ١/ ١٩٩٧ ص ٦ من أخبـار الأدب نشرت الجـزء الأول من هذه التصحيحـات وقد نشر الـدكتور سيد القمنـى ردا على ما ورد فيـه فى العدد الصـادر يوم ١٩/ ١/ ١٩٩٧ ص ١٤ ، ص ١٥ . وأننى أهنـىء الدكتورسيد القمنـى على أسلوبـه الأدبى الإنشائى الرفيع فى رده علـى تصحيحاتى لأخطاء مقالاته عن بونـت ولكن المجال فى هذه المعلومات لا يعتمـد على البلاغة والإنشاء بقدر مـا يعتمد على الوثائق والأسانيـد التاريخية والأثرية.

ولكن قبل أن أبدأ فى هـذا الجزء الثانى من التصحيح ، أعتب على الـدكتورسيد القمنى قوله أنه تـوقع التعرض لهجمات شرسة مـن رجال التاريخ التقليديين خصـوصا أن أى بحث فى فلسفة التـاريخ أوعلوم التاريـخ الاجتماعى (حسب قـوله) عادة ما يستفـز ثائرة المؤرخ التقليدى ويستشهـد الدكتور القمنـى على ذلك بكتاب كمـال الصليبى الذى تعـرض لهذه الهجمات الشرسة (حسب قوله) .

وإننى أقول للدكتور القمنـى . هناك فرق كبيربين أن يقدم أى باحث مجـدد رأيا جديدا يعتمد على الوثائق التاريخية والأثرية فهذا لاشك مما يرحب به كل مؤرخ سواء كان تقليديا أم مجددا، وبين طـالـب الشهرة بالزائفة يلجـأ إلى تحريف المسميات والمعلومـات لتوافق هواه متجـاهلا الوثائق والأسـانيد التاريخية والأثـرية ، وهذا مـا فعله كمال الصليبى عنـدما

* أخبار الأدب / عدد ٢/ ٢/ ١٩٩٧م

حرف أسماء كل من المواقع الفلسطينية المذكورة فى العهد القديم والأسماء الحالية للمدن والقبائل والقرى فى منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية لكى توافق هواه فى إثبات أن أرض الميعاد عند بنى إسرائيل ليست فلسطين كما هو معروف بل منطقة عسير فى المملكة العربية السعودية، وأصدر فى ذلك كتابين باللغتين العربية والإنجليزية عنوان النسخة العربية هو (التوراة جاءت من جزيرة العرب) وقد سبق أن نشرت نقدا لهذا الكتاب نشر فى إحدى الدوريات العربية وأعدت نشره فى كتابى « البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة » ص ٤٨٥ وما بعدها أوضحت فيه مدى إسراف كمال الصليبى فى هذا التحريف إلى درجة قلب المعلومات الثابتة التاريخية والأثرية رأسا على عقب وإعطائها مضمونا يخالف تماما ما تتضمنه هذه الوثائق .

أبدأ الآن فى الجزء الثانى من التصحيح لمقالات الدكتور سيد القمنى بالإشارة إلى الاتجاه العام للدكتور القمنى فى مقالاته كلها وهو أنه جعل من منطقة أدوم (التى يسميها «أدم») الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من خليج العقبة والتى قامت فيها دولة الأنباط بعاصمتها البتراء ، جعل منها موطنا لشعوب ودول ثبت بالوثائق التاريخية والأثرية منذ نشأة علوم الآثار المصرية والعراقية فى القرن الماضى وترجمة آلاف النصوص الهيروغليفية والسماوية ، إنها كانت تعيش فى مناطق بعيدة كل البعد عن منطقة أدوم هذه وفيها دولة «ميتانى» التى قامت فى شمال سوريا والعراق وشعب الحوريين الذى كان يسكن شمال العراق أيضا فضلا عن منطقة بونت التى كانت منطقة أفريقية ..

وهكذا سحب الدكتور القمنى هذه الدول والشعوب من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب ليجمعها كلها فى منطقة واحدة هى منطقة أدوم موطن دولة الأقباط .

وفى سبيل إثبات رأيه هذا لجأ الدكتور القمنى إلى وسيلة الاعتماد على التشابه اللفظى بين المسميات الجغرافية والتاريخية دون أى اعتبار للوثائق التاريخية والأثرية ، وأسوق مثالا صارخا لذلك ، فلكى يثبت الدكتور القمنى أن بونت هى منطقة البتراء وما حولها (بلاد أدوم) اعتبر التسمية « قصر البنت » (التى حورها إلى قصر « بنت ») والتى يطلقها عرب المنطقة الحاليون على أحد المبانى الضخمة فى البتراء ، أعتبر هذه التسمية بقية من الاسم القديم«بونت» (عدد يوم ١٥/ ١٢/ ٩٦ ص ٢٩ عمود ٢) رغم أن هذه التسمية عربية مائة

فى المائة لما هو ظاهر وأصلها « قصر بنت فرعون» وقد أطلقها عرب المنطقة على هذا البناء الضخم(وهو معبد نبطى خلافا لما يقوله الدكتور القمنى عنه بأنه كان مركزا للحكم والإدارة) شأن كل عرب الجزيرة العربية عندما يشاهدون بناء ضخما فينسبونه إلى الفراعنة، ومثال ذلك معبد آخر مجاور لمعبد قصر بنت فرعون هذا به عمود ضخم قائم أطلق عليه عرب المنطقة « عمود فرعون» . وهكذا انزلق الدكتور القمنى فى غمار حماسه لرأيه إلى الوقوع فى المحظور، إذ لا علاقة بطبيعة الحل بين الكلمة العربية « بنت »، (بمعنى ابنة فى عبارة قصر البنت وبين الكلمة المصرية القديمة « بونت»)، ومن هذه الأمثلة الصارخة أيضا أنه حرف التسمية « ميتانى » التى كانت تطلق فى النصوص الهيروغليفية والنصوص المسمارية على الدولة التى قامت فى شمال سوريا والعراق كما ذكرنا ، حرفها إلى « مديان » و« مدين » (عدد يوم ٢٩/ ١٢ س ٢٨ العمود الأول) قائلا إن بلاد ميتانى هذه تمركزت فى بلاد سعير ووادى عربة وسميت بالصخرة من طبيعتها الصخرية وأنها بلاد بونت فإن بونت تعنى الصخرة (نفس الوضع من نفس العدد من المجلة) أما أن ميتانى هى نفسها « مدين » فرأى فيه الكثير من الشطط لأن ميتانى هذه تردد اسمها فى نصوص الملك تحتمس الثالث وخلفائه باسم « متن » فى سياق حروبه فى شمال الشام ودخل ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى مصاهرات مع ملوكها وورود اسمها كثيرا فى الصور المسمارية بما لا يدع مجالا للشك بأن موقعها كان فى شمال سوريا والعراق.

أما أن اسم بونت يعنى « الصخرة » فلا أعرف من أى مصدر استقى الدكتور القمنى هذا التفسير فلا توجد كلمة فى اللغة المصرية القديمة بالنطق « بونت » أو ما يشبهه تعنى الصخرة أو الحجر والحقيقة أن هناك تفسيرين لأصل كلمة « بونت » أولهما: أنها تعنى « القاع المحصنة » وقد أوضحت سبب هذه التسمية فى كتابى عن البحر الأحمر (٣) وثانيهما: أن كلمة بونت ليست مصرية بل أفريقية استعارها المصريون واستخدموها للدلالة على بلاد البخور ومازالت توجد حتى اليوم كلمة تشبهها فى اللغة السواحلية (لغة سكان سواحل الصومال وتنزانيا) هى كلمة « بوانى » Pwani ، وتعنى السواحل الأفريقية للحصول على البخور يسمعون هذه الكلمة من سكان هذه السواحل فاستخدموها بعد تحويلها إلى النطق المصرى كعلم على بلاد البخور.

وقد تقلص مدلول هذه الكلمة الأفريقية على مر العصور نتيجة انتشار اللغات الأخرى

كاللغة العربية فى المناطق السودانية والأريترية حتى انحصر فى اللغة السواحلية، ومازالت توجد حتى اليوم على ساحل الصومال الشرقى أسماء تشبه كلمة « بوانى » هذه مثل كلمة « بنة» فى التسمية « رأس بنه» التى تقع إلى الجنوب من رأس جرد نوى، وكان الكتاب اليونان والرمان يسمونها Panon « بانون» .

نأتى إلى تحريف لفظى آخر (غيربونت) للدكتور القمنى هو تحريف كلمة « مجدو»، فقد نقل الدكتور القمنى موقع هذه المدينة من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم (عدد يوم ٢٢/ ١٢ ص ٢٨ العمود الأول) بنفس طريقته فى تركيز المسميات القديمة فى هذه المنطقة ، والمعروف أن مجدو هو الاسم العبرانى للكلمة المصرية القديمة (مكتى)، وكانت هذه المدينة هدفا لحملة حربية للفرعون تحتمس الثالث وقد استولى عليها بحيلة حربية بأن سلك أقصر وأضيق الطرق إليها ففاجأ العدو وانتصر عليه وقد نقل الدكتور القمنى هذا الطريق أيضا إلى الطريق المسمى « السيق » الذى يؤدى إلى البتراء واعتبره الطريق الذى سار فيه تحتمس الثالث ، ومن المدن التى استولى عليها تحتمس الثالث والتى كانت تقع فى الطريق إلى مجدو مدينة أطلقت عليها النصوص المصرية الاسم «عارونا» فاعتبر الدكتور القمنى أن « عارونا » هذه هى جبل هارون » فى محيط البتراء» ، كل هذا التخريج أقدم عليه الدكتور القمنى متجاهلا تماما الوثائق المصرية القديمة التى من عهد الملك تحتمس الثالث وخلفائه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والتى يشير تسلسل المدن من الجنوب إلى الشمال فى سجلات هذا الملك ، بما لايدع مجال للشك أن مجدو كانت تقع فى شمال فلسطين (فى مكان مدينة تل المتسلم الحالية) بل إن موقع هذه المدينة فى شمال فلسطين ثابت أيضا من تسلسل المدن التى دون أسماءها الملك شيشنق الأول (بعد عصر تحتمس الثالث بحوالى خمسمائة سنة) على جدران معبد آمون بالكرنك ضمن أخبار حملته على فلسطين والتى درس تسلسلها بالتفصيل علماء الآثار المصرية وآخرهم العالم « كينيث كتشن» Kitchen الذى نشر الخرائط التوضيحية لها ولغيرها من المدن التى غزاها شيشنق، ومن الواضح أن الدكتور القمنى لم يطلع على هذا الكتاب .. وهناك دليل حاسم على أن « مجدو» التى كانت مجالا لنشاط شيشنق الأول الحربى تقع فى تل المتسلم بشمال فلسطين هو العثور فيها على بقايا لوحة من الحجر عليها اسم الملك شيشنق الأول وبالإضافة إلى نقل موقع مدينة مجدو من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم فإن اسم هذه

المدينة لـم يسلم من تحريفـه ، فقد اعتبر الدكتـور القمنى نطق الكلمة التـى أطلق عليها « موقيـده » والتى وردت فى نصوص الملـك رمسيس الثالـث ، ينطبق على نطق كلمـة مجدو (عدد يـوم ٢٢/ ١٢ ص ٢٩ العمود الثانـى) رغم أن « موقيده » (وصحـة الكلمة مو ــ قدى) هذه معناهـا « المياه المعكوسة» وقـد أطلقها المصريون فـى أول الأمر على نهر الفـرات لأنه يجرى من الشمال إلى الجنـوب عكس اتجاه مياه النيل ثم أطلقوها علـى كل مسطح مائى تجرى تيـاراته مـن الشمال إلى الجنـوب، ومن هنـا أطلقوه على البحـر الأحمر فـى نصوص الملك رمسيـس الثالـث التى تسجـل عودة إحـدى بعثاتـه من بـلاد بونـت لأن مياهـه تتجه تياراتهـا من الـرياح السائدة مـن الشمال إلـى الجنوب عكس اتجـاه مياه النيـل . ورغم أن النصوص التـى تسجل عودة بعثـة الملك رمسيس الثالـث من بونـت واضح فيها تمـاما أن سفن هذه البعثة رست على ساحل الصحراء الشرقية (التى جاءت بها هذه البعثة نقلت بالبر من ساحل البحر الأحمر إلى النيل عند قفط إلا أن الـدكتور القمنى يأخذ هذه البعثة أيضا إلى خليج العقبـة ويجعلها ترسو بسفنهـا على ساحل هـذا الخليج حيث بلاد أدوم التـى جعلها مقرا لكل المسميات لما ذكرنا.

ومن المؤسف أن الـدكتور القمنى يستشهد فى تحريفه لكلمة « مجـدو » إلى « موقيدة » بتحريـف كمال الصليبى للاسـم « مجدو» إلى «مقدى» وقـد لجأ كمال الصليبى إلـى ذلك التحريـف لكى ينطبق علـى اسم بلدة فـى منطقة عسير بـالمملكة العربيـة السعودية تـدعى المقدة تمشيا مع اتجاهـه فى كتابه المسمى « التوراة جاءت من جزيـرة العرب» بالادعاء بأن أرض الميعاد عند اليهود ليست فلسطين بل منطقة عسيـر فى المملكة السعودية كما سبق أن ذكرنا .

وحتى مصر، لـم تسلم من مشروعات الدكتـور القمنى فى نقل الدول والشعـوب القديمة إلى منطقة « أدوم » فقد نقل الدكتور القمنى حدودهـا الشرقية إلى هذه المنطقة (والحمد لله إنه لم ينقل مصـر كلها) ففى تفسيره لكلمة «موصرى» الأسـوزية (عدد يوم ٢٩/ ١٢ ص ٢٩ عمود ٢) تقول إن كلمـة مصر محورة من الكلمة المصـرية، السور العظيم مـا هو إلا سلسلة الجبال المتبعـة (فى منطقة أدوم) قبل إطـلاقها على مصـر نفسها فهو خطأ أيضـا لأن هذه التسمية وهى بـالضبط « مصرى » وردت بالخط المسمـارى كاسم هو كما يسمـى خطابات تل العمارنة التـى ترجع لعصر الملك أمنحتب الثـالث وابنه إخناتون (القرن الـرابع عشر قبل

الميلاد) وذلـك قبل دورها فـى سجلات الملك تجـلات بلسر الثالـث (وقد ذكره الـدكتور القمنى خطـأ «تجلات بلسـر الأول» (عمود ٢٩/ ١٢ ص ٢٩ عمود ٢) كمـا يقول الـدكتور القمنـى بحوالـى ستمائة عـام وقد كتبهـا الأشـوريون « مصـرى» وكتبها البـابليون « مصـرو» وانتقلت إلى العرب بالنطق «مصر».

كذلـك قلب الدكتـور القمنى تسلسل المعلومـات فى تسمية إيجبـت وقبط فالثـابت أن كلمة « قبط» العربية حورها العـرب من الكلمة اليونانية Aegyptus (التى منها كلمة إيجبت التى كتبها الـدكتور القمنى) وليس العكـس كما يقول الدكتـور القمنى وهذا أمر بـديهى لأن اليونـان أسبق من العـرب فى الاتصـال بمصر وبالمثـل لاعلاقة لكلمـة «قبط» (كعلـم على الشعـب القبطى) بـاسـم مدينـة « قفط» فهـذه الكلمـة الأخيرة مصـريـة الأصل وردت فـى النصـوص الهيروغليفيـة بـالنطق « جبتـو» و« جبـت» تحورت فـى اللغـة القبطية إلـى Keft «كفت» ثم نطقها العرب « قفط».

وإننى أكتفـى بهذا القدر من تصحيـح أخطاء الدكتور القمنـى حتى تتسع مساحـة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى للعدد القادم.

الهوامش:

1-Gauthier, H.Dictionnaire des noms Geogra phiques Contnus dans les textes hierogiypues (1975) 3p.318.

2-Prichard t. , Amcient mear Eesterm Texts (1969) P3188.

٣ ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة (١٩٩٣) ص ١٩.

4-perrot D.swahili - English Dictonary (1973) 4, p.62

5. Bveasted, Ancient records tl 409 6. Kitchen, K. the third intermediate pey-iod in Egypt, (1986) P.296 - 299

٦ ـ وانظر أيضا ، عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الأحمر ص ٥١٠

٧ ـ عبد المنعم عبد الحليم نفس المصدر شكل (٥) ص ٥٠٧

٨ ـ نفس المصدر السابق ص ٢٢٠

٩ ـ المصدر السابق ص ٥٠٩

د. سيد القمنى

فصـل المقـال فيما بين العقبة والصومال *

بالأمس ٢٣/ ١ / ١٩٩٧ أحاطتنى هيئـة تحرير أخبـار الأدب تليفونيـاً علما بوصـول تعقيب جديد من الدكتورعبد المنعم عبد الحليم على الفصـل الذى نشرناه من كتابنا (النبى موسى وآخر أيام تـل العمارنة) من بيـن ستة وثلاثين فصلا هـى مجموع ما تم إنجـازه حتى الآن فى ثلاثـة أجزاء ، ولمـا يكتمل العمـل بعد . وقـد سبق ونبهنـا الدكتـورعبد المنعـم إلى الخطـأ العلمى الـذى يرتكبه بإصـدار الأحكام على العمـل من خلال فصـل واحد لم يرصـد سوى قرائن تعادل نسبـة واحد إلى ثلاثين أو يـزيد من وجهة نظـرنا، لكن السيد الدكتـور أصر على الاستمرار فى هجومه غير الموفق بتهور غير محمـود وافتعال معركة لاتليق برجل علم ، ومن ثم عاد يـزعجنا بطبـوله الصـومالية ويثيـر الغبار والضـوضاء . ومن هنـا رأيتنى بغيـر حاجـة إلى الاطـلاع على هـذا التعقيب الجـديد ، ورأيـت مـن الأوفق التـركيز علـى مفصل النـزاع دون التهويم فى التجريحات والطواف حول الفروع دون الأصول.

وقد سبـق ونبهت فـى تعقيبى فى ردى الـذى نشرته بـأخبار الأدب فـى ١٩/ ١/ ٩٧ إلى خطأ التعامل مـع فصل منزوع من سياقه ، كمـا نصحته وما كان يشغلنا قبل ذلـك فى كثير أو قليل بـالتريـث ، ثم ألمحت بصـرامة أننـا هذه المـرة سنقول ما تكتمنـا عليه وغضضنـا عنه الطرف ، لأننا نقدر حساسيـة موقفه أمام طلبته بالذات ، وأوعزنا إليه بعـدم ركوب مغامرة غير محسوبـة، لكن ليشهد قـارئى أنه هو الـذى دفعنا دفعا إلـى قول ما سنقـول ونحن فى غـاية الأسف لنشره علـى ملأ . وإعمالا لذلك سنركـز على الخلاف التأسيسى حيـث ذهب السيد الدكتـور إلى أن بـلاد بونـت المذكورة فـى الوثـائق المصرية القـديمة، تقـع على السـاحل الصومـالى ، بينما ذهبنا نحـن إلى أنها تقع عنـد رأس خليج العقبة مع امتـداده بطول وادى عربة شرقى سيناء.

* أخبار الأدب / عدد ٩/ ٢/ ١٩٩٧م

أصول الأكاديمية

ويبقى بأيدينا عملنا فى كتابنا وعمله هو فى رسالته للماجستير والدكتوراه لنعمل فيها القول الفصل ، تحسباً لهدر مزيد من الوقت بلا طائل ، وسنكتفى بقولنا هنا ونترك بعد ذلك الحكم للقارىء مع وعد بالتوقف عن الرد مرة أخرى مهما قال السيد الدكتور الفاضل. وسنعمد هنا إلى مراجعة مذهب الدكتور فى رسالته عبر الملخص الذى نشره اختصارا للوقت وحسما للأمر، مع ترقيم الصفحات التى سنستشهد بها من ذلك الملخص.

وأول مايلفت نظر الباحث المتمرس أن صديقنا قد بدأ عمله وهو يضع نصب عينيه هدفا يريد إثباته، وهو أن بلاد بونت تقع تحديدا على الساحل الصومالى . ومعلوم أن ذلك يتجاوز أول شروط البحث العلمى وهو الموضوعية والحياد والنزاهة ويتضح ذلك من اعتماده على تفسير محدد لكلمة (عنتى) التى تشير إلى مواد التبخير التى جاءت بها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت ، فأخذ برأى واحد يتيم فى تفسير الكلمة ورد عند (لوكاس) عرضا فى كتاب إعمومى لايتحدث عن بونت تخصيصا، وعنوانه: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكى اسكندر ومحمد غنيم ، وبالتحديد على إشارة عابرة بأسطر شاردة فى صفحة ١٥١ ، يرجح فيها لوكاس أن يكون هذا العنتى هو البخور الأبيض أو الكندر المعروف باللبان الذكر.. وقد اعتمد الدكتور عبد الحليم هذا الرأى وحده تحديدا دون غيره لأن اللبان الذكر.. ينمو على ساحل الصومال تحديدا وهو بغيته وهدفه.

ولمزيد من الدقة نسوق كلام الأستاذ الدكتور بنصه إذ يقول فى صفحات ٥٠و٥١ مانصه:

«إن أشجار البخور التى يجب البحث عنها على سواحل البحر الأحمر هى أشجار ذلك البخور الذى كان يعرف عند المصريين باسم عنتى...

ويقول لوكاس إنه البخور الأبيض المعروف حاليا باسم الكندر، وهو ما يطلق عليه فى اللغة.. الدارجة اللبان الذكر».

ومعلوم أن اللجوء إلى استقاء معلومة شديدة التخصيص من كتاب فضفاض شديد التعميم ، لايركز حديثه حول موضوع المادة المنتخبة للإدلاء بالشهادة ، يوصف فى اللغة الأكاديمية بأنه مرجع غير محكم، وعلى هذه العبارة الشاردة فى مرجع غير محكم أقام السيد الدكتور عمله برمته ، وأسس هرما مقلوبا على رأس إبرة ، فقرر بداية أن العنتى لابد أن

يكون هو اللبـان الذكر ، ولأن اللبان الذكـر هو الذى يتواجـد على ساحل الصومـال فلابد أن تكون الصومال هى بلاد بونت.

وعلى هـذا الأساس الهـش أقام الأستاذ الـدكتور عملـه جميعا رغم مخـالفة ذلـك لنتائج وتفاسيـر أخرى وصـل إليها علماء أجـلاء ركزوا عملهـم على مقطع الأمـر نفسه ، وانتهـوا إلى تعدد القول بشـأن العنتى ، فهو المر أو ربمـا كان هو الميعة أو ربمـا كان هو الصمغ العـربى ، فهو علـى الجملة مـادة للتبخير غير محـددة باللبان الـذكر وحـده ، وهو ما يتعـرض له العـالم الجليل جيمس هنرى برستد فى الجزء الثانى من كتابه التسجيلات المصرية القديمة وآخرون لايقلون شأنا لم يقفـوا عند اللبان الذكر ينفخون فى ذواتهم ، بـل إن المصادر الأقرب تاريخيا مـن أصحاب المشـاهدات العينيـة من مـؤرخى العصـر الكلاسيكـى وذلك مثـل بللينى فـى تاريخه الطبيعى، وكذلك استرابون فى جغرافيته قد تحدثا عن ألوان متعددة فى مواد التبخير، لكن لأن الأستاذ الفاضل يريـد ساحل الصومال سلفا وبالتحديد موطنـا لبلاد بونت ، فقد قرر الوقوف عنـد الكندر، وهو الأمر الـذى أدى إلى متتالية من الأخطـاء اضطرته فى مـرات عديدة إلى الالتفاف غيـر الحميد على حقائق ضـد مذهبه، وهو مـاسندلل عليه الآن وفـورا . بعد أن نصحناه فلم يصغ وقام يشهر أسلحته الرديئة فى وجهنا يريدها معركة ، فله إذن ما أراد.

المنهج التلفيقى:

مع إصرار الدكتور عبـد الحليم على أن العنتى هو الكندر تحديدا كـان لابد أن ينتهى إلى نتيجـة منطقية ضـرورية تتـأسس علـى هذه المقـدمة ، وهـى أن الأشجار الإحـدى وثلاثيـن التبخيريـة التى أحضـرتها بعثـة حتشبسوت مـن بلاد بونـت، وزرعتها أمـام معبدهـا بالـدير البحرى ، هى بالتحـديد أشجار الكندر وهو ما انتهـى إلى القول به فى صفحة ٤٧ مـن موجز رسالتيه.

أما نحـن فقد قلنا فى فصلنـا المنشور، وفى بقية كتـابنا الذى جمعنـا له مادة هائلـة كما وكيفا عبـر السنوات العشر الماضيـة، إن تلك الأشجار لابد أن تكـون هى أشجار بيرسيـا التى تنمـو عند العقبـة ووادى عربـة ، بقـرائن وأدلة حـاشدة ، وهـى الشجـرة التى عـرفها معجـم أوكسفورد بأنها « شجرة بيرسيا المقدسة» .

ولأن مثل تلك الخـلافات تظل فى منطقـة رجراجة على صورتهـا تلك ما بين تـأييد هذا

الرأى أو ذاك . فإن الوسيلة الوحيدة للحسم لاتكون الا بأثر أركيولوجى واضح يقطع فى الأمر، وهنا نستدعى شاهدا موثوقا هو نافيل مدعوما من الأركيولوجيست عالم المصريات الأشهر سليم حسن ، ليدلى بشهادته فى الجزء الرابع من عمله الموسوعى مصر القديمة ، طبعة هيئة الكتاب صفحة ٣٣٣ وصفحة ٣٣٤ لنسمعه يكتب تقريرا واضح المعالم لايحتمل لبسا يقول فيه : « وتدل الكشوف الحديثة على أن الأشجار العطرية التى أتى بها من بلاد بونت قد غرست فعلا فى حفر نقرت فى الصخر أمام المعبد وملئت بالطين الخصيب . وقد عثر على هذه الحفر الحفارون المحدثون فى الردهة التى أمام المعبد وقد وجدوا أن بعضها لايزال محفوظا فيه جذوع الأشجار الجافة ، غير أن هذا الأشجار ظهر أنها أشجار بيرسيا ». فهل لم يزل هناك شك أو خلاف؟ وهل سيستمر السيد الدكتور عند ساحل الصومال يدق طبول الحرب علينا؟

البونتى والفينيقى :

كان من بين أهم القرائن التى قدمناها للتدليل على وقوع بونت عند العقبة ووادى عربة بعاصمته المعروفة الآن بالبتراء ، هو ما جمعناه من مادة تاريخية تؤكد أن بلاد بونت كانت تشتمل على عدد من العناصر البشرية المتحالفة ، وأن تلك العناصر المتحالفة كانت تضم عنصرا جزيريا قادما من جنوب جزيرة العرب بصحبة عنصر زنجى قادم بمنتجاته التجارية من أفريقيا الشرقية ، مع عنصر هندوارى قادم من تركيا وشمال العراق وبلاد الشام وهو العنصر الذى اشتمل على الأراميين والفينيقيين ، ورأينا أن العنصر الأخير هو من وردت الإشارات التاريخية إليه بوصفه (الجنس الأحمر) ، وأن أصحابه هم من أعطى البحر الأحمر اسمه من صفتهم فهو الأريترى أى الأحمر ، وأن هؤلاء كانوا سادة تلك المملكة التجارية المتحالفة والذين حملوا اسم البونتيين على وجه التخصيص.

وقلنا أن المصريين قد أطلقوا على الطائر الخرافى الذى زعموا أنه يأتى مصر قادما من بلاد العرب عند وادى عربة هو (بنو) وهو الذى عرفه اليونان باسم (فوينكس) ، وقد استخدم المصريون اسم هذا الطائر (بنو) للإشارة إلى الجماعات التى تأتى إلى مصر من الشرق عبر سيناء فهم البونتونيون أو الفينيقيون . وكان ذلك أحد أدلتنا ضمن أدلة أخرى عديدة على

تخصيص تلك المنطقة العربية بأنها بلاد بونت.

وقد لاحظ السيد الدكتور تلك المشابهات ، ولكنها لم تذهب بـه إلى العقبة ، فليس كل من ركب الفرس خيال وليس القصد من ذلك المقارنة لأنه لامجال للمقارنة أصلا إنما القصد هو بيان لجوئه إلى التلفيق والمداورة الشديدة الهشاشة رغم تأكده من علاقة البونتيين بالفينيقيين ، فاستمر فى إصراره على ساحل الصومال رغم أن الفينيقيين شرقى مصر فى آسيا وليسوا فى جنوبى مصر بالصومال ، ومن هناك اختلط الأمر عليه فقام يقول: «وقد لاحظ الباحث (أى الدكتور عبد المنعم) نفسه أن الاسم بنو هو الاسم المصرى للطائر الخرافى المسمى فى الإغريقية فوينكس يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة **شرقى النيل** ، وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية وبين معنى يشرق ، رجح الباحث أن المصريين ربما أطلقوا الاسم (بنو) أو اسما مشتقا منه على **الجماعات التى كانت تفد إلى مصر من المناطق الشرقية ومن بينهم البونتيون** . (لاحظ كلامه الذى يؤكد كلامى).

وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن بينها بلاد العرب.. وبالنسبة للتشابه الملفت للنظربين نشاط البونتيين ونشاط الفينيقيين فى البحر الأحمر، والآراء التى تعتبر الفينيقيين أحفادا أو خلفاء للبونتيين .. فإن من الممكن افتراض أن الفينيقيين عندما لاحظوا نواحى كثيرة للتشابه بينهم وبين البونتيين دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه فنسبوا أنفسهم إلى البحر الأريترى .. حتى يكتسبوا حقوقا فى استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى التى كانت تنافسهم» صفحة ٣١ و٣٢

فهل بعد هذا التفسير تلفيق منهجى.

من العراق إلى مصر عبر الصومال

قلنا فى كتابنا أن المؤثرات العراقية القديمة فى بعض العبادات المصرية وفى بعض الأشكال الفنية المبكرة مثل صلاية نعرمر، لاتفسرها إلا نظريتنا فى أن ضمن أحلاف المملكة التجارية شرقى سيناء كان العنصر العراقى القديم ، ولما كانت هذه الآلهة ترتبط تحديدا فى المدونات المصرية ببلاد بونت فقد كان ذلك دليلا على مذهبنا فى موقعة بنت عند العقبة شرقا وليس الصومال جنوبا ، خاصة مع تقرير المصرى المتواتر: « عندما أولى وجهى نحو مشرق الشمس فإنى أوليه إلى أرض الإله بونت» . وقد قلنا أن هؤلاء التجار هم

من نقلوا تلك المؤثرات العراقية المبكرة إلى مصر.

ولكن لأن عزائم الزميل كانت على قدر عزمه فقد قام يثابر على منهجه ويقول بكل اجتراء أن تلك المؤثرات قد **وصلت بالفعل مع التجار البونتيين من العراق شمالا إلى مصر لكن عبر الصومال جنوبا (؟!!)** يقول سيادته : « يبدو أن عملية نقل المؤثرات الميزوبوتامية من العراق إلى مصر كانت ذات صلة بمركز الآلهة المصرية التى ارتبطت ببونت . وأن **انتقال هذا المؤثرات إلى مصر تم بواسطة شعب أو جماعات كانت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق** ، وتقوم بدور الوسيط فى الاتصالات بين الطرفين وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعا من الوسطاء التجاريين .. وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الأفريقى بونت (يقصد الصومال) هم من نقلوها مباشرة إلى مصر » صفحه ٢٥ !!! ولاتعليق ؟ فالوسطاء التجاريون فى الموقع المتوسط بين العراق ومصر هم الصوماليون ؟!

سادة بلاد بونت:

أبدا لم نعتبر العنصر الزنجى فى لوحات حتشبسوت دالا على أفريقية بلاد بونت ، فما أكثر الزنوج فى لوحات مصر التى لاتتحدث عن بلاد بونت ، ثم إن السادة فى تلك اللوحات قد رسمتهم ريشة الفنان المصرى فى هيئة المصريين تماما سواء فى اللحية التقليدية أو فى السحنة التى لاتمت للزنوج بصلة ، او فى اللون الذى صبغت به بشرتهم وهو الأحمر الفاتح المفضل فى رسوم المصريين لأنفسهم ، إضافة إلى عنصر آخر غير زنجى بدوره وصف بأنه أرمى أو أرامى، أما العنصر الزنجى فى اللوحات فكان فى رأينا فريقا تابعا ضمن عناصر الحلف التجارى القادم ببضائعه من جنوبى البحر الأحمر.

ورغم أن الدكتور عبد الحليم قد أصر على أن بلاد بونت تقع على الساحل الصومالى ، فإنه لم يستطع أن ينكر أبدا تلك الحقائق حيث يقول فى صفحة ١٧ عن سكان بلاد بونت حسب لوحات حتشبسوت : « سكانها خليط من عدة سلالات : أ ـ السلالة التى تنتمى إلى الطبقة الحاكمة أى البونتيين أنفسهم ويشبهون المصريين

ب ـ السلالة الزنجية .

جـ ـ سلالة ثالثة لعلها المسماة أرم وهى قريبة الشبه بالبونتيين . ثم يقول فى صفحة ٣٩ « كان رجال بونت يرسمون على الآثار المصرية على هيئة المصريين وبلحى تقليدية كالتى

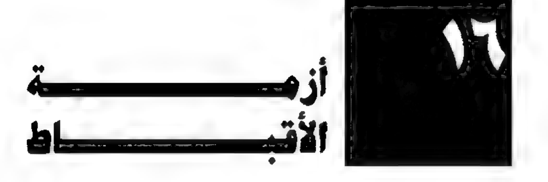
يلبسها آلهة المصريين».

وفى بحثنا قلنا أن اسم العاصمة البونتية كما ورد فى الوثائق المصرية (أوسالعت) يؤكد مذهبنا حيث كانت البتراء عاصمة وادى عربة تسمى فى الزمن القديم (سالع) وجاء اسمها هكذا فى التوراة ، لكن السيد الدكتور فضل لها (زيلع) على ساحل الصومال ، ولانعلم كيف أمكن وجود أسماء مصرية على الساحل الصومالى ، بينما تختفى تلك الأسماء تماما على الساحل اليمنى المقابل الذى يفصله عن الصومال خانق باب المندب الضيق ، وهو الأمر الذى اعترف به هو نفسه فى صفحة ٣٧.

ثم يضع الدكتور عبد الحليم الميناء الذى وصلت إليه سفن حتشبسوت عند مصب نهر النيل بالساحل الصومالى ويعتبره اكتشافه المذهل حيث وقف يهلل ويكبر ويدق طبوله الصومالية ، بينما كان ذلك الميناء لدينا أحد القرائن البسيطة والهينة حيث يتطابق اسمه (حرجسوى واج ور) مع الميناء القديم المشهور على خليج العقبة المذكور فى التوراة باسم (عصيون جابر) ولك أن تدرك مدى التطابق الفونيطيقى المدهش كدلالة واضحة.

وفى لوحات حتشبسوت دلالة هامة تساعد الباحث على تحديد موقع بلاد بونت وهو قيام البيوت التى تشبه أعشاش النحل على أعمدة ، وهو ما وجدناه إبان زيارتنا للبتراء قائما حتى اليوم على ذات الفكرة المعمارية القديمة ، ومنه البالغ القدم كما فى أم البيارة ومنطقة الدير ، ومنه الأحداث الذى احتفظ بفكرته القديمة حتى زمن الرومان كما فى خزنة فرعون والقصر الذى لم يزل يحمل حتى اليوم اسم (بنت) ولم يزل هذا الأسلوب متبعا حتى الآن على السواحل الغربية لخليج العقبة بسيناء فى محيط نويبع والترابين، ويمكن للزميل زيارتها ومعاينتها بنفسه بأسلوبها البدائى القديم . لكن لأن زميلنا الفاضل لم يجد ذلك على ساحل الصومال فقد عقب قائلا فى صفحة ٦١ «والحقيقة أن الأكواخ ذات الأعمدة لاتوجد اليوم فعلا فى الصومال .. ومسألة وجود الأعمدة لاتصلح أساسا يعتمد عليه لأنها ليست من المعالم الدائمة أو الثابتة» . أليس ذلك لونا من التخلص الواضح والعجز الفاضح؟ هذه نماذج قليلة من كثير يمكن قوله، لكننا اختصرنا حتى لانجور على المساحة المتاحة لنا بالصحيفة ، وكنا نتمنى ألا نقول لكن الزميل هو من دفعنا إلى التصريح بما كنا نصمت عنه ، أقول ذلك وأنا شديد الأسف لأنه وضعنى فى هذا الموضع الصعب واضطررنا

لهذا اللون من الخطـاب الذى كنا نعلو عنه دوما بقـامة العلم لا بالغوغائيـة ، وليسامحنا الله جميعا ولا بأس علـى الزميل أن اعترف بالخطأ وأعـاد النظر وفى ساحة العلم متسـع لكل من يملك أدواته شريطة أن يملك أدواته حقا.


١٦
أزمة
الأقباط

(١) تقديم قدمه المؤلف لكتاب الدكتور سليم نجيب رئيس محكمة مونتريال بكندا، وهو رسالة دكتوراه بعنوان (حقوق الإنسان فى مصر - حالة الأقباط) قُدمت إلى جامعة (بانتيون - أساس - باريس رقم٢) وذلك فى ١١ يونيو ١٩٩٢.

أزمــة الأقـباط

هذا الكتـاب جرس إنذار عالـى الصوت يردد صـدى ودويا، هو صوت مصـرى مسيحى واضح صريح، متحرر مـن كل المخاوف والمحاذير بل وحتى الكياسـة والحصافة، لأنه كان بالأصـل رسالـة دكتوراه قـدمت بفرنسـا ببلاد غيـر البلاد، وفى ظـل قوانيـن ونظم غيـر نظمنا وقوانيننا ومنـاهجنا فى التفكير. ناهيك عـن كون صاحبه يعيش الآن فى مهجـره بكندا فكتب بصراحة وبـوضوح لايخشى معهما المـلامة، لذلك يعـد هذا الكتاب إفصاحـا عن مكنون، ورؤية مصـرى مسيحى لوضع طـائفته الدينيـة فى المجتمع المصـرى، عبر فيها عن أحـزانه ومأساته وآماله وأحلامه الوطنية بشكل شديد الوضوح إلى حد الصدمة.

ولسنا بحـاجة إلى التـذكير أن هناك الآن حـوالى ٢ مليـون مصرى مسيحى يعيشـون فى المهجر بأنحـاء متعددة من العالم، وشكّلوا تجمعـات قوية ومؤثرة وذات صـوت عال، ومن مهجرهم أخذوا يخاطبـون ضمير العالم، بل ويؤثرون فى اتخاذ القـرارات العليا فى مواطنهم الجديدة، لكنا فى مصر لـم نزل نعيش الأوضاع كمـا هى، ندفن رؤوسنا داخل شرانقنا، نحب الثبات والسكـون ولانحب الرؤيـة الواضحة لأنهـا تبهتنا، نصـر على ذات المنهج ونستـريح لـذات الأوضاع فـالحركـة تـرعبنا والتغييـر يـرهبنا. وإذا كـان قد تـم أغتيـال أحد الأصـوات المسيحية المعارضة فى الخارج، فهل يمكـن التخلص من ٢مليون مصرى مسيحى يعيشون فى بلاد حرة ليبرالية تحمى صاحب كل رأى أو عقيدة ؟

إن هذا الكتاب يعـرض كيف يفكر المسيحى المصـرى، ويضع الحقائق ناصعـة لنسمى الأشياء بـأسمائها، إن كنـا نريـد لوطننا تمـاسكا ووحدة تكفـل استمرار تنـاميه وحراكـه نحو المدنية التى هى الدرع الحقيقى لوحدته واستمراره فى الوجود.

ولا أستبعـد عند صـدور هـذا الكتاب أن نسمـع صيحات التفكيـر والتنفيـذ والاتهامـات الـرخيصة المبتـذلة، وربمـا المطالبـة بمصادرة الكتـاب كالعـادة فى بـلادنا فـى مثل تلـك

الأحـوال، رغم أن أرصفـة بـلادنا تغـص بـالكتـب التى تبخـس العقيـدة المسيحية وتسفـه أصحابها. ولم يصادر كتاب واحد منها.

نحن لانحب المخـالف لأننا لانملك حجة المنـاقشة والرد الموضوعـى الهادىء ولأننا أيضا نخـاف الحقائق بعـد أن أعتدنـا أوضاعا مختلـة أصبحنا نظنهـا الصح الأبـدى، ولأننا اعتدنـا تمرير الكذب إلـى تاريخنا وصـدقناه. ولأننا تحـدثنا عن الهزيمـة النكراء باعتبـارها نكسـة، وعن الغـزو العربـى بحسبـانه فتحـا، ولأننـا نتأذى مـن وجود إسـرائيـل على تـراب فلسطين، ونتبـاكى فـى الوقت نفسـه على الأنـدلس دون الشعور بـأى خلل، ولأننـا أسقطنا أبسط مبادىء العقل، قانون الهوية وعدم التناقـض فأصبحنا نرى الحصان اليونانى المجنح (بيجاسـوس) أسطورة، ونـرى البراق حقيقـة لاريب فيهـا. ولأننا نقطـع ذاكرتنـا التاريخيـة وندافع عن الثقافة العربية الغازية، متصورين أننا بذلك ندافع عن الوطن، وأبداً لانضع تلك الثقافة فى مكـانها الطبيعى بحسبانها قد أصبحـت جزءا من ثقافتنا وليست هـى كل ثقافتنا، فنلقى بكـل تاريخنا مـع أجدادنا الـذين وُصفوا بـالمجرميـن وغرقوا مـع الفرعون فـى البحر المفلوق بالعصا السحرية. ولأننا نقف مع إسرائيليـة موسى ضد مصرية الفرعون، بل نحذف عن عمد وقصد كل تاريخ الحقبة القبطية من تاريـخ مصر كما لو لـم تكن جزءا من تاريخها، فحذفناها بكل ثـرائها الثورى والفنى والأدبى، فأسقطنا بذلك من تـاريخنا لايقل عن نصف ألفية من الزمان. بينما نجـد شعوبا تبحث عن تاريخ كامل لها يعـادل ذلك الذى نحذفه فلا تجد. لقد أسقطنا هذا التـاريخ لأنه كان تاريخ المقاومة المصرية لـلاحتلال الرومانى، ولأن المصريين فـى هذه المقاومة ضد الرومـان كانوا مسيحيين ؟!! ولأن النصف الثانـى من هذه الفترة كـان فترة ثورة لمسيحييـن مصريين ضـد الاحتلال العربـى. وهكذا لاتجد شعبـا فى العالـم قرر تكفير ثقافتـه وتدميرهـا ونسيان تاريخه عـن سبق إصرار لصـالح الثقافة الغـازية سوى الشعب المصرى؟! ولك يامصر العزاء.

والأكثر إدهاشـا ألا تعرف تلك السنوات العبقرية الفـذة فى تاريخ مصر طريقهـا الواضح والكامل إلـى كتب وزارة التعليم المصرية حتى اليـوم، وهو منطق يعنى أننا مع العـروبة أكثر مما نحن مع مصر، ومـع الإسلام أكثر مما نحن مع مصر، حتى أسقطنـا حقبة النضال الثورى القبطى ضـد الروم والعرب لإنهـا كانـت مصرية مسيحيـة ولم تكن لاعـربية ولاإسـلامية !!

ولذلك ضحينا بمصر إبان هذه الحقبة كما لو كانت غير موجودة فى التاريخ، فقط لأنها كانت مسيحية ؟ ! لذلك أهدرنا هذا التاريخ وألغينا مصر من الوجود. ألا يعنى ذلك أيضا أننا نقصر تاريخ الوطن أو نتعامل مع مصر كما لو كانت قد بدأت وجودها منذ الفتح العربى أو الغزو إن شئنا الدقة، ومن ثم قمنا نكفر تاريخها الأقدم أيضا لاستبعاده بدوره نهائيا، أفلا يفصح هذا اللون من الفكر المتوارى المضمر، عن عقلية الغاصب المحتل المستوطن الذى يريد استبعاد كل ما يجعل للمواطنين جذورا قديمة فى تاريخ وطنهم، ومحو تاريخهم محواً ؟ ثم ألا يعنى ذلك اعترافا من المسلم بالفكرة القائلة أن المصريين الأقباط هم ورثة الفراعنة الشرعيين، وأن المسلمين احتلال عربى استيطانى طال أمده عما ينبغى ؟

وبالمناسبة هذه هى الفكرة التى ستعبر عنها صفحات هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن.

إن منهج التفكير، والسلوك عند المسيحيين والمسلمين المصريين، يترك مساحة هائلة للجانب الدينى عند الحديث عن الوطن، مما يؤدى إلى خلل دائم فى الرؤية، وهو ما يشكل خطرا جاثما طوال الوقت نحمدالله أنه لم يفجر مصر إلى مقاطعات إقليمية كما هو حادث فى بلدان أخرى من العالم. وإذا كان هناك صاحب فضل فى ذلك فإنهم أقباط مصر الذين يعتقدون أنهم أصحاب البلاد التاريخيين، وأنهم الامتداد الطبيعى لسلسال الفراعين، وأنهم يملكون مقومات ذلك سواء من حيث التاريخ أو العنصر أو المواطنة بالجنسية أو اللغة القبطية المتطورة عن الديموطيقية المتطورة بدورها عن الهيروغليفية. لذلك تحمل المسيحيون المصريون كثيرا من المعاناه لزمن طويل، قبلوا أثناءه أوضاعا شديدة الظلم فى وطنهم حتى لاينقسم وطنهم ويتشظى.

لكن المصيبة الأعظم أن مسيحيى مصر يفكرون بمنطق أشد تعصبا من المسلمين السلفيين، فكلاهما يعتبر الدين هو الهوية وهو الوطن، وهنا الفجيعة المروعة، فالقبطى لايطلب مجتمعا علمانيا مدنيا، يحفظ ويصون ويضمن جميع الحقوق لجميع الأفراد على التساوى، بغض النظر عن كون المواطن مسلما أم مسيحيا أم ملحدا. لكنه يطلب مجتمعا مصريا مسيحيا كما لو كانت المسيحية قد أصبحت شرط المصرية، وعند الإسلام السياسى نجد ذات المنهج، حيث الإيمان بالإسلام ومبادئه شرط صدق المواطنة !!

انظر قارئى معى إلى الغاية النهائية التى كانت تريدها جماعة الأمة القبطية، التى أسسها

إبراهيم حلمـى هلال سنة ١٩٥٢ وتم حلها بقـرار أمنى عام ١٩٥٤، ويلخصها لنـا صاحب هذا الكتاب فيقول ص ٢١١، ٢١٢(*).

> استرداد مصـر كلها، أرضنـا التى سلبـت منا بـواسطة العـرب المسلمين منـذ أربعة عشر قرنا. إن أرضنا هى مصر، وديـانتنا هى المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا الرسمية هى اللغة القبطية.

أورد المؤلف تلك الفقرة دون أن يعقب عليها وتركهـا تنطق بدلالاتها ضمن السياق، وهو ما يعنى الموافقة الضمنية على ماورد فيها، ومعنـى ذلك أننا سنخرج من حكم ربما يستعين بالدين أحيانا، إلـى حكم ثيوقراطى شمولى دينى من رأسه إلى أخمـص قدميه. وناهيك عن استحالة المطلب، فطرد أو إفناء خمسين مليون مصـرى ، أو تنصيرهم، فكرة لاتضع صاحبها فى خـانة العقـلاء على الإطـلاق، والمفارقـة أن أصحاب مثـل تلك الفكـرة الجامحـة يرون لإسرائيل حـق الحياة فى المنطقة، لأنهم أستعمار استيطـانى فما ذنب الأحفاد الـذين ولدوا هناك وأصبحوا مواطنين حقيقيين، لكنهم لايـرون ذات الحق للمصرى المسلم فى المواطنة بعد أربعة عشر قرنا. وهذا يطلب دستورا قرآنيا، وذلك يطلب دستورا إنجيليا،، وتضيع مصر.

ومن هنـا فإن أهمية هذا الكتـاب تكمن فى كونـه يضع صورة غـاية فى الوضـوح لكيف يفكر أقباط مصر اليوم، فى عالم أصبحت فيـه الليبرالية سيدة الأنظمة، وأصبحت فيه قوانين الحريات والكرامة الإنسانية فوق كل القوانيـن، وظهرت قوى تنتهز مثل تلك الفرص للتدخل فى الشئـون الداخليـة، وفرض شـروط السياسـة والقرارات السيـادية، بضغـط يستثمر لاءات الحريات والكـرامة الإنسانية، ومـن ثم أصبح واجبا علينـا إصلاح البيت من الـداخل، دفعا لأى ضغط أو تأثير خارجى على كرامة بلادنا. وهو إصلاح ممكن وسهل لو خلصت الضمائر لمعانى الدولة المدنية الديمقراطية الليبرالية المعلمنة. بل إن صاحب كتابنا هذا لم يجد أى حرج فـى القول ص ٢٥٤ : «إن العقـوبات الاقتصـادية هـى الوسيلـة الطبيعية لتنفيـذ تلك السياسـة، وعلى الـدول الديموقـراطية اللجـوء إلى تلـك العقوبات ضـد الدول التـى يثبت ارتكابها جرائم انتهـاك فاضحة ومستمرة لحقوق الإنسان». والتلميح واضـح، وهنا ينتظر منا حسب المنهـج السائد أن نهدد الكاتـب بالويل والثبـور وعظائم الأمور، مع نعـوت يحبذ أن

* هذا الترقيم كما فى أصل رسالة الدكتوراه المطبوعة بالآلة الكاتبة .

تبدأ بالعمالة وتنتهى بالخيانة.

لكنى أقول بصوت عالٍ نرجو أن يرجع لنا صداه وأثره، إن هذا المصرى، ما وصل به الحال إلى ذلك إلا إذا كان قد طفح به الكيل، وأن متغيرات العالم والسريعة منحته الفرصة لأول مرة لشرح قضيته أمام العالم، بل إن بعض هذا العالم وأنا أكتب هذه الصفحات يفكر الآن فى قطع المعونة عن مصر لهذا السبب تحديدا.

بالطبع لاشك إطلاقا أن مثل تلك الدعوة رغم كل مساوئها ومخاطرها على مصر التى يعيش فيها مسيحيون ومسلمون، تعبر بوضوح عن فشل كامل لكل المساعى التى تقدم بها الأقباط فى مطالب واضحة وتم إهمالها تماما، كما توضح صفحات هذا الكتاب، ودون حتى مناقشة تلك المطالب علنا.

لكن ونحن نتعاطف مع مطالب المسيحيين المصريين، بل نتوحد بهم ونتباهى معهم بأننا أعرق حضارات الأرض، لايسعنا إلا أن نفكر بعد ممارستهم الضغوط فى الخارج من أجل قضيتهم ماذا يطلبون ؟ وماذا يعرضون ؟

أول المصائب مطالب من النموذج الذى سقناه منذ قليل (دولة مسيحية دستورها الإنجيل ولغتها القبطية)، فإذا كُنت ـ ومثلى كثيرون ـ نرفض بل ونقاوم قيام دولة إسلامية، فالنتيجة البسيطة لمثل هذا التفكير أننا سنقاوم وبشكل أشد مثل ذلك الخيال المستحيل بفرض إمكان حدوثه. وهكذا تخسر القضية القبطية أهم القوى التى تساند مطالبهم، وهى قوى المستنيرين من مفكرين علمانيين ذوى شأن وقدر، وقدرة أيضا على التأثير الجماهيرى الواسع. بل وربما يكون رأيهم فى حالات كثيرة له تأثير على اتخاذ القرار السيادى. ومثل تلك الخسارة ستكون هى الخسارة الحقيقية ليس للأقباط فقط لكن لمصر جميعا، لأن معنى ذلك أننا سنقدم على هاوية مظلمة لايعلم أحد منتهاها. إن الطرح السالف يشير بوضوح إلى أن العقلية القبطية فى التفكير قد أصبحت مسيحية غير مصرية، طائفية دينية غير وطنية . لأن الدين المسيحى ليس مصريا ورغم أن المسلمين أقباط أيضا، وأكثريتهم يعودون بالجنس ـــ وليس بالدين ـ إلى أصول مصرية عريقة. ونحن تعنينا مصر كما يشغلنا أن يعيش المواطن فى مصر عزيزا يتمتع بكل الحريات، حتى يمكنه أن ينتج ويبدع لأن العلم لاينمو إلا فى مناخ حر تماما وهو سبيل تقدم الأمم.

لكن ما هو موقف صاحب الكتاب وكيف يفكر ؟ نحمد الله أنه يفكر بذات المنطق وذات التفكير السائد بين الأقباط، حتى أنه قدم لنا نموذجا للمسألة القبطية فى أذهان الأقباط وضميرهم بكل حماس . ولذلك لم يشغله التدقيق العلمى فى أكثر من موضع. وخاض فى مناطق شديدة الحساسية والوعورة دون أن يكون مسلما بالأدوات العلمية اللازمة، كما فى حديثه مثلا ص (٢٥٢) عن زواج القبطى من المسلمة وهو الممكن فى دولة معلنة، ويحبذ العلمنة، لهذا السبب، ويدلى برأيه التحبيذى فى أمر يحتاج إطلاعا واسعاً على الشريعة الإسلامية وعلومها. أو مثل ذلك الكلام الصحفى من قبيل: إن المسيحى عندما يطلب عملاً فى مصر. «فإنهم يخاطبونه بهذه اللهجة: إذهب فليست هناك وظيفة لك» ص (٢٠٤) وهذا كلام إن جاز فى الأحاديث الصحفية المثيرة، لايجوز فى رسالة علمية. لأن العلم تدقيق فحدث كهذا: متى حدث؟ ومن السائل؟ ومن المجيب؟ وفى أية مناسبة ؟ وتاريخ المناسبة؟ ومدى صدق هذا التوثيق ؟ ثم ما قيمة هذه الحادثة كلها؟..إلخ ثم هناك مستوى آخر أكثر علمية هو إجراء البحوث المدعمة بالبيانات والإحصاءات المقارنة للنسب العددية بالوظائف فى مصر، هكذا العلم ،أما غير ذلك فصحافة. أو كما يلقى القول إلقاء فى عبارات منها «إن الإسلام يظهر عداء لحرية الدين وبصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بترك الإسلام»، هكذا دون أن يقدم تعريفا بأن هذا الأمر مختلف عليه بين الفرق الإسلامية، وفى هذه الحال كان لابد من توضيح واضح كاف لتأييد وجهة نظره واختيارها دون وجهات النظر الأخرى، وهذه المؤيدات لابد أن تكون من أمهات كتب المكتبة العربية.. إلخ.. فهذه هى شروط العمل العلمى كى يكون علما بالمعنى الدقيق للكلمة. لكن لو قال (المسلمين) فى مصر بدلا من (الإسلام) إذن لجاز قبول القول ومناقشته. إذن صاحب الكتاب ينعى على المسلمين المصريين والدولة المصرية لأنها لاتأخذ بالعلمنة، لكن هل يوحى لنا هذا الكتاب بأن صاحبه يؤمن بالعلمنة حقا؟ لقد ضربنا أمثلة لعدم الحرص على الدقة والصرامة العلمية، لنقول أن صاحب الكتاب كان مشغولا معينا بأمر آخر غير العلم سنرى الآن أنه لايختلف إطلاقا عن مطالب الإسلام السياسى، ويالضيعتك يامصر بين أبنائك.

كنت مستعدا أن أفهم إذا لم يحدثنا الصوت القبطى عن دولة دستورها الإنجيل وأنا أرفض دولة دستورها القرآن !! وكنت بالتأكيد سأقف معه قلبا بقلب ويدا بيد وهو يرفض

تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، لما لذلك من مخاطر مؤكدة على وحدة الوطن وسلامته، لكنى أبدا لا أفهم ماذا ستفعل بما يزيد على خمسين مليون مسلم مصرى ؟ نعم أقف معك ضد تطبيق الشريعة الإسلامية لأننا كيف سنحاكم المسيحى ؟ هل نحاكمه بالقانون المدنى؟ فنقطع يد حسن عندما يسرق، ونحبس جرجس ثلاثة شهور عندما يفعل ذات الفعل ؟!، فيخرج من سجنه إلى الكنيسة ليقدم للعذراء شموع العرفان والشكر، لأن يده لم تقطع مثل حسن كنت أفهم أن يقف المسيحى ضد العقوبات حسب الشريعة الإسلامية لأنها ستؤذى مجتمع إخوانهم المسلمين، وربما تساءل المجتمع جميعه عندما يكتشف براءة حسن، عن كيفية إرجاع يده المقطوعة إليه. وربما كنت أتصور أن أخى القبطى وأنا سنقف معا ضد تطبيقها لأن الإنسانية قد تجاوزت مرحلة العقوبات البدنية إلى غير رجعة، وأن هذا هو سبيل الرقى البشرى، وأن أحكام تلك الشريعة إن لم تتكيف مع المتغيرات باجتهاد واضح فإنها ستؤول وحدها إلى الظل ثم إلى التعطل كما تعطلت أحكام آيات قرآنية أخرى تصل إلى حوالى ثلاث وعشرين آية، تتعلق بالرق والسبايا وملك اليمين، بعد أن ارتقى البشر عن تلك الوصمة التى لطخت جبين البشرية طويلا. لكن أن نستبدل القرآن بالإنجيل، فتلك والله قاصمة للظهر، ومنطق لاعلاقة له بالإخلاص للوطن.

والكتاب الذى بين يديك بطول صفحاته جميعا يكرس لاتخاذ المسيحية وطنا وهوية، ويضع ذلك فى إطار التمسك بمصر الوطن. غير مدرك أى تناقض فصيح يكمن فى منهج تفكيره الذى يعبر عن منهج جميع مسيحيى مصر تقريبا، لأن الحالات التى أقابلها وتؤمن حقا بمجتمع مصرى مُعلمن من بين المسيحيين، تعد على أصابع اليد الواحدة، وأنا من الشخصيات العامة فى مصر ذات العلاقات الواسعة، وشهادتى تقوم على قياس دقيق للعينات. إن المسيحيين يملأون بقاع الأرض فهل من حق كل واحد منهم قطعة فى مصر مادامت مصر تعادل المسيحية.

إن الحل الذى لم يره هذا الكتاب ليس فى تمصير المسألة بالمسيحية أو بالمرحلة القبطية وحدها لكن بالمصرية. والمصرية تجمع ثقافة مصر القديمة وثقافة الحقبة القبطية وثقافة الحقبة العربية جميعا. فى تضافر ينطق به السلوك والعادات والتقاليد والكرنفالات الاحتفالية المشتركة، وهو موروث قديم من الثقافات الثلاث، متغشيات فى بعضها البعض.

والمصرية تعنى عدم تغليب ثقافة من تلك الثقافات على الأخرى لأننا لو أردنا مصر مسيحية لأنها كانت كذلك قبل الفتح العربى، وأن المسألة مسألة عراقة وتواجد أسبق، فالأولى أن نعود إلى الإله آمون،لأنه بهذا القياس الأعرج سيكون أعرق من إله المسيحية وأعرق من إله الإسلام، ولأنه عاش مقدسا بين الناس عمرا يعادل عمر الإلهين مجتمعين، وظل يعبد طوال تلك الحقبة الطويلة كرب رسمى لإمبراطورية عظمى عزيزة مقتدرة، بل كانت فى أحيان كثيرة الدولة العظمى الوحيدة فى العالم دون منازع، وإذا كان المقياس بمدى بركات الرب على شعبه، فكرامات آمون واضحة، فقط هو ينوء بفضيحة آل إليها أولاده من بعده بين الأمم. وإذا كان لابد من صبغ المواطنة بالدين فلدينا أديان مصرية قديمة من فرز واقعنا الوطنى الجغرافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فرز يتفق وأذواقنا ومنطق فهمنا الزراعى للحياة، أديان للنيل وللوادى وللمواسم وللزرع وللزهر وللحب وللعدالة والوداعة ولننفى الأديان البدوية الواردة. إن خطابا كهذا يستدعى خطابا كذاك، وكل منهما لايمكن تصنيفه ضمن الخطاب العلمى إطلاقا، بل ولاهو خطاب وطنى بالمرة.

وسيلاحظ القارىء أن صاحب كتابنا يبدأ تاريخ مصر من الحقبة القبطية، وهو فى ذلك مثل المسلم المتطرف الذى يبدأ تاريخ مصر من لحظة دخول عمرو بن العاص إليها.

انظر معى الكاتب ص (١٠) ومابعدها كيف يبخس وينفى الآخر من مذاهب مسيحية مخالفة لاعتقاد المؤلف ومذهبه، مستخدما للنفى مفردات لاهوتية كنسية ولايسوق مناقشة علمية. فقط مبرر نفيها إنها كانت آراء وثنية أو مذاهب هرطقية ؟ أى أن الصحيح هو الإيمان المسيحى الذى استقر فقط ؟ أليس ذلك إفصاحا عن عدم احترام داخلى للمبادىء التى ينادى بها صاحب الكتاب ؟ إنه يتخذ موقفه من تقييم المواقف المخالفة من أرضية اعتقادية بحتة، وأن الأنا هو الصح والآخر هو المخالف المارق الزنديق المهرطق الوثنى ؟ وكان النفى كما سنقرأ لأسباب دينية وليست وطنية، سالت فيها الدماء الزكية أنهارا حتى استقرت المذاهب المنتصرة القائمة للآن. وهى قائمة ليس لأنها الأصوب إيمانا بالضرورة، لكن لأنها التى انتصرت . ومن على مقعد المنتصر يحدثنا مؤلف الكتاب.

انظر مثلا موقفه مع حرمان الآريوسبين مع عدم تطرقه ولو بالإشارة إلى الاضطهاد المخيف الذى وقع عليهم ومدى عنفه، أو وقوفه مع المذهب المنتصر بالعنف ضد ما أسماه

«هرطقة نسطور» التى تم اضطهاد أصحابها بدورهم والتنكيل بهم، دون مبرر علمى واحد يبرر له اتخاذ هذا الموقف المنحاز سلفا، اللهم اعتقاده أنه هو وطائفته على العقيدة الصحيحة وحده، وهذا فى حد ذاته ذات التفكير الإسلامى المتعصب الذى لا يرى أحدا يملك الحقيقة النهائية والمطلقة سواه.

صاحب هذه الحقيقة المطلقة يتبع كنيسة ذات تراتب وظائفى وكهنوتى شديد التعقيد، ويهتم بدوره بهذا الأمر الذى لا يشغل أحدا صفحات طويلة، لكن الدرس الذى تخرج به بعد هذا الملل شديد الأهمية، لأنه يوضح أى منهج عتيق وبال ومعقد وبلا معنى يصر عليه القبطى المصرى. فالمؤلف حسب عنوان كتابه عن حقوق الإنسان وحول ص ٦٦ يحدثنا عن حقوق النساء ودورهن فيها مثلا : «الشماسات والمكرسات يقمن بحفظ النظام بين النساء أثناء أداء الطقوس ولاسيما فى القرى.أما دور الشماسات خلال تنصير (تعميد) النساء، فيقتصر على قيامهن بالشرح للنساء عما ينبغى عليهن عمله، ولكنهن لا يساعدن الكاهن فى التنصير أو عمله فى سر الميرون، حيث إن ذلك يقتصر أداؤه على الكاهن». أُنظر معى الكارثة العالمية التى ستترتب على ذلك :

«وهذا يعنى أن الشماسات لا يستطعن حمل القربان المقدس الذى يُتناول فى الكنيسة إلى منازل النساء المريضات لأن ذلك من وظيفة الكهنة دون غيرهم».

ما علينا من هذه الهموم الغريبة التى تشغل بال إخواننا الأقباط، لكنا فقط نرتعب لو تصورنا أنفسنا محكومين بالإنجيل بطقوس ورتب كهنوتية كتلك المعروضة أمامنا، وتمر آلاف السنين حتى يسمح للمرأة بدور غير كامل. فما بالنا لو كان ذلك فى مجتمع يحكمه كهنة الكنيسة ؟.

وهكذا بطول كتابه يسلم الكاتب المقولات الكنسية، ويقف مع مفردات غاية فى الصغر بجوار القضية الكبرى التى يتناولها، ويدعم وجهة نظره بتبريرات لاهوتية لا علاقة لها بحقوق الإنسان. أنظره يقول ص ٦٨ : «إن مسألة الطابع المذكر للكاهن الذى يقوم بأسرار الكنيسة تدخل فى البحث بصورة بارزة فى التوازن القائم فى الكنسية بين دراسة المسيح (الكيروستلوجيا) ودراسة الظواهر الروحية (النيوماتولوجيا) وهناك من الأمثلة ما يدعم هذا النظر، فى أن المسيح لم يختر أبدا بين حوارييه امرأة، كما أن العذراء مريم أم الكلمة

المتجسدة لم تقم أبدا بأية وظيفة كهنوتية فى الكنيسة، ولو كان مسموحا للمرأة بأن تمارس أية خدمة كهنوتية لكان واجبا أن تشغل وظيفة الكهنوت أولا، ولكن التقليد الرسولى لم يتضمن مطلقا سيامة المرأة كاهنة».

وهنا يتقدم كاتبنا يطلب حق المرأة فى الكنيسة لكنه يتواضع فى طلبه فيقول ص ٦٩: «إن إتاحة وصول النساء إلى مراتب السيامة الأدنى مثل مساعدة الشماس والقارئة والمرتلة والمعلمة وغيرها من مراتب السيامة هى مسألة تستحق الدراسة لإبراز كرامة المرأة ومكانتها على نحو محدد، وللاعتراف الصريح بمشاركتها فى العمل الكنسى».

ـ فإذا كان هذا نموذج القضايا الخاصة بالحقوق الإنسانية وكانت تلك طرق علاجها عبر مؤسسة عجوز قديمة معقدة، فكيف يمكن الحديث عن حقوق أقباط أمام أغلبية مسلمة؟ إن كارثة مصر أن كل من فيها مسلم أم مسيحى لايرى أخاه المخالف فى الملة إطلاقا: وكل منهم يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة، والكارثة العظمى أن كلا منهما يمزج مصر الوطن بعقيدته.

انظر كيف يتعامل صاحب هذه الرسالة العلمية مع التاريخ وبأى منطق، عندما كان يحكى عن حسم الصراع المذهبى فى أثيوبيا لصالح المذهب الأرثوذوكسى المصرى. وبدلا من أن يحدثنا الكاتب عن هذا النصر المصرى فى بلاد الأحباش بحسبانه نصرا وطنيا يضع دولة أخرى فى تبعية ثقافية لواحدة من الثقافات المصرية هى الثقافة القبطية، فإنه يفجعنا بالقول «ويعتبر انتصار الإنجيل فى أثيوبيا واحدا من أهم الأحداث العظيمة» وهكذا يند عن الرجل مجموعة من الاعترافات الضمنية المذهلة، لعل أوضحها أنه مشغول بانتصار الكنيسة أكثر مما هو مشغول بمصر، وأن انتصار الكنيسة المصرية يعنى انتصار الإنجيل ولم يقل انتصار مصر، رغم أن الذين هزموا وتراجعوا بالحبشة كانوا أتباع الإنجيل أيضا، كل مافى الأمر أنهم كانوا يخالفون المذهب المصرى الأرثوذوكسى. لكن الرجل لايرى الآخرين المخالفين مذهبيا أتباعا للإنجيل لأنه هو الذى يعرف الانجيل الصحيح، وهو الإنجيل الذى انتصر فى أثيوبيا.

بأى حق نلوم المتطرفين المسلمين إذن؟

وينشغل كاتبنا أيما انشغال بكل شىء عدا مصر التى قبعت فى سطور منزوية برسالته،

فهو مثلا مشغول بالدفاع عن أمر عجب فى ص ٧٨، إذ قام يشرح ويبرر أن انفصال كنيسة الإسكندرية عن روما ليس قطيعة تامة، بل يوجد تقارب بين الكنيستين يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى الوحدة المسيحية ؟!!

وبالطبع ستكون كنيسة روما هى ذات اليد العليا فى تلك الوحدة المسيحية المنتظرة. لكن كاتبنا لايتكلم بنفس الحماس عن وحدة وطنية فى مصر بين عنصريها، تشغله الوحدة المسيحية أكثر. فلماذا إذن ينزعج أقباط مصر وهذا منهجهم من الوحدة الإسلامية؟! وهل فى سبيل الوحدة المسيحية المنتظرة يمكن التضحية باستقلال الكنيسة المصرية الذى نعده جميعا مصدر فخر للمسلم والمسيحى، لأنها مصدر فخر مصرى وطنى. هل يمكن أن نضحى بالاستقلال من أجل وحدة طائفية عالمية ؟ لماذا إذن ننزعج من مطالب دعاة الوحدة العربية التى هى أقرب إلى المقبول على كل المستويات فى حال المقارنة.

والأنكى والأمر أنه يطالب فى ص (٩٧) بحرية الوالدين فى تنشئة أطفالهم دينيا لأنها من أساس حقوق الإنسان وهو «حق الوالدين فى تنشئة أطفالهم على الديانة التى يختارونها». وكنت أظنه سيقول بعدم التدخل إطلاقا فى فرض أية وصايا على عقل الطفل وروحه حتى يختار بكل حرية أى دين أو لا يختار أى دين، إذن لكان الكلام موحياً بمدى الاحترام والفهم لحقوق الإنسان.

وهكذا كنا فى منتهى الصدق عندما قلنا أن هذا الكتاب يدق جرس إنذار لأمر عظيم، رغم أنه لم يخرج عن ذات المنهج الأصولى فى رؤية الأمور، المنهج الذى يحكم الشارعين المسيحى والإسلامى فى مصر. ولاخلاص من هذا كله إلا بسعى حقيقى دائب لايفتر ولايكل من أجل إقامة دولة مدنية مؤسساتية حقا وصدقا، وقبل ذلك مَدْيَنَة العقل المصرى وعلمته وتعليمه معانى الحريات وتدريبه عليها فى ممارسات ديمقرطية سليمة. أو لنا أن نختار غير ذلك، فهناك طريق آخر جاهز لدينا، وهو طريق امتلاك الأساطير وأوهام الحقيقة المطلقة، وهو الطريق المعلوم فى التاريخ، وسبق أن سارت فيه عمورة وسدوم أو عاد وثمود والهنود الحمر.

فتلك سكة السلامة وهذه سكة الندامة، فإن أصررنا على مناهجنا السلفية العتيقة الواحدية الدموية الأسطورية، فلن يخسر العالم شيئا باختفائنا من على صفحة التاريخ، بل

ربما خرج كاسبا بعد انقراض أفواه تأكـل ولاتنتج.، بل تشيع فى الأرض العدوانية والوحشية، وتعيش عـالة علـى الدنيـا، وترى أنها شعـوب مختارة وهـى فى أدنـى درجات سلـم التطور الإنسانى. وسـاعتها لن يندم أحد، وربمـا كانت لنا فـائدة واحدة فى تلك الحالـة، وهى أننا سنكون فـى مقتبل الأيام درسا وعظـة عند الذكرى، ومـاعدا ذلك فهـو تاريخ نوع مـن القردة العليا تـوقف عن التطور والتكيـف مع المتغيرات، فأنقـرض وآل أمره إلى المتاحـف وعلماء الآثار.

الهرم فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩٧

المحتويات

من أعمال المؤلف :

١ ـ الموجز الفلسفى .
٢ ـ مشكلات فلسفية .
٣ ـ (رب الثورة) : أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة .
٤ ـ الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
٥ ـ النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.
٦ ـ الأسطورة والتراث .
٧ ـ حروب دولة الرسول / ٢ ج
٨ ـ قصة الخلق : منابع سفر التكوين .
٩ ـ إسرائيل : التوراة والتاريخ والتضليل .
١٠ ـ رب الزمـــان.
١١ ـ النبى موسى وآخر تل العمارنة .
١٢ ـ الســؤال الآخــر

السؤال الآخر ـ د. سيد محمود القمنى

رقم الإيداع	٩٨/٤٠٢٦

طبع فى مطابع روزاليوسف الجديدة

السؤال الآخر !!



السؤال الآخر هنا يخوض فى أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعى دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح - ربما كان صادما - نحو المناطق التى تتعلق بمعاشنا وحياتنا. حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها، لأن استمرار السكوت مع الوعى والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بعدو البلاد عام ١٩٦٧ إلى حدود الدلتا الشرقية، وانتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

ولأن هذا الشعب كثير الدهشة - دائماً - ولايخشى ملامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها فى صيغة سؤال يقول دهشا مستنكراً: (هوه السؤال حُرُمْ؟!). وهو ذات الشعب الذى كان يرفض الأوضاع الخاطئة فى المجتمع، كما يرفض فى ذات الوقت الرشوة المقدسة بالحور والخمور فى عالم الأبدية، فى مثله البسيط السائر (المحتاج يبيع نصيبه فى الجنة). لكن ماحدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية، التى قامت عن عمد وسبق إصرار بتزييف وعى الجماهير، مما أفرز لدى المواطن المصرى وعيا زائفاً لاعلاقة له بالفرز الطبيعى للوطن، لذلك كان طبيعيا أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح بعد أن غاب مفهوم الوطن وقيمه لصالح ذوى المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدول التى ترعاها.

إن هذا الكتاب الذى بين يديك يطرح تساؤلات آن لها أن تُطرح أيا كانت العواقب على شخص الكاتب، تساؤلات تُصر وتكرر مطاليبها بين موضوع وآخر، وهى المطاليب التى لن تتحقق إلا إذا سمحنا للسؤال الآخر بالمرور، واعتدنا سماع الرأى الجديد أو المخالف، وبفتح النوافذ على العقل دون تقييد أو قمع، وأن تناقش الفكرة الأخرى ولاتطالب بمصادرتها أو تكفيرها. أن نحقق العلمنة على مساحة الثقافة على الأقل وهو أدنى المطاليب. ساعتها يمكن القول أن هناك أملا فى أننا سوف نكون.

